MY PSYCOPATH FRIEND

ميرنا المهدي



صديقي السيكوباتي

رواية

إهداء

إلى أمي، ومايا، وكل من آمنوا بي

_كالعادة _

وإلى نفسي

على غير العادة ...

رسالة من الكاتبة

صديقي القاريء،

بين يديك الآن الرواية الأقرب إلى قلبي.

ليس لشغفي بفئة الإثارة النفسية التي يندرج تحتها هذا العمل، ولا المتعة التي غمرتني أثناء بحثي ودراستي اللذين استغرقا قرابة الثلاثة أعوام لأتمكن من صقل حبكتها وإثراء تفاصيل شخصياتها بمادة علمية سليمة؛ ولكن لأن تلك الرواية هي بمثابة انتصار لي على حالة اكتئاب الكُتاب المعروفة باسم Writers’ Block التي أصابتني بسبب بعض الإحباطات الأدبية التي باغتتني منذ عام ٢٠١٧ واستمرت حتى باكورة عام ٢٠٢٠ الذي شهد تعاوني مع دار ن للنشر والتوزيع.

فكرة رواية (صديقي السيكوباتي) كانت حاضرة ولكن قدرتي على كتابتها كانت غائبة كلياً.

بقيتُ أعدُ للرواية وأتواصل مع نخبة من أطباء علم النفس حول العالم لمراجعة تفاصيل الرواية وحبكتها كي تتماشى مع الأمراض النفسية المذكورة بها، ولكني عجزتُ عن تنفيذها وبقيتُ أحدق لساعات بصفحة الحاسوب الفارغة وأنا أشاهد الأحرف تتبخر والأفكار تتطاير من لبي.

استمرت تلك الحالة من التحديق الهائم بالصفحات حتى يناير ٢٠٢٠ بعد محادثة أدبية طويلة مع أستاذي وأبي الروحي السيد (حسام حسين) لتخلفها معجزة ملهمة.

حلّ (هادي الحكيم) – إحدى الشخصيات التي سترافقك أثناء رحلتك بهذه الرواية – ضيفاً بأحد أحلامي وإذ به يحادثني عن تفاصيل شخصيته وقصته لأستيقظ فجراً والإلهام يغمرني فتتسابق الكلمات بذهني نافذة من عقلي لتطأ الأوراق التي لم تعد خاوية بل زاخرة بكل ما عجزتُ عن أن أخطه لثلاث سنوات.

لِما سبق، أردتُ أن أهدي تلك الرواية لنفسي لأنها كانت علاجي ومخرجي من حالة الخدر الروائي التي أصابتني وأنا الآن أضعها بين يديك ويدي كل من شجعوني وجاهدوا بكلماتهم الطيبة وروحهم المحبة وعلى رأسهم أمي وشقيقتي لإخراجي من فترة الشلل الأدبي التي مررتُ بها.
أتمنى أن تلهمك روايتي كما ألهمتني وتحثك على إتّباع شغفك وتشبثك بولهك، فصاحب الهوى سيحقق مرامه مهما قصى.

ميرنا المهدي

(يظل الماء يملأ الكوب بلا هوادة أو حساب حتى يصل لأقصاه وحينها، يطفح كيله ويفيض.)

الفصل الأول

على الرغم من أن الحياة قد سلبته الكثير، وحطمت الدنيا معظم ممتلكاته، إلا أن (سالم عبد الرحيم) كان مستعداً أن يدفع عمره ثمناً للإبقاء على سلامة هذا التمثال.

ظلت هرّة (سالم) السوداء تحوم حول غرفة نومه وتتمسح بساقيه، ولكنه تجاهلها ولم ينزل نظره عن ذاك التمثال الصغير الساكن بخزانة ملابسه.

كان من فخار، نحتته أنامل سمراء ناعمة أتقنت تشكيل إله الفيوم ذا الجذع البشري المفتول العضلات ورأس وذيل التمساح الفرعوني الفتاك المتوّج بقرص الشمس وكلما غاص بتفاصيله، استرجع ما همست به خالقته الموهوبة بمثل هذه الليلة منذ ستة وعشرين عاماً وهي تهديه إياه.

"عشان تفضل قوى وشجاع زي (سوبك)."

استفاق من أحلام يقظته حين بدأت هرته تخدش مرآة خزانته التي لمح بها انعكاسه.

كان ذا نظارة نظر مربعة وشعر قصير لا يعلو عن رأسه المستدير، عن درجة واحدة.

عريض المنكبين، فارع القامة، ولكن ما يميزه، هو عدم تميز ملامحه الخاوية من أية بهجة وقسمات وجهه الرتيبة التي

تماشي ثيابه النمطية فيبدو للرائي أن (سالم عبد الرحيم) رجلٌ مهمشٌ بمقتبل الخمسينات على الرغم من أنه لم يتخطى منتصف ثلاثينياته بعد.

***

وصل لأذنيه غناء (حبيبة)، شبيهة (نفرتيتي) التي اتخذها زوجة منذ ثمانية أعوام، وهي تدنو من غرفة نومهما محتفية بالعيد.

- غنوا معايا غنوا. غنوا!.. قولوا ورايا قولوا. قولوا!.

سألها ببرود يتناقض مع فرحتها الطفولية

- أخوكي التافه، وصل؟

عقدت حاجبيها زافرة وهي تتكأ على باب الحجرة

- ما تتكلمش وحش عن (عمر)، أنا أخويا..

- أخوكي بيتأخر وأنا جعان ومش هستنى حد فياريت تستعجليه.

داعبت شعرها القصير وهمت أن تجيبه ولكن رنين جرس الباب استوقفها.

ماءت قطته، وأسرعت خارج الغرفة لتشبع فضولها الغريزي

بينما علّقت (حبيبة)

- شكل الجيران زهقوا من شقاوة ابنك ورجعوه لنا بدري.

خرجث من الغرفة بينما تذكر (سالم) أنه سهى عن علبة سجائره ومقدحته بجيب سرواله.

فرد بنطاله ليخرج مراده ثم اصطفى سيجارة وما كاد أن يشعلها حتى سمع حركة غريبة من الخارج تتبعها صفعة باب ثم صريخ زوجته مستغيثة

- سااااالم!

لم يكد يتحرك من مكانه فإذا به يرى ملثماً طويل القامة هزيل الجسد متشحاً بالأسود.

كانت يده ضاغطة على عنق (حبيبة) ومسدسه مصوباً نحو رأسها فتجلى الرعب على ملامحها وهي تستنجد مرتعشة

- الحقني يا (سالم)!.

حدق (سالم) بعيني المجرم المتخذ زوجته رهينة، وتفحص هيئته ومسكته للمسدس جيداً ثم أغلق خزانته على مهِل واقترب منه بتؤدة لا تليق بهيبة الموقف فإذ بالملثم يحوِّل مسدسه صوب (سالم) ويصيح بصوت عريض

- مكانك!.

حدجه (سالم) باحتقار ثم أشعل سيجارته ونفث دخانها بروية قائلاً:

- أول مرة أشوف مجرم بيخبط عـالباب. بتستأذن قبل ما تقتلنا؟

- بقولك مكانك أعاد الملثم مسدسه صوب رأس (حبيبة) مهدداً: لو قربت هقتلها.

وضع (سالم) يديه بجيبي منامته الرمادية ومر بجوارهما ليخرج من الغرفة بلامبالاة متمتماً:

- هغرف لنفسي لحد ما تخلصوا هزار.

نفث دخانه صوبهما برزانة ثم ترك لهما الغرفة وخرج.

خلع (عمر) شقيق (حبيبة) غطاء رأسه وأنزل مسدسه البلاستيكي ثم التفت لها متساءلاً:

- هو هرش المقلب إزاى؟

دفعته (حبيبة) بكتفه موبخة إياه

- مش قلت لك ما تتكلمش، أديه عرف صوتك والمقلب باظ.

***

دخن (سالم) سيجارته الخامسة مداعباً هرته المرتخية على أريكته السوداء أمام شاشة تلفازه الضخم التي تعرض فيلم Saw والذي يجد به ابنه (أدهم) لذة كبيرة تصل لذروتها كلما رأى البطل ذا القناع الماجن يذبح ضحاياه لتسيطر دمائهم المتطايرة على المشهد.

قلد (أدهم) الصغير، الذي تتطابق ملامحه مع ملامح أبيه، صرخات المعذبين بالفيلم وهم يستنجدون بالإنجليزية

- Help me! help me

بينما هيمنث رائحة الطعام النافذة من المطبخ على الصالة حين انشغلت (حبيبة) برصّ الصحون على السفرة التي تتوسط الصالة الفسيحة بمساعدة أخيها.

- الأكل جاهز يا حبيبي.

قالتها (حبيبة) وهي تضع صينية الرقاق ثم استوقفها صوت ابنها المحقر من عذاب الآخرين فصاحت به: (أدهم).. مش قلت لك تحول على الفيلم الوِحِش ده.

أسرعت صوب التلفاز وانتشلت جهاز التحكم من على الطاولة وأطفأته ليجادلها الصغير معترضاً:

- ده مش وِحِش، بابى بيتفرج عليه.

- لما تبقى قد بابي ابقى إتفرج زيه.. يلا عشان ناكل.

نهض (أدهم) غاضبا وظل يضرب الأرض بقدميه الصغيرتين في طريقه للسفرة العامرة بينما أطفأ (سالم) سيجارته ونهض ليترأس مائدة الطعام حيث جلس (عمر) على الكرسي المجاور لشقيقته وهو يمازح (سالم) بابتسامة سِمجة

- عيد سعيد يا أبو نسب. كل سنة وأنت هارش مقالبنا.

لم يلتفت له (سالم) وانشغل بصحنه بينما جلست (حبيبة) بجواره مربتةً على كتفه في محاولة لاستمالته

- أزود لك اللحمة؟

- هو أنتِ مش وعدتيني إبريل اللي فات إن دي آخر سنة تمارسي عليّ خفة ظلك أنتِ وأخوكي؟

أسرع (عمر) ضاحكاً ليُفسر نيابة عن أخته

- ووفت وعدها. إحنا ما عملناش كدبة إبريل.. عملناها في يوليو أهو ومع ذلك مادخلتش عليك يا صايع وبردو قفشتنا.

راقبت (حبيبة) ملامح زوجها الجامدة التي لم تلن مع ضحك (عمر) فابتسمت بتوتر معلّقة

- ما أنت عارف يا (سالم)، من صغرنا وأحنا مابنعرفش

نعدي سنة من غير كدبة أبريل.

رمقها بحدة كانت كفيلة بجعلها تبتلع ضحكتها لتتركه يكمل حساءه بهدوء ثم التفتت لـ(أدهم) مداعبة رأسه لتخفف التوتر الراقد على المائدة

- قلت ميرسى لبابى على العيدية؟

- وبوسته كمان.

سأله خاله (عمر)

- هتجيب أيه بقى يا سي (أدهم) بالعيدية دي كلها؟

- هجيب لعب لخروفي ألتفت (أدهم) لـ(سالم): بابي، هو خروفي هيرجع البيت أمتى؟

أجابه (سالم) بتلقائية مبتلعاً حساءه

- مش هيرجع. أنا دبحته.

نظر (أدهم) لأبيه مصدوماً بينما صُعقت (حبيبة) من شناعة رد (سالم) الذي أكمل طعامه.

نفرت العروق بوجه (أدهم) واحتل الغضب قسمات وجهه الصغير فصاح بـ(حبيبة).

- أنتِ قلتِ لي مش هتقتلوا خروفي السنة دي.

همت (حبيبة) أن تبرر موقفها

- حبيبي أنا..

قاطعها (سالم) بهودء

- ده مش خروفك يا (أدهم).

- لأ خروفي، أنا اللي بأكله وبلعب معاه و...

- أنت اللي اشتريته؟

- بس أنا اللي كنت...

كرر (سالم) سؤاله بهدوء رهبان هضبة التبت

- أنت اللي جِبته بفلوسك؟

عجز (أدهم) عن الرد وقد صُبغت عيناه بحمرة الغضب حين أردف (سالم)

- أنا اللي اشتريته وأنا اللي قررت أأكله للفقرا وكل سنة هعمل كدا، فلو عايز تربي خروف، حوِّش واشتريه بفلوسك وربيه زي ما أنا بربي قطتي.

أكمل (سالم) حساءه بينما عجز (أدهم) عن إيجاد رداً يُجَابِه منطقية كلام أبيه فقلب صحن طعامه على السفرة بعصبية لتصيح به والدته وهي توبخه

- (أدهم).. كدا نعمة ربنا؟!

استوقفها (سالم) برزانة: سِبيه يفرغ غضبه التفت لـ(أدهم) بالهدوء ذاته: تحب تكسر إيه تاني عشان تهدي أعصابك؟

اغتاظ الصغير أكثر فألقى بكوبه الزجاجي أرضاً فتهشم ثم نهض دافعاً كرسيه أرضاً وصاح بحنق وغل لا يليقان بحجمه الصغير

- أنت قتلت خروفي!

ترك الصالة وهمّت (حبيبة) أن تلحقه ولكن (سالم) نصحها بحكمة

- إدي له مساحته.

- إيه اللي عملته ده يا (سالم)؟!

- أنتِ اللي عشمتيه بالكدب.

- يعني فى النهاية أنا اللي غلطانة.. ده طفل ولازم أسايسه.

وضع لنفسه المزيد من اللحم الأحمر معلقاً

- طول ما بتعامليه على إنه طفل مش هيكبر.

- غلط.. اللي بيحصل ده غلط.. مش كل سنة تجيب روح تعلق ابنك بيها وبعدها تدبحها.

- اللي يتعاطف مع الخرفان عمره ما هيبقى سَبع.

- ابنك مش سبع. ابنك طفلماينفعش معاه العنف ده.

- ده على أساس أني مفطره ومعشيه بعلقة؟

- العنف مش لازم يكون بالضرب.. الخطاب الأبوي اللي بتستخدمه فى تربيته بـ..

- أنتِ أيه اللي فكرك بشغل علم النفس التربوي ده يا (حبيبة)؟ مش كنتي بطلتيه من زمان؟

- بطل استفزاز.. أنا عارفة أننا مختلفين بس أنا بحب أختلافنا عشان بيكملني وبيهدي جناني وعصبيتي لكن ده مش معناه إنك توصل لمرحلة البرود دي، أنا..

علق (عمر) مقاطعهما

- اهدوا يا جماعة إحنا في عيد، أنا شايف إننا نصلي عـالنبي كدا و..

- وأنا شايف يا (عمر) إنك ماتدخلش البيت ده تاني إلا لما تتعلم تحترم صاحبه.

انقشعت ابتسامة (عمر) المرحة وانقبضت ملامح (حبيبة) وهي تجزّ على ضرسها

- (سالم)!

كاد (عمر) أن يعلق ولكن النظرة الحادة التي حدجه بها (سالم) حبست كلماته قبل أن تندفع من بين شفتيه.

سعل (عمر) مصفياً حلقه وتكلم بنبرة تشي عن وطأة حرجه وشدة انزعاجه

- تمام.. عن إذنكم.

اتجه صوب الباب ليرحل فهمّت (حبيبة) أن تتبعه

- استنى يا (عمر).

أسرع (عمر) فخرج دافعا الباب خلفه وما أن نهضت (حبيبة) حتى جذبها (سالم) من معصمها الناعم وأحكم قبضته عليها قائلاً بنبرة هادئة يشوبها الكثير من الترهيب

- لما تبقي أنتِ والأراجوز ده مستهيفني في بيتي، يبقوا أنتو ما بتحترمونيش.. واللي ما يحترمنيش يا (حبيبة) يبقى بيجي عليا.. وأنا مابحبش حد يجي عليا.

أصابتها القشعريرة وتسللت الريبة إلى قلبها من ذاك الذي تنام بجواره كل ليلة حين استشعرت منه تهديداً ووعيداً ففاحت رائحة الخوف بالأفق.

همست بنبرة مرتعشة وقد اغرورقت عيناها الواسعتان

بالدموع:

- إيدي يا (سالم)!.

أدرك شدة استحكام قبضته عليها فحرر معصمها بعدما تركت عليه أصابعه الطويلة علامات حمراء.

عاد إلى صحنه وما كاد أن يأخذ ملعقته الأولى حتى سمع (حبيبة) تشهق وتصيح

- (أدهم) أنت بتعمل أيه؟

رفع (سالم) نظره عن صحنه ليجد ابنه الصغير حاملاً هرته، قابضاً على عنقها بعنف، ممسكاً بسكين حامي وبعينيه غضب وانتقام لا يتماشيا مع ملامحه الملائكية

- هدبح قطتك زي ما دبحت خروفي.

انتفضت (حبيبة) لتركض صوب ابنها وتسحب من يده السكين فخلصت القطة التي ركضت صوب (سالم) واختبأت بين ساقيه بينما صاحت (حبيبة) بـ(أدهم)

- أنت اتجننت؟ عايز تقتل؟ عايز تبقى مجرم وتدخل السجن؟

- إشمعنى بابي قتل الخروف ومادخلش السجن.

عجزت عن إيجاد الرد المناسب فالتفتت لـ(سالم) وكأنها تسأله العون فقرر أن يترك طعامه ويتدخل.

- عايز تقتل قطتي يا (أدهم)؟

- أيوة، عشان أنت قتلت خروفي.

نهض (سالم) وسار حتى ابنه. أخذ السكين من (حبيبة) وأعطاها لـ(أدهم) قائلاً بحزم

- برافو، الراجل مايسكتش عـاللي ظلمه.. أنت شايف إني ظلمتك لما قتلت خروفك، ماشي. بس لما تيجي تاخد حقك، أتعلم تأذي اللي أذاك وماتاخدش حد بذنبه.

نظرت له (حبيبة) مصدومة وهمست مرتبكة

- (سالم) أنت بتقول أيه!.

أعاد لابنه السكين ولكن الصغير تردد في أخذه.

- لو عاوز تنتقم يبقى اقتلني أنا، بس خليك عارف إني لو مت أنت مش هيبقى عندك أب، ومامتك مش هيبقى عندها زوج.. هتدخل السجن ولما تطلع منه مش هتلاقي شغل، يعني مش هتبقى ظابط زي ما بتحلم.. ده تمن غضبك ورغبتك في الانتقام يا (أدهم)، لو مستعد تتحمله، اتفضل قرب السكين لكفه الناعم الصغير: خد حقك.

نكس الفتى رأسه للأرض بخزي ثم همس

- أنا زعلان منك بس مش عايزك تموت.

لم ينجلي غضبه كلياً ولكنه خفت قليلاً واقترب من أبيه بأعين ثائرة ولكن بقلب مسامح وعانقه

- أنا عايزك تفضل عايش.

ربت (سالم) على ظهر صغيره ثم أمره

- ارجع كمل أكلك.

تركه الصغير وذهب للسفرة حيث تختبئ القطة التي كاد أن يذبحها فجلس ليأكل.

همّ (سالم) أن يتبعه ليكمل وجبته ولكن (حبيبة) جذبته من ذراعه بأعين غاضبة ونبرة صارمة

- عايزاك في الأوضة حالاً!.

***

دخل عمر ذو رداء النينجا الأسود إلى الأستوديو الصغير الذي يعيش به بالشارع الخلفي لشقة (حبيبة) و(سالم) بمنطقة دجلة في المعادي.

فتح باب مسكنه الفوضوي الذي يكاد ينطق «هنا يقطن

عازب أرعن وولج الصالة ولكن استوقفت أنفه رائحة غريبة.»

عطر ذكوري نفاذ له طابع باريسي وجاذبية يستحيل تفويتها.

تعجب متساءلاً عن مصدر تلك الرائحة التي احتلت شقته فهو لا يتعطر إلا إذا كان خارجاً بموعد غرامي.

تجاهل الرائحة النفاذة المهيمنة على الصالة، ووقف في الظلام بالقرب من الباب طالباً رقم هاتف الباغية التي يواعدها ولكنها لم تجب تلك المكالمة تماماً كالخمسة وثلاثين مكالمة اللاتي سبقنها.

- ما هي نقصاكي يا (ليالي).

كان يكتنف صالة مسكنه أصوات مختلطة: دقات ساعة الحائط، تغريد عصافير الظهيرة المتخذين الشجرة المجاورة لنافذته مسكناً، نداء بائع بلالين العيد، بكاء رضيع جارته (رولا)، وصوت شد أجزاء سلاح.

كان الصوت الأخير دخيل عليه ولكنه استوطن أذنيه فانتفض والتفت ليتبين مصدره الذي لم يشك للحظة أنه داخل منزله، بل في نفس الصالة التي يقف بها، بل على بُعد خطوة منه.

أصاب التخمين، فور أن التفت خلفه، وجد رجلاً فارع القامة، رياضي البدن، مفرود الظهر، مرتدياً بدلة بيضاء ناصعة من النايلون تشبه البدل اللاتي يلبسها العمال بالمناحل لتغطي جسده من رأسه حتى أخمصه.

ذاك الضيف ذو الزي الغريب صوّب مسدساً ألصق فوهته بجبين (عمر).

بالبداية، ارتبك (عمر) ولكن بعد لحظات انفرجت أساريره وضحك

- ده مقلب (حبيبة) صح؟ ضحك بعفوية: يا ولاد الصايعة، عملوا الفيلم ده وطردوني من البيت عشان أجي ألاقيك مستنيني ضرب كفيه ضاحكاً: أصيع كدبة أبريل.

ضحك مرتدي الأبيض من أسفل قناع وجهه الأسود.

أزاح الشاشة الشفافة التي تغطي رأسه ثم خلع القناع الأسود الصوفي الذي كان يرتديه من أسفلها.

ارتبك (عمر) حين رأى وجه حامل المسدس الكاتم للصوت الذي همس له بضحكة مكبوتة

- بس دي مش كدبة أبريل يا (عمر)!

أطلق مرتدي الأبيض رصاصة استقرت برأس الشقيق

خفيف الظل.

الفصل الثاني

الآن فَهِمَ ممن ورث (أدهم) عصبيته.

- إيه اللي أنت هببته ده؟!

قالتها(حبيبة)وهي تضرب الأرض بقدميها وتشوح في الهواء بكفيها المكتنزين وقد برزت العروق الحمراء بعينيها الداكنتين وتحولت نظرة الخوف التي اعتلتها منذ لحظات حين قبض(سالم)على معصمها إلى غضب وحنق عندما تعلق الأمر بصغيرها.

سألها (سالم) بهدوء

- أنا بردو؟

- أومال أنا؟ أنا اللي استفزيت (أدهم) وخليته يرفع سكينة على حيوان بريء؟ راجعت الجملة الثقيلة على قلبها ثم شعرت بالفزع لتتجمع الدموع بعينيها: ابني كان عايز يقتل روح.. كان هيدبحها قدامنا.. أنا ابني.. أنا ابني مجرم سيكوباتي.

رنت الكلمة الدخيلة بأذن (سالم) وكاد أن يستفسر عن معناها ولكن زوجته الضئيلة الثائرة رفعت سبابتها صوبه صائحة:

- أنت السبب، أنت اللي علمته العنف بالأفلام الزفت اللي بتفرجه عليها، وبمعاملتك الباردة له وفي النهاية جَي تقوله اللي يأذيك أذيه وبتمسكه سكينة!

ثبتّ نظارته على أنفه وسألها مستفهماً وكأن كل ما تفوهت به لم يمر على مسمعه

- يعني إيه سيكوباتي؟

ودت أن تصيح وتصرخ وتنفجر بوجهه كلياً ولكنها حاولت أن تكبت ثورتها بأن تضغط على ضروسها وتزم شفتيها حتى لا تنفذ الكلمات الغاضبة من بينهما فقالت بنبرة محتنقة كفحيح الأفعى

- أنت بقيت بني آدم بارد.

اتجهت صوب الخزانة وأخرجت حقيبة ملابسها وبدأت تلملم ثيابها.

جلس (سالم) على الكرسي المقابل للنافذة لينعكس ضوء شمس الوضاح على ملامحه الفرعونية.

- أنا مش هروح أصالحك في بيت أخوكي يا (حبيبة).. لو مصممة تغضبي روحي لخالتك (سعاد)، دمها خفيف وبتعرف تهديكي.

نظرت له بيأس وانكسار:

- أنا مش عارفة أنت كنت كدا طول عمرك وأنا عشان بحبك ماخدتش بالي، ولا أنت بقيت كدا بعد ما الجواز خلاك تضمن وجودي معاك.

- أنا عمري ما ضمنت وجودك.. أنا مش ضامن أي حاجة في الدنيا دي.

- أومال بقيت قاسي معايا كدا ليه؟

- يعني أنا قاسي معاكي وعنيف مع ابني.. مش حاسة إنك متحاملة عليا شوية النهاردة؟

- وأنت مش حاسس أننا مابقناش فارقين معاك؟

- إيه اللي أوحى لك بكدا؟ أنا عمري ما عنفت حد فيكم ولا رفعت صوتي عليكم ولا بهينكم ولا مقصر معاكم في حاجة، الشيء قبل ما تطلبوه بيبقى عندكم.

- مش كفاية.. مش ده الحب يا (سالم)، ده مش أكتر من احترام.. أنت بتحترمني زي ما بتحترم مدام (كوثر) اللي في الرابع لكن أنت.. هربت دموعها رغماً عنها: أنت مابقتش تحبني.

زفر وآثر الصمت ولكنها تمنت لو نهض وربت على كتفها

ومسح دمعها ثم وضع رأسها على صدره وضمها محتوياً عاصفتها العاطفية إلا أنه اكتفى بتدخين سيجارة أخرى ونفث كلماته مع دخانها

- هو إيه الحب من وجهة نظرك يا (حبيبة) عشان نخلص من النكد ده؟

تيقنت من أن دموعها لا وزن لها عنده فمسحتهن واستقوت صائحة

- وعلى إيه يا (سالم)، أنا هاخد ابني وأريحك من النكد ده خالص.

- لو سيبانك للبيت هيريحك، أنا ماعنديش مانع.

- طب الحمد الله إن ماعندكش مانع، دي حاجة نضيفها لليستة الحاجات اللي مش عندك، زي الدم والإحساس والمشاعر.. أنت خلاص، بقيت التعريف المثالي للراجل السيكوباتي.

حك رأسه بفضول

- إيه معنى الكلمة الجديدة اللي أنتِ فرحانة بيها دي.

صاحت به فاقدة آخر ذرة صبر عندها

- روح لدكتور نفسي وهو يشرح لك، يمكن يعالجك

ويخلصنا من برودك ده.

***

صعد صوت الأكورديون فتنهدتْ (إيديت بياف) ثم ترنمتْ بحنان:

"ذاك الهوى يلاحقني ليلاً ونهاراً، ذاك الهوى لم يولد اليوم.. قد أتى من حيث أتيتُ، يقوده مئة موسيقار، يوماً ما سيدفعني ذاك الهوى للجنون، مئة مرة أردتُ أن أسأله لِمَ، ولكنه قاطع كلماتي، فهو دائماً يسبقني بالحديث ويعلو صوته حتى يغطي على صوتي»

ذاك الأربعيناتي المدعو (هادي الحكيم) لم يولد بعصر الفن الذهبي حيث الأحاسيس المرهفة والفساتين المنفوشة وشعور الرجال اللامعة بالفازلين ولكنك حين تراه الآن وهو يكرر مقطعه المفضل من أغنية Padam بلكنة باريسية ممتازة وشمس الظهيرة تنعكس على نظارته الريبان السوداء والنسمات الصيفية التي ولجت عبر السقف المكشوف لسيارته الكلاسيكية من فئة MGB Convertibles موديل 1972 تداعب شعره الناعم الكثيف، ستتيقن من أنه جذاب ذو كاريزما ملكية.

حمل الهواء عطره النفاذ صوب سيارة بها مجموعة من بنات العشرين عاماً في طريقهم إلى الساحل الشمالي احتفالاً

بالعيد، فالتفتن صوبه ليبادلهن بابتسامته الساحرة ثم زاد سرعته وهو يراقص الأسفلت مندمجاً مع موسيقاه وسمائه والصبا التي تعانق ملامحه الدقيقة.

***

وقف بردهة الفندق الأندلسي التصميم ليراجع موظف الاستقبال بياناته ثم أسرع حامل الحقائب بأخذ حقيبته الجلدية الثقيلة عنه وقاده موظف علاقات النزلاء للمصعد وصولاً للطرقة المؤدية لغرفته بينما أكمل مكالمته عبر سماعة البلوتوث.

- أنا خلاص وصلت.

فتح الموظف باب الغرفة وأشار له بالولوج، فدخل (هادي) ثم وضع يده بجيبه مستوقفاً الموظف الذي هم أن يرحل

- لحظة.

التفت له الموظف، فأعطاه (هادي) مئتي جنيه بقشيشاً معلقاً بأرستقراطية

- ميرسي يا مسيو.

نظر الموظف للبقشيش السخي وعلق بامتنان

- ميرسي يا فندم، أي خدمة؟

أشار له بلا فخرج الموظف.

وطأ (هادي) الغرفة التي غلب عليها اللون الفيروزي وأول ما فعله كان الوقوف أمام المرآة لتعديل شعره الذي عبثت به الرياح.

هندم ياقة قميصه البولو الزهري وعدل خصر سرواله البيج ورفع يده التي تصقل أناقته بساعة رولكس ذهبية تزين معصمه الذي يمشط بأصابعه شعره اللامع الذي قد طُيعَت كل شعرة به لتكون تحت إمرة مشطه.

داعب وجنتيه متحسساً بشرته الرائقة التي تتوج طلته السينمائية فتعجز النساء عن مقاومة الثناء عليها وهام متأملاً حسنه وأناقته ولم يفق سوى على صوت (هايدي) التي نطقت عبر سماعة البلوتوث بنبرة مترنحة مقاطعة نظراته النرجسية.

- باسوورد الخزنة واحد وعشرين حداشر.

ترك المرآة ثم اتجه صوب الدولاب ذي الباب الخشبي الجرار. فتحه متحمساً ليجد الخزنة قابعة بداخله.

ضرب الرقم الذي أملته عليه. رنت الخزنة. أدار قفلها ففُتحت فارتسمت علامات السعادة والرضا على وجهه.

لقد وجد مكافأته!

أخرج من الخزنة حقيبة جلدية صغيرة مرصعة بالذهب والماس ثم فتحها ليخرج ما كان منضجعاً بقلبها المصنوع من القطيفة الناعمة.

كانت زجاجة عطر من الذهب الخالص مكتوباً عليهاPaco Rabanne 1 Million 18 Carats Luxe Edition.

ضرب ضوء الظهيرة المتسلل من النافذة، زجاجة العطر الذهبية فانعكس ضيها على وجه (هادي) الذي حمل القارورة برفق شديد كأنه يلمس جنينه الأول.

- ها؟

سألته (هايدي) حين أطال الصمت فعلق

- خليني أتأكد.

- تتأكد من إيه؟ أنا دافعة فيهم 57 ألف دولار.

تجاهل تعليقها وفتح الزجاجة ورش منها مرتين على ظهر يده تاركاً مساحة متوسطة بين يده والبخاخة.

علق يده بالهواء بضعة ثوانى ثم شمها دون أن يلصق أنفه بها وهنا أدرك جودة المنتج الذي طلبه فأغمض عينيه في نشوة متنهداً ثم همس بلكنة فرنسية متقنة

- Original, très original يا (هايدي) هانم.

- طب مانا عارفة.. هشوفك بليل؟

- أكيد.

- أوكيه.. See you.

أنهت المكالمة وتركته يضم زجاجة العطر الذهبية إلى صدره ثم يلقي بنفسه على السرير مغنياً بالفرنسية وشعوراً عظيماً بالغبطة يغطي على صوته.

- يوماً ما سيدفعني ذاك الهوى للجنون، مئة مرة أردتُ أن أسأله لِمَ، ولكنه قاطع كلماتي فهو دائماً يسبقني بالحديث ويعلو صوته حتى يغطي على صوتي.

***

بالمساء، لفتت فخامة بدلته – التي انحنى (لويجيني) العجوز على مكينته لتطريزها بدقة وشغف في ورشة خياطته المطلة على الجانب الإيطالي من البحر المتوسط – أنظار الحضور أجمعين.

عَلِمَ (هادي) جيداً أن الأناقة تأسر قلوب بنات حواء قبل العقل والشخصية والشيم.

فالأناقة الخارجية تنطق بالمبلغ الذي يدفئ جيبك، والأناقة

الداخلية تعكس الأموال التي صرفت على تعليمك وطبقتك الاجتماعية حتى تصنف من أبناء الذوات.

كان يزد على ذلك بضعة كؤوس من النبيذ ليضفي على نفسه لمسة العاشق الفرنسي المغامر.

لطالما كانت حسبته دقيقة وصائبة، فبعد أن شرب نصف زجاجة Château Montrose أقبلت عليه عازفة الهارْب الصهباء ذات الرداء الذهبي اللامع بالحفل السنوي الذي يترأس اسم النحات (هادي الحكيم) قائمة مدعويه من محترفي الفنون السبع.
قرر أن يكتفي بهذا القدر من النبيذ الأحمر الذي لم يُسكره، وأن يداعب حواسه بطعم مختلف ولكنه لم يجد النادل ولم يرد أن يترك حديثه الثقافي مع المثيرة ذات الشعر الأحمر إذا ذهب ليبحث عن كأسٍ جديد، فعدل ياقة قميصه الصِقَلي الأبيض مردفاً.

- الغرض الأساسي من دراسة الفن مش إتقانه ولكن التعبير عن الذات البشرية.. الإنسان البدائي اتعلم اللغة والكتابة بالرسم عشان يعبر عن نفسه.

لمح النادل حامل صينية كؤوس وأكواب الخمور، فأومأ له بأن يقترب.

أتى النادل فبدَّل (هادي) كأس نبيذه الفارغ بكوب من الويسكي الكهرماني فأعطاه بقشيشاً وهمس له بابتسامة راقية

- ميرسي.

ابتسم النادل ممتناً له ثم رحل بينما أردف (هادي)

- أنا كنت في براغ الصيف اللي فات بزور متحف (فرانز كافكا) ارتشف كوبه بارستقراطية: لقيت قدام محل السوفونيرات نافورة تخيلي على شكل أيه؟

- قولي أنت. أنا عمري ما روحت التشيك.

تجرع ما تبقى بكوبه وتابع

- النافورة عبارة عن بركة على شكل خريطة جمهورية التشيك وواقف جواها تمثالين برونز طولهم 210 سنتيمتر لراجلين قدام بعض فاتحين سوستتهم وpardon على القرف اللي هقوله.. بيعملوا تواليت فوق خريطة بلدهم.

ضحكت ذات الخصلات النارية فابتسم معها حتى أتى نادل مختلف جدَدَ له كوبه الفارغ بآخر ممتلئ وكما فعل (هادي) بالمرة الأولى، أعطى النادل الثاني بقشيشاً سخياً.

ارتشف من كوبه الجديد وأكمل

- وقفت كتير قدام منحوتات (دافيد تشيرني) اللي من النوع ده، كلها واخدة طابع سياسي ساخر وجرئ وجدلي.. بينحت عشان يثور.

- وأنت بقى بتنحت ليه؟

أجابها بابتسامة تفيض بالسحر وهمس بأذنها

- عشان بَحِب.

- يا بختها.

ضحك بأرستقراطية

- لأ، أنتِ فهمتي غلط، أنا بنُحت عشان بحب النحت، شغوف بيه زي ما أنتِ شغوفة بعزفك كدا.

ابتسمت بدلال

- أنا مفضوحة أوي كدا؟

كاد أن يجيبها ولكنه لمح النحاتة ابنة العشرين الشقراء ذات الشعر المجعد الكثيف واقفة عند الطرف المقابل له من المسبح ممسكة بعنق زجاجة Chivas تشرب منها مباشرة بغوغائية وهي تسير بخطوات مترنحة.

قرر أن ينهي حديثه مع عازفة الهارب بكياسة:

- شغفك مايخفاش غير عن عديم الإحساس أمسك كفها وقبّل راحتها بابتسامة راقية: اتشرفت بالكلام معاكي يا مدموازيل.. عن إذنك.

ترك التي هامت بكاريزمته واتجه للجهة الثانية حيث الصبية الثملة التي لم يسعفها كعبها في السير مستقيمة تحت وطأة هذا الكم من الكحول العائم بشراييينها.

ما كادت أن تتعثر حتى ظهر (هادي) في الوقت المناسب وأسندها فصاحت مرحبة

- هاااديييي.

- مش قلنا نشرب بشياكة.

أجلسها على الشازلونج ثم جاورها آخذاً منها الزجاجة التي تجرعت ربعها.

- عجبك البرفان؟

- فوق ما تتخيلي قرّب عنقه منها: شمي.

ألصقت أنفها عند عنقه الدافئ وهامت برائحته ثم نظرت لملامحه الناعسة فتحسست شعره وبشرته الناعمة التي انزلقت أناملها عليها ثم تنهدت:

- ملامحك وشياكتك وذوقك وفنك وريحتك وطريقة

كلامك.. كل تفصيلة فيك ماتليقش على شغلك مع خالو.

ضحك وهو يصب بعض الويسكي بكأسه الخاوية

- مابنتكلمش عن الحاجات دي هنا يا (هايدي) هانم.

- أومال فين؟

- مابنتكلمش عنها خالص.

أطرقت صوب مياه المسبح التي عكست لمعة بدر هذه الليلة الصيفية بينما بدأت الفرقة الأوبراليا بالزاوية تعزف موسيقى (كارمن).

تنهدت بثقل مهموم لا يليق بشبابها ثم همست لنفسها بمرارة.

- كان حب عمري.

- حب عمرك مرة واحدة؟ ده أنتِ كلك على بعضك **20** سنة، عمرك لسة بيبتدي.

لمعت عيناها اللازوردية بالدموع

- كنت بحبه.

- وهو كان بيخونك.

- بس أنا قتلته.

- الخيانة بتقتل أكتر من الرصاص يا (هايدي) هانم.. قومي أروّحك وقف وساعد الشابة المحطمة على النهوض: الشوفير برة ولا تحبي أوصلك بنفسي؟

- برة بس أنا.. أنا مش هقدر أقعد لوحدي أستعطفته بعينيها البريئتين: روَّح معايا يا (هادي).

ابتسم (هادي) الشهم

- d'accord.

***

على باب الفيلا الفارهة ذات الجنان المثمرة، برزت لافتة من الجرانيت محفور عليها

"فيلا (سلطان الدَغَّش)

دخلت سيارة (هايدي) الفسيحة من البوابة العملاقة بعد أن توقفت ثلاث مرات ليُخرج لها (هادي) رأسها من الباب ممسكاً بشعرها الذي يشبه شعر حورية البحور وهي تتقيأ على حيد الطريق.

كأي رجل نبيل رفيع الخلق، حملها حين صف السائق السيارة عند الباب وصعد بها السلالم الرخامية ووصل لغرفتها بالدور الثاني ووضعها بسريرها الذي تتراص عليه

وسائد ريش النعام البيضاء ثم غطاها وهمَّ أن يخرج ولكنها استوقفته بنبرة متعبة.

- بات معايا.

استدار مبتسماً مختالاً بنفسه مداعباً طابع الحسن المنقوش بذقنه

- (هايدي)، الست لما بتشرب شيطانها بيهيأ لها مشاعر اتجاه الراجل اللي قدامها. أنا عارف إن ليا تأثير خاص على المدموازيلات اللي زيك بس للأسف، أنتِ مش ستايلي.

- تأثير إيه يا (هادي) ده أنت قد أبويا.

اتكأ على الباب وقد دمر ردها غروره، فابتسم بسماجة

- ميرسي لذوقك.

- أنا خايفة.. خليك معايا عشان أنا.. بكت خائفة: أنا بشوفه.

- (هايدي).. إحنا فنانين، طبيعي يبقى خيالنا واسع ونتصور حاجات و..

- ده مش خيال.. كل ما بقى لوحدي بيظهر لي.. بيهددني إنه هيقتلني زي ما قتلته.

زفر ولكنه جلس على الكرسي بالزاوية بجوار المصباح

المقابل لسريرها

- طيب.. أنا هفضل معاكي لحد الصبح ما يطلع.

- لأ، تعالا نيمني زي ما بابا كان بيعمل.

ردد كلمتها باشمئزاز

- بابا؟! صمت لبضعة ثواني متأملاً السرير ثم نهض متنهداً: d'accord، بس كل واحد يلتزم بمساحته.

خلع حذاءه الإيطالي فسترته الثمينة التي فردها على الكرسي بحرص ثم اقترب من سريرها ورفع الغطاء وانزلق بجوارها فإذ بها تضع رأسها على صدره وتلف ذراعها حول خصره كالطفلة العائد أبوها من السفر.

- نام أنت كمان.

- ارتاحي أنتِ، أنا ما بنامش بالليل.

داعب خصلاتها الذهبية الغجرية ثم بدأ يغني لها أغنية (إيديت بياف) الأشهر la vie en rose كما اعتادت (روز) أن تفعل معه حين كان صبياً.

بدأت الشقراء الطائشة تتثاءب ثم همست له بنبرة نعسة

- أنا هسلم نفسي للبوليس.

اتسعت حدقتا (هادي) وخرج من الأجواء الحميمية التي هيأها لتلك الرعناء كي تغفو:

- ليه؟

- عشان أتعاقب وأرتاح من اللي أنا فيه ده.

- بس أنتِ ماعملتيش حاجة.

- أومال مين اللي عمل يا (هادي)! فتحت عينيها وكلمته بيقظة: أنا اللي طلبت منك تقتل (عمر) وعشيقته وأنا اللي دفعت لك الفلوس وإديتك عناوينهم.. أنت رفضت وأنا اللي أصريت وزنيت عليك زي ما حوا زنت على آدم لحد ما أكل التفاحة وخرجوا هما الاتنين من الجنة.

- أنتِ معتبرة نهاية علاقتك بالجربوع ده، خروج من الجنة؟

- أيوة، عشان كنت بحبه.. انفجرت باكية: أنا ليه ماسامحتوش؟

- عشان هو أصلاً ما اعتذرش.. الغفران مش بيمنح للي ما طلبهوش يا (هايدي).

- بس أنا كان ممكن...

انقطعت كلماتها ثم رفعت رأسها وهي تحدق بالحائط.

انتصب شعر رأسها وتجمدت دموعها بعينيها اللتين اعتلتهما نظرة مذعورة حين همست

- (عمر)!

التفت (هادي) صوب موضع نظرها ولكنه لم يرَ سوى الحائط الأصفر الكناري.

لم يحتج الأمر لخبير علم نفس ليستنتج أنها تهلوس برؤى عشيقها الذي حرضت على قتله.

تركت ذراعي (هادي) ونهضت عن سريرها واتجهت صوب الحائط راكعة على ركبيتها طالبة الصفح عن ذنب أفقدها عقلها

- أنا آسفة بدأت تبكي بهيستريا: حبي ليك خلى الغضب والغيرة يعموني.

أجابها شبح حبيبها القتيل:

- مش الحب اللي عماكي، غرورك هو اللي خلاكي تقتليني بدم بارد.

- لأ يا (عمر)، أنا عمري ما حبيت ولا هحب غيرك.. سامحني يا حبيبي.

جلس (هادي) على طرف السرير متكئاً برأسه على رسغه

وهو يتابع تلك المسرحية وكأنه ربح تذكرة مجانية لمشاهدة (الليدي ماكبث).

أكملت روح (عمر) المنتقمة حديثها الوهمي الذي لا يتبين كلماته سوى عقل (هايدي) الذي أصابه العطب

- أنتِ عاقبتيني عشان خُنتِك، يا ترى بقى هتعاقبي نفسك إزاي على قتلك ليّا؟

- هسلم نفسي.. هخليهم يشنقوني عشان أجيلك ونرجع لبعض يا حبيبي.

زفر (هادي) ضجراً ثم أخرج هاتفه من جيبه وضرب رقماً يحفظه عن ظهر قلب.
انتظر لثواني حتى أتاه صوت مجيبه الخمل الذي نطق ضجراً

- أنا في أجازة.

- d'accord.. بس حبيت أبلغك إن بنت أختك اتجننت.

الفصل الثالث

لا شك أن ذاك اللون لا يليق برجل في السبعينيات من عمره ولكن يستحيل أن يكترث (سلطان الدَغَّش) لرأي أحدهم بملابسه.

ذاك اللون الذي لا يُفهم إن كان أحمراً يميل للبرتقالي أم برتقالي يميل للأصفر؛ هو لون مبهج لن ترى مخلوقاً يرتديه سوى (سلطان) خاصة وأن سرواله الأبيض القصير يزيد من حدة درجته الفاقعة، علاوة على حذاءه القطيفة الذي لا يناسب أجواء الساحل المصيفية ولكن للمرة الثانية، لِمَ نظن أن (سلطان الدَغَّش) قد يكترث لرأي أحدهم بحذاءه الأبهظ من ثمن سيارة لعينة؟!

كان رائق البال جالساً بقبعته القش على متن يخته الفضي الذي تغنى عنه (سمير صبري).

بالطبع سيظن المرء أن رجلاً لعوباً مثله سيكون منفرداً بسائحة أوروبية وردية الوجنتين، شقراء الشعر، ممتلئة الثدي بقلب البحر المتوسط أسفل لمعة بدر الصريم ولكننا مخطئين للمرة الثالثة، فمن المستحيل أن تصيب تنبؤاتنا بأفعال (سلطان الدَغَّش).

ذاك الوحيد كان هاربٌ من زخم القاهرة بتلوثها وضجتها وضوضاءها وناسها لينفرد بسطح يخته المسمى

«المايسترو» فوق سجاده الإيراني وبين وسائده الشرقية المريحة.

لا يعلو رأسه سوى زمهرير الليل ولا يشاركه لحظات السكون تلك غير طعم الجبن الرومي الذي يذوب بفمه وهفيف صبا يوليو ودخان الأفيون الذي ينفثه بالأفق وهدير أمواج اليم وتكتكة التقاء الإبر الطويلة التي يحيك بها سترة صوفية فاقعة الخضرة وضحكات الجمهور الخارجة من حاسوبه وهو يشاهد مسرحية «إلا خمسة لـ(عادل خيري) ليضحك على النكتة نفسها مردداً الإفيه ذاته»

- أنتِ جاية تشتغلي إيه؟

- جاية أشتغل سواقة.

هو سكندري الأصل، إغريقي الملامح، رفيع البنيان ولكنه مستقيم المنكبين، هزيل الجسد ولكنه طويل القامة مفرودها، بائس الملامح، معقوف الأنف، صابغ الشعر، مهذب الشارب، منبسط اللسان، أريحي المخارج، رائق البال، سريع الانفعال ومحب للفكاهة وعاشق للمسرح وكاره للسفسطة وماقت للكذب، واشتراكي الهوى ولكنه رأسمالي الواقع.

صحيحٌ أنه مشجع لروح المغامرة ولكنه كابح للمخاطرة، فهو يعرف حدوده لأنه ببساطة هو من وضعها لنفسه..

ولغيره.

قاطع سكينته وتجلي كوميديا (ماري منيب) و(عادل خيري) المسرحية، رنين هاتفه باسم (هادي)، فتوقف عن الحياكة وأجاب:

- أنا في أجازة.

- d'accord.. بس حبيت أبلغك إن بنت أختك اتجننت.

سحب نفساً ثقيلاً من أفيونه بمزاج

- أني واحدة فيهم؟

- (هايدي).

لفظت أفيونته نفسها الأخير فدفنها بمرمدته مستفهماً

- مش لاقط.

- قتلت لها الواد اللي كانت ماشية معاه. ماستحملتش الصدمة. اتجننت. ودلوقتي مصممة تروح تبلغ عننا.

زفر بضيق وأدرك أن مزاجه قد تعكر وأن أفيونه اليوغسلافي قد نُفِثَ هباءاً وأن ما من داعٍ لعظماء الكوميديا المسرحية أن يستأنفوا أداءهم.

ألقى بكرة الصوف وإبر التريكوه أرضاً بعصبية وأطفأ

حاسوبه بعنف

- إنتو في أني داهية؟

***

أخرج (هادي) من جيبه علكة المستكة اللاذعة وبدأ يمضغها ضجراً وقد فَهِمَ الآن لِمَ تكثُر جرائم قتل المُربيات للأطفال الذين يجالسونهم، حين وعى أن تلك المهنة هي الأكثر استنفاذاً لطاقة الإنسان وصبره، فإن كانت تلك البالغة مزعجة لهذا الحد، فما بالك بالأطفال!

عصفت الرعناء الهاذية بالغرفة قالبة أثاثها ومهشمة زجاجها وممزقة وسائدها ليتناثر ريش النعام بفضل حالة الهيستريا التي أصابتها وهي تتخيل أنها تتشاجر مع شبح (عمر).

ما كان لـ(هادي) سوى أن يطرقع علكته متململاً وهو ينظر لساعته من حين لآخر متمنياً أن تنتهي تلك الفقرة المسرحية التي تصيح فيها (هايدي) بوجه الحائط الخاوي

- أنا حذرتك وقلت لك، لو خنتني هقتلك وهقتل اللي هتخوني معاها وأنت اللي فَكَست لكلامي.

همس لها (هادي) متسلياً

- عشان غبي.

- أيوة، غبي ورمرام، اللي يخوني مع واحدة من الشارع يبقى.. صمتت متحيرة باحثة عن سُبة مناسبة: يبقى...

ساعدها (هادي)

- يبقى واطي.

رددت كالمخبولة

- يبقى واطي سحبت آخر مزهرية سليمة بالحجرة ثم طوحتها مترنحة صوب ما تخيلته شبح عشيقها: يا وااااطي.

سقف لها (هادي) كأنه يحي نجمته المسرحية المفضلة

- برااااڤووووو.

- تصدق أحيه!.

قالها (سلطان) الداخل من الباب واضعاً يديه بجيب سرواله الأبيض القصير وهو يطأ الغرفة مقترباً من (هادي)

- بتصقف على إيه يا ساقع! فاكر نفسك في المرسح بروح أمك!.

فور أن رأت (هايدي) خالها، اندفعت صوبه باكية بزينة عينيها السائحة

- أنا قتلت يا خالو.. قتلت (عمر).

ربت على كتفها

- فداكي يا حبيبتي.

انهارت المكلومة باكية

- يا خالو، يا خالو ده (عمر).

- يعني (عمر الشريف) يا أختي، ما تبطلي شحتفة وتنشفي كدا.. ده أنا أمي وهي في سنك شقت أبويا نصين وعبته في أكياس وماحدش خد خبر غير الكلاب اللي نهشوا لحمه، ده جيل إيه المهبب ده.

التفت (سلطان) ل(هادي) الذي انشغل بتعليك لبانته ببرود وصاح به

- فِز يا أبو مستيكة.

خرجا من الغرفة الصفراء ووقفا بالطرقة المقابلة لها حيث النافذة المطلة على البحر المتموج وإذ بـ(سلطان) يجذب (هادي) من أذنه بعنف

- بتاخد أوردرات من أهل بيتي من ورا ضهري يا ابن (عشق).

حرر أذنه من أصابع (سلطان) الرفيعة

- ماكبرناش على شد الودان ده ولا إيه يا (سلطان)؟

- عندك حق، أنت فعلاً كبرت على شد الودان.

لكم (سلطان) أنف (هادي) الدقيق بقبضته الناتئة بغتة وإذ بالدماء تنساب كصنبور فُتِحَ.

غطى (هادي) أنفه لتتخضب كفه وأسورته البيضاء بدمائه القانية.

تأمل يده ثم ضحك ساخراً وهو يرفع كفه عن أنفه متعمداً أن يُري دماءه لـ(سلطان)

- ماشي.. مقبولة منك يا (مايسترو).

نظر له (سلطان) وللدماء السائلة من بين أصابعه فأشاح بنظره فوراً وهو يأمره بعصبية

- ادخل اغسل وشك وإيدك وارجع لي.. يلا يا ولا، غور.

انسل (هادي) لأقرب حمام ثم غسل وجهه ويديه وأنفه ثم سده بقطنٍ من صندوق الإسعافات الأولية حتى يتوقف نزيفه.

خرج لسيده الذي جلس بصالة الاستقبال الخاصة بالطابق الثاني بجوار غرفة نوم الشقراء الثائرة.

كان بزاوية فاقعة الإضاءة، زاخمة بأدوات الصيد والأسماك العملاقة التي اصطادها من يخته وحنطها وعلقها في إطارات خشبية عريضة على حائطه البرتقالي.

- اترزع.

قالها (سلطان) مشيراً له أن يجلس على كرسي خفيض بلا مسند للظهر أو للمرفقين قبالة كرسيه الجلدي الفخم العالي وكأنه عرش ملكي.

فطن (هادي) أنه يحاول أن يحقر من جِلسته ليفرض هيمنته، ولكنه جلس على أي حال لاعتياده على الأمر.

أخرج (سلطان) سيجارة أشعلها، ليس لعطشه للنيكوتين بل ليخنق (هادي) بدخانها.

تظاهر (هادي) بالسعال ليطلب منه أن يطفئها بشكل غير مباشر ولكن (سلطان) تعمد أن ينفخ دخانها بوجهه.

- إش حال إني مسميك (هادي) عشان تتبَط وتهدا وتفكر مرتين قبل ما تاخد أي قرار؟

- أنا ماندفعتش.. الموضوع ببساطة إني..

أشار له أن يصمت فنفذ.

نفث (سلطان) دخانه ثم سأل (هادي)

- أنتو الاتنين قتلتوا المحروس بتاعها؟

اشرأبت عنقه فخراً

- لأ، أنا اللي قتلته لوحدي.

- نفذت أمريكاني ولا إنجليزي؟

- الاتنين.. هو إنجليزي وعشيقته أمريكاني.

- مش لاقط.

- خلصت منه بطلقة في راسه في شقته وتاويته في الصحرا أما بقى عشيقته..فدي كانت مومس بأجرة. أتصلت برقمها وعملت نفسي زبون عايز يقضي معاها ليلة وخدتها البيت عندي وخلصت.. أنت عارف، نقطة ضعفي بنات الليل.

تنهد (هادي) وبدأ يسرد لـ(سلطان) تفاصيل جريمته.

***

وقف أمام مرآته ثانية ثم صفرّ لحن la vie en rose الصادر من جرامافونه النحاسي بزاوية غرفة نومه الكلاسيكية.

همت صاحبة الصوت الباريسي أن تبدأ بالغناء فركز كل

حواسه نحو الأغنية، ولكن صوت المقدحة اللعينة انتزعه من ذاك المشهد الحميم الذي ينتمي لحقبة رومانسية انصرمت وأعاده لحاضر محمل بالقبح البصري والجفاف العاطفي والتلبك الفكري.

نظر لانعكاس (ليالي) المتمددة خلفه بالمرآة وعلق بكياسة

- تقدري تعملي أي حاجة على سريري إلا إنك تدخني.

التفت (هادي) صوب سمراء الليل ذات الثوب الأحمر القصير.

سحبت السيجارة من بين شفتيها الممتلئتين وتجرعت كأسها الثانية من النبيذ الأحمر الذي تلألأ بانعكاس ضوء الثريا المعلقة بوسط السقف المقعر ذي النقوش الملونة وكأنه سقف كاتدرائية مهيبة.

- أوكيه أعادت علبة السجائر والمقدحة إلى حقيبة يدها الصغيرة بطرف السرير ثم نظرت بساعة يدها متعجلة: هتقضي الساعة كلها قدام المرايا؟

كاد أن يجيبها ولكن فور أن بدأت (إيديت بياف) بالغناء بصوتها المازج بين الحنان والجبروت واللين والبأس، والبهجة واليأس، غابت حواسه عن كل شئ وكأن ما بالغرفة سواه وذات الإحساس الآسر التي توقظ طبقة صوتها الشهوة

بقلبه.

أغمض عينيه متنهداً ومال برأسه منتشياً وكرر كلمات الأغنية بلكنة فرنسية متقنة فابتسمت (ليالي) ساخرة مرتشفة كأسها وهي تنظر بزوايا غرفة النوم المترفة ذات الإضاءة الرومانسية الهادئة والألوان الفاتحة التي تشبه ألوان ملابس (هادي)

- مش دي أغنية (يسرا) فى عمارة يعقوبيان؟

استعاد إدراكه لزمانه ومكانه وفتح (هادي) عينيه منزعجاً من قلة ثقافة المثيرة الجالسة على فراشه.

- دي أغنية (إيديت بياف) مش (يسرا) اقترب منها بتروٍ: كتبتها سنة ١٩٤٥ عشان تطلع الناس من حالة الاكتئاب والحزن اللي صابتهم بعد الحرب العالمية التانية وكسرت الدنيا لما نزلتها.. عارفة ليه؟

هزت رأسها نفياً بعهر متمرس

- توء.

- لأن صوتها صادق وقلبها بينبض مزيكا.

- شكلك بتحبها أوي.

- بحبها؟

جلس على طرف فراشه أمامها ثم نظر صوب الزاوية حيث التمثال الرأسي الذي شكله بأنامله لمعشوقته البوهيمية الشعر، رفيعة الحاجب، واسعة العينين، صغيرة الفم وحادة الأنف وبجبهتها العريضة وذقنها الدقيق المدبب، أتقن نحت وجهها الذي يأخذ شكل القلب.

أخذ زجاجة النبيذ من على طاولة السرير ومعه كأسه وصب لنفسه موضحاً

- البوذيين بيقولوا إن الإنسان بعد ما بيموت روحه بتبعث في جسم تاني ارتشف كأسه بأرستقراطية ثم تنهد قائلاً بنبرة عاشقة: أنا بقى متأكد إن روح (إيديت بياف) بُعثت فيّا.

ضحكت بخلاعة.

- هو في ست في جسم راجل؟

- كل راجل جواه ست، وكل ست جواها راجل، والاتنين جواهم إبليس.

- حلوة الفلسفة دي تجرعت ما تبقى بكأسه ثم وضعت يدها على فخذه بنظرات باغية محترفة: مش يلا بقى؟

أنهى كأسه وأعادها مع الزجاجة إلى طاولة السرير ثم انتشل طبق الزيتون والجبن الذي توسط الطاولة المرمرية

ملتقماً مَزَتِه فزفرت المومس ضجراً.

أخرج من جيب سترته منديله الحريري ومسح به يده بعد أن أنهى لقيماته ثم تأملها بعينيه الكحيلتين الناعستين

- (ليالي)، أنتِ إيه معايير اختيارك لزباينك؟

- حبيبي، اختياراتنا كلها مبنية على معيار واحد مثلت الأجابة بيدها: الفلوس.

- مش كلنا. أنا مثلاً اختياراتي مبنية على معيار تاني نهض صوب المرآة مردفاً: الشغف.

ضحكت ضحكة خليعة رنانة ساخرة.

- هو أنت بتشتغل إيه يا (هادي)؟

رفع رأسه مختالاً بذاته

- نحات.

- يعني لو حد قالك انحت لي تمثال بس هدفع لك تمنه شغف، هتنحته؟

أجابها بجدية فاتحاً درج تسريحته مخرجاً قفازين من الجلد الطبيعي وارتداهما بهدوء

- آه، وهثبت لك ده دلوقتي.. أنتِ عارفة أنا جايبك هنا ليه،

يا (ليالي)؟

عضت الفاسقة على شفتيها ساخرة

- عشان تمارس معايا الشغف؟.

- مظبوط.

أشار بأصابعه الدقيقة صوب رف رخامي كبير يمتد بشكل مستطيلي بداية من فوق سريره وحتى تسريحته؛ تتراص عليه تماثيل رأسية دقيقة الصنع كتمثال (إيديت بياف)، إلا أنهم جميعاً أكثر حيوية وتفصيلاً من تمثال (بياف) الرخامي وكأنهم من خامة مختلفة.

- أنا جايبك عشان أحط راسك عـالرف ده.

- أنا متعودة الزباين يصوروني إنما ينحتولي تمثال.. جديدة دي.

- أنا كل حاجة معايا جديدة.

- هتنحتني وأنا لابسة ولا هتعمل زي ما (جاك) رسم (روز) في التايتنيك؟

ضحك مستهزءاً بتفكيرها الشهواني الوضيع ولكنها اقتربت منه لافة ذراعيها حول عنقه وهمت أن تقبله ولكنه وضع إصبعه على شفتيها مستوقفاً إياها ثم أشار لها برأسه صوب

السرير فجلست على الفراش بغنج وأشارت له أن ينضم إليها.

اقترب منها وصعد السرير مستنداً على ركبتيه قبالتها مدلكاً كتفيها الناعمين فابتسمت بحميمية وهمت أن تضع يديها على كتفيه لتخلع عنه ثيابه ولكنه أمسك بكفيها وضغط عليهما هامساً:

- مش عايزك تقلعيني.

- أومال عايزني أعمل لك أيه، يا روحي؟

- قاوميني.

- إيه؟!

انقض عليها!

دفعها بعنف فانقلبت على ظهرها ولم يمهلها أن تتنفس فصعدها وهي تصيح به

- براحة!

علّها تفاجأت من عنفه حين دفعها واعتلاها ولكنها ارتعبت حين وجدته يحط بقبضتيه المحكمتين على عنقها الأملس، فنهته مذعورة.

- لأ.. بلاش كدا.

أمرها بنبرة متحمسة ونظرات منتشية

- صرخي!.

في بادئ الأمر، ظنت أن هذه هي طريقته في المضاجعة، فهو ليس أول سادياً يمتطيها ولكن ما جعلها ترتبك وتُصاب بنوبة من الذعر هي الطريقة التي باغتها بها، فبعد أن كان النحات الراقي الرقيق العاشق لـ(إيديت بياف)، صار ضبعاً ضارياً تحركه شهوة رؤيتها تتألم ونشوة سماعها تصرخ وتستنجد فحسب دون أن يُبدي أية رغبة في أن يلجها.

ولكن شيئاً ما كان يخبرها أن ما يوده (هادي) هو أكثر من بعض الصريخ والمقاومة، فنظراته المسعورة ونبرته التي تنطق بالجنون وإحكامه الغاشم على عنقها ينذر بما هو أخطر.

دوّى طنينٌ بأذنيها ثم تغبشت الرؤية وشعرت بحريق يُضرم بصدرها.

حاولت أن تأخذ ما يكفي من الهواء، فشهقت وهي تتحدث بصوت قد اخشنّ ووهن

- هموت.

كرر آمراً بالنبرة السادية ذاتها

- قاومي.

لم يكن بها سوى أن تركل الفراش بساقيها الملفوفتين ولكنه أطبق عليها بركبتيه.

حاولت أن تصل لوجهه بذراعيها القصيرتين فكان رأسه أعلى فعسَّر طول قامته عليها معركتها لتنجد عنقها من بين قبضتيه الحديديتين.

انحبس الهواء أسفل إبهاميه وأخذ يعافر للوصول لرئتيها ولكن القفاز الجلدي حمى كفيه من أظافرها ومن ترك بصماته على رقبتها وضاعت كل محاولاتها لتخليص روحها من ذاك الذي لن يحررها قبل أن يمتص الحياة منها.

أخذت تشهق والعروق الدموية الضئيلة بعينيها تبرز و(هادي) يعصر روحها أكثر حتى كادت أن تفقد وعيها لافظة أنفاسها الأخيرة حين لمحت بشكل ضبابي زجاجة النبيذ التي تركها بجوار كأسه على مائدة السرير.

حاولت أن تمد يدها صوب الزجاجة ولكنها كانت أبعد مما صور لها عقلها فحاولت أن تمدد ذراعها أو تحرك نصف جسدها العلوي لتصل لها فلاحظ (هادي) محاولاتها البائسة فصاح مشجعاً إياها بحماس طفولي:

- حاولي تاني.. حاولي تاني يا (ليالي).

أحكم قبضته وضيق حركتها بركبتيه وكأنه يوّد أن يحفز غريزة البقاء بداخلها فتضاعفت ركلاتها للفراش واشتدت محاولاتها لجذب الزجاجة إلى أن وصلت إلى طرف قاعدة الكأس الزجاجية، لمستها بأظافرها فقربتها صوبها إلى أن لمستها بأطراف أناملها وبدفعة واهنة أمسكت الكأس بإصبعٍ وبعد بعض المعافرة أمسكت عنقها بأصبعيْن آخرين.

- يلا!

أحكمت مسكة الكأس. ضحك (هادي) كالأستاذ الفخور بتلميذته. جذبت الكأس وضربته بها على الجانب الأيمن من وجهه فتهشمت على أذنه ووجنته وعنقه.

لم يصرخ أو يتألم أو حتى يتأوه وكأنها داعبت وجهه بريشة لينة وليس زجاجاً قاطعاً.

توقف عن خنقها وترك عنقها فنظرت له في حالة من الإعياء وهي تشهق ورئتاها تصرخان طلباً للهواء.

وضع يده على جانب وجهه الأيمن حيث جرحه زجاج الكأس. نظر لقفازه وقد صُبِغَ بدماءه.

ضحك ساخراً من دمائه ساهياً عن فريسته التي باغتته

الآن بإلقاء زجاجة النبيذ كلها صوبه وتهشيمها على وجهه.

سقط (هادي) بجانب الفراش فتحررت (ليالي) من أسفله لاهثة.

زحفت من على طرف السرير فهوت أرضاً.

حاولت أن تستجمع قواها إلا أن أوصالها قد خانتها وأرتخت كالمطاط ولم تعد قادرة على الإتكاء على ركبتيها كي تنهض.

استندت على معصميها بصعوبة مستمرة فى الزحف نحو الباب حتى وصلت إليه وهي تشهق وتحارب لإنعاش رئتيها.

مدت يدها المرتعشة وأمسكت بمقبض الباب المتين متكئة عليه وحاولت أن تستند على ركبتيها فتعثرت مرة ثم نجحت في الثانية حتى وقفت أخيراً وفتحت الباب.

خرجت من الغرفة المُقبِرة التي كادت أن تفقد بها حياتها ورأت السلالم التي بدت أطول مما كانت عليه حين صعدتها بغنج أمام (هادي) منذ ساعة.

أمسكت بدرابزين السلم الخشبي وجسدها يهتز بشدة أرعشت رؤيتها فنزلت بضعة سلمات حتى خانتاها قدماها مجدداً فسقطت متدحرجة على باقي السلالم العريضة

وكادت أن تفقد وعيها ولكنها لم تستسلم ولم تتوقف عن المقاومة بعد.

نهضت (ليالي) وقد جرحت جبينها من التعثر وصارت الكدمات تملأ جسدها ولكنها لم تنزل عينيها عن مقبض الباب الذي سينقذها من موت محتوم.

أعانتها غريزة البقاء بجرعة من الأدرينالين نشطت مفاصلها فنهضت المكبدة متشبثة بالحياة لتبث روحها المقاومة بعض الطاقة ببدنها لتعينها على الوقوف على قدميها وتجعلها تفتح الباب فتصفعها برودة الفجر وتزيد رجفة جسدها المرتعش ولكن لم يكن هذا ما عرقل طريقها للنجاة.

ما شلَّ حركتها وقبض أنفاسها هي تلك اللحظة الخاطفة التي سمعت بها صوته الناعم يهمس

- الأغنية لسة ماخلصتش!.

باغتها (هادي) بخفة من الخلف واضعاً يداً على ذقنها وأخرى على مؤخرة رأسها وإذا به يحرك الاثنتين باتجاهين معاكسين لينهي مهمته بلمح البصر دون أن تلحق أن تصرخ مستنجدة.

أنكسرت عنقها وأصدر عظمها اللامي صوت طرقعة عنيف

ولكنه لم يغطي على صوت (إيديت بياف) التي لم تتوقف عن الغناء بالخلفية ولم يتوقف (هادي) عن دندنة أغنيتها الأشهر لا أثناء ولا بعد كسره لعنق ضحيته.

سقطت (ليالي) -بائعة الهوى التي انتقاها (عمر) شقيق (حبيبة) بليلة ساخنة ليخن معها عشيقته (هايدي) ابنة شقيقة (سلطان الدَغَّش)- أرضاً واستقرت رأسها بين قدميه فلم ينظر لجثتها كي يتأكد من موتها، فيداه لم تخالفانه يوما.

ركل ساقيها للداخل كي يغلق باب بيته ثم أخرج من جيبه منديله الحريري مقترباً من المرآة المعلقة على يسار الباب فنظر بها ليتأمل الدماء التي صبغت وجهه وعنقه وبقعت قميصه ثم التقط بأنامله بعض شظايا الزجاج التي انغرست بشحمة أذنه وجبينه الأيمن وسببت له بضعة جروح سطحية.

ابتسم متعجباً وانبهر كأنه يكتشف دماءه للمرة الأولى.

مسح وجهه وهو يراقب ملامحه الملطخة بالدم بابتسامة فخر ثم مشط شعره بأصابعه وهندم بدلته التي انكمشت بسبب مصارعة تلك العاهرة التي فتنته باستبسالها في مقاومته ورفعها لمستوى المنافسة والتحدي لديه ولكن الفقيدة لم تكن تعلم أنه مهما بلغ حب البقاء لديها، سيظل

قاصياً عن درجة شغف وولع (هادي) بقتل مثيلاتها.

أعاد ثني منديله الحريري على شكل مثلث، ووضعه بجيب سترته ثم استدار صوب جثة قتيلته وحملها بخفه.

نزل قبو منزله مدندناً على الرغم من أنه قصي عن مصدر الأغنية إلا أن لحنها سكن أذنه وكلماتها نبضت بداخله متخللة ضلوعه.

وقف عند باب القبو الثقيل العازل للصوت والضوء. فتحه فانغلق من تلقاء نفسه فور دخوله المكان المظلم الذي حين أشعل ضوءه، انكشفت أرضيته السيراميكية المغلفة بالبلاستيك وحوائطه التي من البورسالين الأبيض وسقفه ذو المرايا التي تعكس ما بأسفلها من دولاب من الحديد الصلب يجاوره جروف وفأس وطاولة رخامية عاليا تصل لمستوى الخصر وستريو حديث بالزاوية.

ألقى بجثة (ليالي) على الطاولة البيضاء الباردة وخلع سترته الغالية وقميصه الأبيض وعلقهما خلف الباب.

فتح الدولاب الحديدي الذي تدلت بداخله المناشير المتنوعة بين الكهربائي واليدوي والكبير والصغير وكأنها عدة حطاب.

وقف مصفراً على أنغام الأغنية التي طرقع عنق (ليالي)

على إيقاعها وتخير منشاره المفضل ذي اليد الحمراء واقترب نحو (ليالي) معدلاً وضع رأسها لتكن جاهزة للنشر ولكنه تذكر شيئاً.

عاد صوب الزاوية وشغل الستريو بجهاز التحكم الموضوع فوقه وإذ بصوت العصفورة الباريسية ينساب منه وإذ بـ(هادي) يراقص قدميه على إيقاع الأغنية الأكثر شعبية لإلهة الأغنية الفرنسية الكلاسيكية فانتشى ونظر لانعكاسه بمرآة السقف وهو ينشر عنق ضحيته على لحن La vie en rose.

***

أطفأ (سلطان) سيجارته ووضع ساقاً فوق الأخرى متفرساً وجه (هادي)

- أومال فين الجروح اللي في وشك يا ولا؟

- غطيتها بالفاونديشين.

نظر له (الدَغَّش) بامتعاض

- أحيه عـالرجالة.. يلعن اليوم اللي عرفتك فيه على (هايدي) عشان تديها دروس نحت.

- ممكن ما ننحرفش عن موضوعنا، ونشوف حل قبل ما الهانم الصغيرة تفضحنا.

- ما أنت لو كنت رجعت لي كنت قلت لك إنها تافهة ومهزوزة والمخدرات لحست مخها.. تلاقيها شدت سطرين وهبت في دماغها تكلفك تقتلهولها.

- هي اللي طلبت مني ماقولكش وأنت اللي معلمنا إن خصوصية العميل أولاً وأخيراً.

- ده لما تكون شغال في الـCIB يا روح أمك مش قاتل برخصة.. هي دفعت لك كام؟

- أنت عارف إني مابخدش فلوس في البرايفت. بيتدفع لي بالهدايا.

- هديتها كلفت كام يعني؟

- ستين ألف دولار.

- مليون جِنِي يا (هادي)؟

- ده أنا كدا كارمها عشان من طرفك.

- وماله، شوف بقى أنا هكرمك إزاى..من هنا لآخر السنة المالية كل طلعاتك معايا هتبقى ببلاش ومن غير bonus، عشان تبقى تتخطاني يا ابن (عشق).

ضغط (هادي) على ضرسه بغلٍ ولكنه لم يخفِ ابتسامته

الساحرة.

- d’accord.. اللي تشوفه يا (مايسترو).

صمت الاثنان لينصتا لصريخ (هايدي) وتناحرها مع هلاوسها فزفر (سلطان) بضيق

- بكره العيد الكبير ده يا أخي. مافيش سنة يعدي فيها على خير مع أن الواحد دابح ومطبع بكفوفه وبردو العين ما بترحمش..يلا قالها متنهداً وناهضاً عن مقعده: كويس إنها جَت على قد البت الصفرة دي.. هي وأمها تُقال على قلبي.

همّ (هادي) أن ينهض معه ولكن (سلطان) استوقفه:

- على فين يا وحيد أمك.. خش الأوضة اللي عشمال، هتلاقي في درج الغيارات تذكرة بيضة.. دوبها في كاس ويسكي وخلص.

صمت (هادي) للحظات ليتدارك تعليمات (سلطان)

- هنخلص؟

وكز (سلطان) صدر (هادي) بعصبية

- هتخلص!.. أنت هتشيل الليلة دي كلها لوحدك يا (هادي) عشان أنت ماحترمتنيش.

- ماحترمتكش إزاى وأنا اللي مكلمك عشان تقرر هنعمل إيه.

- بعد إيه يا خويا، بعد ما وصلتني لمرحلة إن مافيش حل غير إنى أقتل بنت أختي؟

- شرف كبير ليا إني أقتل بنت أختك يا (مايسترو)، بس القتل مش الحل الوحيد في الحالة دي، أنا عندي حلول تانية و..

- خلي حلولك لنفسك يا حكيم القرية. (المايسترو) ماعندوش حلول وسط.. السرطان علاجه الاستئصال مش المسكنات يا (هادي)، فاتفضل خش يا عم الجراح خلص وعقم رفع سبابته ورمقه مهدداً: بس خليك فاهم إنك من النهاردة هتبقى شايل ذنب موت بنت أختي في رقبتك.

- بس ده قرارك.

- وتنفيذك يا عين أمك.. أنا (المايسترو) وأنت الآلة يا ولا.

ابتسم (هادي) بأرستقراطية باردة رافعاً كتفيه وهازاً رأسه بلامبالاة

- D’accord.

- ماشي يا خريج الليسيه يا ساقع كاد أن ينزل السلالم

ليرحل ولكنه استدار مضيفاً: تخلص وترجع القاهرة طيّاري، في طاجن صيادية مستنيك أنت وأخينا.

هز رأسه بابتسامة مطيعة ثم انتظر رحيل (سلطان) عن الفيلا.

فور أن غاب (المايسترو) عن بصره، انقشعت أبتسامته وضغط على فكه حتى كاد أن يطحن ضروسه وهو يكوّر قبضتيه وقد لمعت عيناه ببريق الاغتياظ وسيطر الغضب على قسماته الدقيقة.

أخرج من جيبه قفازيه الجلديين وأطرق لصياح (هايدي) التي لا تنقطع طاقتها ولا تفرغ بطاريتها.

اتجه لغرفتها واستند على عتبتها متابعاً ثورتها التي لم تخفت فحسدها على صياحها المستمر وعلى تفريغها لحنقها وسخطها إلا أن ذاك الحسد تبخر حين أدرك أن الغضب سيمفونية يمكن لاثنين أن يعزفاها.

- تسمحي لي أشاركك معزوفة الغضب دي؟

لم تفهم مقصده ولكنه وطأ الغرفة وترك لجموحه العنان.

خلع درفة الدولاب الخشبي من مكانها وهشم بها زجاج مرايا الخزانة ثم فك أدراج التسريحة من مكانها وطوحها صوب زجاج النافذة وحمل الكومود من أرضه وألقاه صوب

التسريحة ليفتت ما تبقى بها من زجاج مشروخ ومترنح.

وقف لاهثاً ينظر حوله، فلم يعد بالغرفة الملعونة شيئاً قابلاً للتحطيم ولتفريغ مشاعره المشحونة فمسح جبينه وهذب شعره ثم هندم ملبسه في محاولة لاستقرار نبضه المتسارع وإبطاء أنفاسه المتلاحقة وهو ينظر لـ(هايدي) التي تابعت ثورته بلا تعليق.

- Pardon على الهمجية دي. بس أنتِ النهاردة سببتيلي مشكلة كبيرة.

خرج متجهاً لغرفة (سلطان) وفتح الدرج الأول حيث ملابسه الداخلية ذات الألوان الفاقعة المؤذية للنظر ففتشهم حتى وصل لكيس بلاستيكي صغير مضغوط تملؤه البودرة البيضاء.

انتشل كيس الهيروين واتجه صوب ركن الخمور.

سحب كوب الويسكي الـOld Fashion وأفرغ به محتويات الكيس كله ثم ملأه بالـchivas وكاد أن يعود لغرفة (هايدي) ولكنها ظهرت خلفه بغتة كالشبح وهي تلهث كمن أنهى ماراثوناً.

مسحت عينيها وأنفها بأصابعها الملطخة بالكحل السائح لتطبع بصماتها السوداء على ملامحها الأوروبية التي ورثتها

عن أبيها المنصوري الأصل

- عمر اتعذب وهو بيموت؟

- أنا فنان وراجل بروفشيونال يا (هايدي)، يعني ماليش في الأمور السادية دي.

جلس على الأريكة الجلدية ممسكاً بالكأس القاتلة وأشار لـ(هايدي) أن تجانبه فأتته مطيعة.

- يعني ماتوجعش؟

زم شفتيه ساحباً كوباً آخراً وسكب لنفسه بعض الويسكي

- ماظنش.

- تفتكر لما أقابله في الجنة، هنبقى مع بعض؟

وجد الأمر مضحكاً أكثر من اللازم فسمح لنفسه بإطلاق ضحكاته التي صدحت بصالة الفيلا الفسيحة حتى دمعت عيناه فمسح طرفها بمنديله الحريري معلقاً بسخرية

- في الجنة؟ كلها دقيقتين ونعرف.

أعطاها الكأس التي ستنهي حياتها ورنّت كأسه بكأسها قائلاً بابتسامته السينمائية التي لم تعكرها تلك القطنة الدامية التي تسد أنفه

- Cheers!.

ارتشف كأسه ثم انجعص فارداً ظهره على الكرسي العالي مصفراً لحن مقدمة "la vie en rose وجلس يشاهدها بتمزج وهي تتجرع كأسها دفعة واحدة.

في لحظات قليلة، ضُخت جرعة الهيروين القاتلة بدماءها.

لكمت ضربات قلبها العنيفة صدرها فشعرت بألمٍ عظيم ينهش ضلوعها ونبضاً يدق بأذنيها.

انخفضت درجة حرارتها وكأنها قفزت ببحيرة جليدية بالقطب الشمالي فبُهت لونها وشحب وجهها وازرقت شفاهها وأناملها وما أسفل أظافرها.

انساب عرقها حتى بلل شعرها وهبطت كثافته كمن خرجت من حمام بخار مغربي.

انقبضت حدقتاها وكذلك عضلاتها وترنحت رأسها واهتزت رؤيتها وانسال أنفها وتحركت أمعاؤها وإذا بها تفرغ محتويات معدتها للمرة الخامسة بهذه الليلة ثم أخذت تلهث وتمد يديها بالهواء كأن هناك من يحاول أن ينتشلها من ذاك الألم حتى همست بصوتٍ واهن قد خمشه الكَبَد ليتعسر التقاطه

- (عمر)!

سقطت في محاولة للإمساك بيده وهو يدعوها للانضمام لعالمه وحين سقطت ظلت تنتفض وترتجف وقد سيطرت عليها نوبات تشنجية عنيفة.

أنهى (هادي) كأسه ثم نهض مخرجاً هاتفه من جيبه.

فتح الكاميرا وبدأ يصور جسد العشرينية الناشجة التي يراقصها عزرائيل وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة فتتشنج يميناً ويساراً ولأعلى ولأسفل كمرضى الصرع.

تقمص روح المخرج فصار يأخذ لقطات قريبة وبعيدة معدلاً الإضاءة والتناغم اللوني حتى هدأت واستكانت وتوقفت النوبات المصرعة وارتخت تماماً مخرجة نفساً أخيراً تلاه الكثير من الرغاوي والفقاعات الخارجة من فمها وانقلبت مقلتاها وغادرت عالمنا.

أوقف (هادي) الفيديو ثم أرسله لهاتف (سلطان) ليتبعه برسالة صوتية على ذاك التطبيق الذي بُرمج خصيصاً لتلك المراسلات والمكالمات التي يستحيل اختراقها من قبل أي جهاز آخر.

- done يا (مايسترو).

الفصل الرابع

انعكس على عدستي نظارة نظره الأسطر المُدَوَنَة بالصفحة التي أطل منها عبر شاشة حاسوبه المحمول.

أرتصت بجواره ثلاثة أكواب فارغة من الشاي الثقيل المُر اللاتي احتساهن أثناء بحثه الطويل عن معنى لفظة (سيكوباتي)، وكاد أن ينهي علبة سجائره أثناء غوصه بين عشرات البوابات الإلكترونية اللاتي توضحن تفسير هذا المصطلح في علم النفس.

«السيكوباتية - Psychopathy - مرض عقلي يتميز مريضه (السيكوباتي) بالسطحية و انعدام الشعور بالخجل، و السلوك المعادي للمجتمع، و فقر عام بالانفعالات ، و البعد عن العلاقات الشخصية والحميمة. ويرجح أن الشخص السيكوباتي كان ضحية حرمان انفعالي و معاملة قاسية بطفولته المبكرة وعليه، ينشأ على عادات المكر و الغدر و الاحتيال كي ينال رغباته و مطالبه التي تكون في الأغلب غير منطقية.

السيكوباتي شخصية إجرامية لا يندم على ما يرتكبه من أعمال وحشية ودموية بل ارتكابه لتلك الجرائم يعطيه المتعة واللذة.»

رفع (سالم) نظارته ودعك عينيه اللاتين آلمتاه من طيلة التحديق بالشاشة وهنا أدرك أن الليل قد أسدل ستاره لينصرم اليوم دون رجعة (حبيبة) أو ابنه (أدهم) للمنزل.

لقد اعتاد بعد كل شجار أن يمهل نفسه أسبوعاً كحد أقصى لعودة زوجته للمنزل من تلقاء نفسها –وهو ما لا تفعله غالباً – فينتهي الأمر بأن يذهب لها مُنهياً تلك الخصومة التي يذوبها بعناق وقبلة مطبوعة على الجبين.

ولكن المختلف بهذا الشجار هو ما قرأه بعد أن أنهى بحثه الذي أثار فضوله.

لِمَ قد تصفه زوجته بمصطلح بهذه الشناعة والبشاعة وما الجرم الذي ارتكبه تجاهها لتنعته بكلمة لا مرادف لها سوى «مجرم مختل لا ضمير له؟

أغلق حاسوبه وترجل صوب خزانته مخرجاً قميصه الأبيض الناصع محضراً نفسه لمواجهة زوجته وعلى الرغم من أن هرته كانت تموء وتخرخر حوله وكأنها تنهاه عن تركها، إلا أنه لم يستوقفه سوى رنين هاتفه.
نظر لرقم المتصل ثم ضغط على زر الرد وأخذ ينصت لمحدثه بصمت دون أن ينبس حرفاً.

هز رأسه ثم نظر في ساعة يده فأجاب بكلمة واحدة

- تمام.

أنهى مكالمته. استبدل قميصه الأبيض الفاتح بقميصه الرياضي الأسود وسرواله القطني القاتم وسترته الداكنة ذات غطاء الرأس.

نزل من البناية وما بجيبه غير مفاتيحه وهاتفه وعلبة سجائره ومقدحته.

ترجل على ساقيه إلى آخر الشارع وصولاً لكوبري طرة. صعد الكوبري متابعاً البدر الذي حفظته أمه بطفولته أنه يُدعى (خونسو) فهكذا اعتادت أن تعلمه الأشياء بأسمائها عند أجداده المصريين القدماء تماماً كما علمتها أمها النوبية وأبيها الحافظ للأساطير المصرية وآلهتها أكثر من حفظه لأسماء بناته الخمس.

ظل (خونسو) يتبع خطى (سالم) وهو يصعد الكوبري ثم ينزله ثم ينعطف يميناً لينزل عند مكب القمامة الذي يحيط منطقة البناء المظلمة حيث لا أعين للقمر ولا سلطان ل(خونسو).

وقف (سالم) عند طرف المكب المهجور، لا يسمع سوى نباح الكلاب ومواء الهررة النابشة بالقمامة الفائحة والعجيب أنه شعر بالسلام وسط ذاك الهدوء البارد العاوي أسفل تلك الظلماء التي تكتنفه والرائحة الكريهة تسيطر على حواسه.

أسند ظهره على نصف حائط من الطوب الأحمر ثم أخرج علبة سجائره وانتقى واحدة أشعلها ثم نفخ دخانها صوب السماء عله يصل لـ(خونسو) ليُعلمه بمكانه فهو لم يعد في نطاق هداه.

اخترقت العتمة هالتان من نور وكأنهما عينا القمر تسبحان وسط ظلمة البسيطة على حيد المكب.

ولكن بعد دقائق اتضح أن الهالتين ليستا للبدر بل لسيارة «جيب شيروكي» سوداء تعلو وتهبط مع اعوجاج والتواءات الطريق الجامح حتى استقرت العربة المجردة من أرقامها أمام المدخن الشره المستمتع بوحدته.

***

استيقظت الشمس وتمددت أشعة سراج البكيرة بخمول لتتخضب السماء بحمرة فجرها مبددة ظلمة ليلها المتشح بالأسود.

بشكل أوتوماتيكي، أرسل عقل (سالم) صاحب يقظة البوم إشارات لباقي أعضاء بدنه أن الشمس قد حضرت وأن ساعة نومه قد حانت فخلع نظارة نظره ووضعها بجواره على طاولة فراشه الخاوي الذي لا يشاركه إياه سوى قطته.

عدل وسادته وتأبط غطاءه وأغلق عينيه اللتين كانتا معلقتين بالنافذة التي تتمايل ستائرها باستحياء مع كل نسمة هواء تجاورها.

حاول ألا يسترجع ما حدث، فعلى الرغم من أن هذا ما يمارسه باحتراف وإتقان منذ قرابة العقدين، إلا أن لعقله قدرة خارقة يعتبرها نعمة ونقمة وهي معاملة حواسه كأرشيف لحفظ التفاصيل.

حاول أن يُخرج رائحة البخور التي كادت تخنقه بالأمس وصوت الصفير الموسيقي والصياح واليدين اللتين ظلتا تلكمان بوق السيارة بغضب حتى دمت براجمها ولكن التفصيلة التي سيطرت على المشهد كانت اللون الأحمر القاني.

كل تلك التفاصيل خُزنت بلبّه ولكن ما من تفصيلة واحدة أخذت حيزاً من مشاعره أو انفعالاته، ما من ردة فعل عنده، لا غضب ولا تؤدة ولا سخط ولا رضا ولا رفض ولا قبول.. لا شئ سوى الهدوء اللا لوني.

قرر أن يتوقف عن مراجعة مشاهد الليل ليَنَم.

همس لنفسه كما أعتادت أمه أن تفعل:

- (توتو).. (توتو).. (توتو).

كانت تخبره أن هذا اسم إله النوم عند الأجداد وأنك إن ناديته قبل النوم، لن ترى كوابيساً.

كانت تلك البسيطة التي لا تفقه علماً سوى تراثها وتاريخها غير مدركة أن (سالم) حين يخبر معلم الدين بمدرسته الإبتدائية أنه يدعو إله النوم عند الفراعنة قبل أن يغمض جفنه كل ليلة أنه سينعته بالمشرك وسيمده بالخرزانة التي أبرحت كفيه الصغيرين حين كان بالثامنة من عمره وهكذا علمه ألا يشارك عاداته مع غيره وظل (سالم) حتى وصل الخامسة والثلاثين من عمره يكرر (توتو) ثلاث مرات قبل نومه لينتقل بهدوء يطابق ملامحه بين درجات النوم من «النعاس للوسن للترنيق فالكرى حتى التغفيق» وهنا قاطع نومه حركة قطته وهي ترفع رأسها وتنتصب أذناها وتحرك ذيلها الزغب للأمام والخلف حين استشعرت بحدسها الخارق صوت مفتاح يدور بباب شقة رفيقها.

اختفى (توتو) آخذاً معه كل الدعة والخمول حين التقط (سالم) صوت باب شقته يُفتح.

رفع رأسه عن وسادته ونهض جالساً في سريره بهدوء وبطء وكأن هناك جهاز استشعار بالغرفة سيصفر إذا التقط حركته.

مدّ يده صوب درج الكومود وإذ به يسمع ما هدأ أوصاله

- بابي! بابي! إحنا رجعنا!.

دعك عينيه حين وجد صغيره بالغرفة يحجل على ساق تلو الأخرى قافزاً صوبه على السرير ليُفزع القطة المنزوية على حالها عند وسادة سيدها.

- بابي أنا جيت.

قالها (أدهم) ملقياً بنفسه على حجر أبيه.

عانقه (سالم) وربت على ظهره ساحباً نظارة نظره من على الكومود ووضعها معلقاً نظره على الباب، منصتاً لخطى (حبيبة) المترددة التي تدور بالصالة حتى جرت الكرسي بالخارج وجلست ولم تصدر أي صوت آخر.

- روح أوضتك غيَّر هدومك على ما شوف ماما.

- أوكيه، بس هاجي أنام جانبك.

هزّ رأسه موافقاً ثم ترك سريره وخرج من الغرفة لتتبعه قطته التي وثبت برشاقة وحطت على قوائمها وسارت خلفه.

خرج للصالة ليجد سمراءه جالسة على المائدة متكئة برأسها على كفيها مغطية وجهها.

دون أن تكشف عن ملامحها، كان بينٌ أنها مهمومة ومرهقة ولكنها رفعت يديها عن تقاسيمها فرأى عينيها حمراويتن خاويتي التعبير فاحتار (سالم) إن كان هذا بسبب قلة النوم أم فرط البكاء.

- رجعتي بدري من عند (عمر).

أجابته بنبرة مكدودة

- ماكنتش عنده. خبطت عليه مافتحليش واتصلت بيه ماردش.. أكيد زعلان مني بسببك.

هز رأسه غير مبالياً وظل ينظر صوبها متسائلاً، ود أن يعلم لِمَ عادت بمفردها ولِمَ بهذه الساعة ولِمَ تبدو مرهقة لهذا الحد ولكنها ظلت تحدق به وبَدَت أكثر حيرة منه.

- هتنامي؟

- أنا حامل.

نطقتها ببطء وبنبرة مرهقة ولكنه ابتسم وهو شيء لم تره يفعله كثيراً.

جلس على الكرسي المجاور لها وأمسك بيدها وقبّل جبينها

- إن شاء الله بنت.

رأت السعادة بعينيه فبكت وحاولت أن تغطي وجهها بيديها ثانية وهي ترتعش وتهز كتفيها.

لم يعد يفهم أهي تبكي من فرط السعادة أم أن هناك ما يزعجها. ما عاد قادر على فك شفرتها.

بأعين مستفهمة ونبرة متحيرة سألها

- ليه العياط؟

حاولت أن تهدئ أنينها حتى تقوى على الإجابة بصوت واضح ولكنها انفجرت

- الدكتور شخَّص (أدهم) بإنه سيكوباتي.

تأمل الجملة مفكراً

- يعني إيه؟

- يعني ابنك عنده انحراف سلوكي وبوادر عنف إجرامي يا (سالم).. ابنك هيبقى سفاح.

- ابننا اللي في كي جي تو هيبقى سفاح يا (حبيبة)؟

- نتايج مقياس الانحراف السيكوباتي طلعت إيجابية.. بكت مقهورة: أنا ماقصرتش معاه في حاجة، أنا عمري ما كنت قاسية عليه عشان يطلع بالميول دي.

- (حبيبة)، مافيش حاجة اسمها تروحي لدكتور يقولك ابنك هيطلع سفاح.. هو مش منجم.

- مش منجم بس خبير سلوك وأنا واثقة في تشخيصه لإني من الأول حاسة إن في حاجة غلط بس ماتخيلتش إنه للدرجة دي.

صمت بضعة ثوانٍ ثم زفر وسألها

- إيه سبب المرض ده؟

- أنت سببه يا (سالم). الميول دي بيكون معظمها وراثي و..

- وبما إنه وراثي فأكيد ورثه من أبوه الشرير مش كدا؟ ليه ما يكنش ورثه من أمه العصبية اللي كل شوية بحالة واللي خلقها أضيق من خرم الإبرة؟ ليه لما بيكون متفوق وشاطر يبقى ابنك حبيبك ولما يخيب يبقى ابني اللي حاله مايل؟

- عشان أنا عمري ما قتلت.

- يعني أنا اللي قتلت؟

- أنت بالنسبة له قاتل، هو قال كدا للدكتور. قاله إنه كان عايز يقتل القطة عشان يبقى قوي زي بابي اللي قتل الخروف.

- هو أداء فريضة ربنا دلوقتي بقى قتل يا (حبيبة)؟

- متحرفش كلامي يا (سالم)، اللي بقوله واللي الدكتور بيأكده إن أنت كمان عندك ميول سيكوباتية وابنك اتشرّب ده منك وقلدك في ردود أفعالك زي ما بيقلدك في طريقة أكلك وشربك ولبسك وكلامك وبرودك وأنا مش مستعدة إني أجيب طفل تاني ويطلع زيك.. بدأت تبكي: أنا أصلاً مش عارفة أنت ليه بقيت كدا يا (سالم)، ليه البرود واللامبالاة اللي أنت عايش فيهم دول.. أنت حتى مش مخضوض من الكلام اللي قلتهولك عن تشخيص الدكتور لحالة (أدهم) ولا كأنه ابنك ولا يخصك ولا كأننا داخلين على مصيبة سودة بكت بشدة أكبر واهتزت كعصفور يحاول التحليق وسط عاصفة غاشمة: أنا خايفة.

وضع رأسه على كفه وأخذ يراقبها تبكي فربت على كتفها بفتور

- إيه اللي ممكن أعمله عشان أطمنك؟

أمسكت يده وتشبثت بذراعه

- ساعدني.. خليني أحس إن فيه أمل بينا يا (سالم)، أنت وصلتني لمرحلة إني بدأت أفكر في الطلاق.

- الطلاق؟ هو أنتِ عايزة..

قاطعته سريعاً قبل أن يغضب

- بس لما اكتشفت إني حامل قلت ربنا بيدينا فرصة تانية، ربنا بيقولي إن في أمل في علاقتنا إنها تتجدد وتتحسن.

تثاءب رغماً عنه فقد ناداه (توتو).

نظر للساعة السوداء المعلقة على حائطه ليجد أنه تأخر ساعة عن موعد فراشه فقرر أن يجاريها لينهي تلك المناقشة ويعود لفراشه الدافئ

- إيه اللي ممكن أعمله عشان أحسن علاقتنا يا (حبيبة)؟

- روح لدكتور نفسي.

***

هو شديد الالتزام بمواعيده وليس من عادته التقاعس ولكن وللمرة الأولى، تعمد أن يماطل وأن يتأخر على موعده.

أشعل السيجارة الرابعة وهو ينظر لساعته ليدرك أنه تأخر خمس عشرة دقيقة عن موعده.

بدأ وسواس قهري يحضه على الإسراع وإنهاء السيجارة، فلبى.

بعد بضعة أنفاس عميقة وسريعة، أنهى سيجارته وألقاها من نافذة سيارته الماتريكس الرمادية المتهالكة ثم نزل

(سالم) وهو يراقب ذاك البرج بشارع ١٥٤ تحت رداء الليل الذي غاب قمره لتلائم الأجواء ارتكاب جريمة.

جريمة بحق ذاته وكبريائه كتلك التي يقدم عليها الآن وهو يدخل المصعد ليرفعه للدور الثاني عشر لملاقاة الدكتورة (سلوان عبد السميع) طبيبة وخبيرة الصحة النفسية.

صحيحٌ أنه انصاع لرغبة (حبيبة) في أن يعرض نفسه على طبيب نفسي إلا أن (سالم) لا يعلم لِمَ لم تلاحظ (حبيبة) طباعه تلك من قبل ولِمَ تعتقد أنه «صار بارداً وأضحى غير مبالياً وأمسى خمل العواطف على الرغم من أنه لطالما كان هكذا.

ودّ أن يخبرها أن تلك هي خصاله منذ أن قابلها أول مرة وأنه إن كان هناك تغير لكان من قِبَلَهَا، فمعنى أنها بدأت تشكو عيوبه أن حبها له قل فهكذا هو الارتباط، علاقة عكسية تنص على أنه كلما زاد حبك لشريك حياتك، قلت قدرتك على ملاحظة عيوبه.

ولكنه لم يواجهها، آثر الهدوء والصمت كما يفعل دائماً لأنه يعلم أن الإشارة لتلك الزاوية لن ينتج عنها سوى الكثير من الصياح وصفع الأبواب وتوجيه الاتهامات ثم لملمة الملابس والرحيل عند أخيها أو خالتها واضطرار (سالم) لمصالحتها مجدداً.

داعبته تلك الأفكار وهو بداخل الصندوق الحديدي في طريقه للدور الشاهق حيث ستكون الطبيبة التي من المفترض أن تشخصه وكأنه أنتيكة في انتظار أن يقيمها البائع ويُسَعِّرها الشاري.

تخيلها امرأة ترتدي سترة صوفية رمادية عاليا العنق ونظارة نظر مُكبرة وشعرها معقوصاً لأعلى، تهز ساقها بحذاء مدبب الكعب ولها أظافر طويلة وحادة وتضع أحمر شفاه داكن عتيق.

تصورها مصفرة الأسنان التي تبرز من بينها مسافات واسعة، وعلها مدخنة شرهة وعلها أكثر اضطراباً من مرضاها.

علّ أثاث وديكور عيادتها يشبهان شخصيتها، داكنة ومملة.

توقع حوائط رمادية وأثاث أسود جلدي يصدر صوت احتكاك سخيف مع جسدك وأن بغرفتها مكتب زان داكن يقابله «شازلونج عاتم اللون وتتراص على الجدران شهاداتها التي تختال بها وبالزاوية تمثال برونزي أو مزهرية من الكريستال البلجيكي.

ولكنها كانت عكس كل ما تخيله!

دخل (سالم) من باب عيادتها ليجدها تضج بالألوان الفاتحة من تدريجات الأبيض والبيج والزاوية الزرقاء والآرائك الوردية والخداديات البنفسجية والزهور النضرة البهيجة.

نظر حوله ليتأكد ثانية من عدم وجود كاميرات، فهو لا يشعر بالأمان في ذاك المكان الفسيح التي لا يستشعر به أية خصوصية أو حماية ولكن العيادة كانت كسائر أجزاء ذاك البرج الشاهق، مجردة من أية كاميرات مراقبة.

جلس بضعة دقائق بينما حدثته الممرضة العشرينية بابتسامة مريحة

- دكتورة (سلوان) منتظراك.. اتفضل.

ولج الغرفة ليجدها أريحية الأجواء حيث الأثاث الفاتح والحائط العاري من أيه شهادات أو صور أو لوحات والآرائك المنبسطة التي تتزين بشيلان هندية الطابع تنبض بالألوان الدافئة وبالزاوية كانت (سلوان) جالسة.

خمسينية، فارعة، رفيعة، عريضة الكتفين، مسطحة الصدر، شعرها كستنائي قصير تتموج خصلاته البوهيمية حول عنقها الطويل.

نظرت له بعينيها المسحوبتين الطرف واللتيْن تلمعان ببريق الذكاء الحاد ثم ابتسمت بشفتيها العريضتين اللتيْن يستتر

أسفلهما فك ناتئ يكشف عن أسنان مصطنعة البياض.

- مساء الخير.

قالتها ناهضة عن كرسيها البنفسجي العالي آخذة بضعة خطوات لتلاقي مريضها بمنتصف الحجرة بينما أغلقت الممرضة الباب.

صافح يدها وقد صح تخيله، فأظافرها كانت بالفعل طويلة وحادة.

- اتفضل.

- أقعد فين؟

- في المكان اللي ترتاح له.

نظر للكراسي المختلفة بالحجرة بين جلدي عالي وإسفنجي مستدير بلا ظهر وأريكة طويلة عملاقة تقابل مقعدها.

تخير الأريكة فجلس وهو يراقب تلك التي من المفترض أنها تفوقه علماً ومعرفة بالبشر إلا أن ملبسها أفقدها هيبة الطبيبة النفسية الكلاسيكية التي أعتادها بالأفلام فقد كانت ترتدي سترة وردية أسفلها قميص قطني أبيض وسروال جينز وحذاء رياضي ناصع البياض تتخلله بضعة أزهار وردية

فلم يكن يزعجه فقط فكرة أن ملبسها لم يماشي عمرها بل أيضاً أن مظهرها لم يواكب أجواء الإثارة والغموض التي رسمها بخياله.

استقرت (سلوان) في جلستها واضعة ساقاً فوق الأخرى لتريح عليها حافظة الورق الجلدية التي تسند عليها أوراقها ثم نظرت لشيء يعلو رأس (سالم)، فالتفت ليجدها ساعة بيضاء ذهبية الإطار تشير للعاشرة مساءاً

- طبعاً أنا عارفة اسمك من الإستمارة اللي مليتها برة، بس أنا بحب دايماً أتعرف على كل ضيف بيشرفني لأول مرة فهسألك شوية أسئلة وأنت مش هتجاوب غير على اللي هترتاح في الرد عليه، اتفقنا؟

هزّ رأسه إيجاباً.

- السن والمهنة والحالة الاجتماعية.

- خمسة وتلاتين سنة.. مبرمج.. متجوز وعندي طفل ومنتظر التاني.

ابتسمت ابتسامة أعاق وصولها لعينيها البوتوكس الذي غزا وجنتيها المتحجرتين.

- مبروك!.. مبسوط إن هيجيلكم طفل تاني؟

- هتبسط أكتر لو طلعت بنت.

- بتفضل البنات عن الولاد؟

- مش مسألة تفضيل.. نفسي في بنت شبه أمي.

- يابخت والدتك، أكيد فخورة بإن ابنها بيحبها أوى كدا.

- يمكن.

- ماعبرتلكش عن فخرها بيك قبل كدا؟

- ماعبرتليش عن حاجة من ساعة ما ماتت.

- أنا آسفة.. ربنا يرحمها كتبت ملاحظة ما ثم أضافت: طب ووالدك؟

أطرق مراقباً يديها اللتيْن لم تترددا في الوشاية بتقدمها العمري ولم يتهاونا في التكرمش والنتوء.

- ممكن أدخن؟

- أكيد.

قالتها وهي تنتشل المرمدة من على الطاولة المجاورة لها وتناوله إياها.

أخذها منها بينما أخرج سجائره من جيبه وسألها وهو يستعد لإشعالها

- أنتِ بتسجلي أو بتصوري أي حاجة بتتقال هنا؟

- لأ، أنا ضد ده تماماً.. بكتفي بشوية ملاحظات بكتبهم بإيدي. تقدر تقول عليا old school.

هز رأسه ثم نفخ دخانه وتفقد ساعة يده موضحاً

- أنا عارف إن الجلسة وقتها محدود فهخش في الموضوع على طول، أنا جَى لك عشان عايز أعرف إذا كنت سيكوباتي ولا لأ.

- إيه اللي مخليك معتقد إنك سيكوباتي؟

- مراتي شايفة كدا.

- للدرجة دي بتثق في آرائها؟

- هي خريجة طب نفسي فأكيد عندها سبب علمي يخليها تشوفني كدا.

خصوصاً لأنها راحت لخبير نفسي قالها إن ابننا كمان عنده ميول سيكوباتية وإن سببها وراثي فأكيد ورثها مني.

- يعني أنت جَي بس عشان تنفذ رغبة زوجتك؟

- يمكن نفث سيجارته: ويمكن فضول.. أنا قريت عن الموضوع شوية على الإنترنت بس الصورة ماوصلتنيش

كاملة.

- وفي اللي قريته على الإنترنت، لقيت صفات مشتركة بينك وبين السيكوباتيين؟

هزّ كتفيه وهو يطبق على سيجارته بشفتيه ليضع يديه بجيبه وأجاب بهدوء

- أنا طول عمري عارف إن برمجتي مختلفة عن باقي الناس بس مش لدرجة إني مجنون.

- بس السيكوباتية مش جنون، ده اضطراب ممكن يكون فعلاً وراثي زي ما الدكتور قال لمراتك أو عضوي بسبب تشوهات في اللوزة الدماغية أو اضطراب في الكروموزومات أو حتى الظروف الاجتماعية المحيطة بالإنسان خصوصاً في فترة الطفولة والمراهقة.

استعدت وكأن الجلسة على وشك اتخاذ منحنى مختلف فقربت الأوراق منها وسنت قلمها قائلة:

- هسألك شوية أسئلة بسيطة مالهاش إجابة صح أو غلط بس ليها إجابات صادقة أو مختلقة نظرت له بجدية: خلينا نتفق على الصدق، اتفقنا؟

هزّ رأسه موافقاً وربّع ذراعيه منصتاً لسؤالها الأول

- شايف إن حياتك اليومية مثيرة للاهتمام؟.

مط شفتيه: عادي.

- بتمر بمشاكل ومجادلات زوجية كتير؟

- لأ، بحتوي المشكلة قبل ما تكبر.

- ومش بتحس إنك بتتهزم في أي نقاش بتدخله أو إنك بتستلم للي قدامك بسهولة؟

- لأ نفث دخانه: لأني أصلاً مش بتناقش مع حد.

- ليه؟

- لأن الغرض الوحيد من أي نقاش في مجتمعنا هو إنك تثبت لنفسك إنك صح وإن رأيك اللي انتصر.

- وأنت مش مهتم تنتصر عـاللي قدامك؟

- أنتصر عليه فكرياً؟ أطرق مفكراً ثم مط شفتيه وأردف: لأ.

دوّنت بضعة كلمات ثم تابعت

- راضي عن حياتك الجنسية؟

أجابها بلامبالاة: آه.

- ماعندكش أي خيالات أو تصورات جنسية مش قادر تحققها بسبب العادات أو الأعراف؟

دفن سيجارته في المرمدة ببطء ثم أجاب بثقة:

- أنا لو عايز أحقق حاجة هحققها بغض النظر عن أي عادات أو أعراف بس لأ.. أنا ماعنديش أي تصورات جنسية غريبة.

- بتتناول أي عقاقير مخدرة أو مشروبات كحولية بشكل منتظم؟

هزّ رأسه بلا.

- بتحس في حياتك بالظلم؟

- ومين ما اتظلمش؟.

- بس في ناس مابتسكتش عن حقها.. أنت منهم؟

- أنا عمري ما سكت لحد حاول ييجي عليا.

- حتى لو أخد حقك ده هيسبب إنك تخرج عن القانون؟

- أنهي قانون؟ قانوني ولا قانونك ولا قانون المجتمع ولا قانون ربنا؟

حكت شحمة أذنها ورفعت حاجبيها الرفيعين المصبوغين كشعرها بشيء من الإعجاب بردوده الفلسفية.

- أنت إيه قانونك يا (سالم)؟

- العين بالعين.

- والقانون ده مخليك راضي عن حياتك؟

- الرضا مش بيجيب غير الخراب.. اللي بيرضى بيسكت وبيسيب الدنيا تلطش فيه بدون ما يعمل حاجة يحمي بيها نفسه.. لو كلنا راضيين ماحدش هيعوز أكتر ولو ماحدش عاز أكتر ماحدش هيشتغل ولا يتعب ولا يسعى ولا يعمر الأرض. هيفضل كل واحد واقف في مكانه لحد ما الأرض تبطل دوران وينفخوا في البوق ونموت.

- وأنت أيه الأكتر اللي عايزه في حياتك؟

شغل نفسه بإخراج سيجارة جديداً بينما أخذ يفكر في الأجابة

- مش عارف.. أكيد في حاجة ناقصة في حياتي بس أنا لسه مش متأكد هي إيه.

- سخيف شعور إنك تبقى مش عارف تحدد إيه اللي ناقصك، مش كدا؟

- المشاعر كلها سخيفة.

- حتى الحب؟

- الحب أسخفهم توقف عن الحديث ليشعل سيجارته وينفث دخانها ثم أردف مفسراً: كدبة رأسمالية اخترعوها عشان يجبروك تشتري وتصرف بدافع شعور وهمي غير موجود.. لو بتحب ولادك دخلهم مدرسة مصاريفها مش هتتسدد غير لما تبيع كليتك، لو بتحب مراتك جيب لها المجوهرات الغالية دي، لو بتحب الحياة الكريمة اشتغل ١٥ ساعة وخد مرتب قليل وبوس إيدك وش وضهر. الحب هو أساس كل بذخ وكل استغلال عاطفي. الحب مالوش هدف غير السماح للنظام والمجتمع بتحريكك زي الماريونيت.

- وأنت بتحس إن الناس بتستغلك بسبب حبك ليهم؟

- لأ، لإني ببساطة مابحبش حد.. ربنا خالقني من غير الأوبشن ده.

- ولا حتى مراتك وابنك؟

مط شفتيه ونظر لأصابعها القابضة على القلم

- شعوري ناحيتهم شعور بالمسؤولية.. وعلى فكرة ده شعور أصدق بكتير من الحب.

- طب ومامتك، كان إيه شعورك ناحيتها؟

أطرق للأرض دون أن يطرف له رمشاً.

ضغط على سيجارته وسحب دخانها بكسل ثم أخرجه بتراخي

- إيه السؤال التاني؟

ابتسمت (سلوان) بغرض أن تطمئنه.

انشغلت بورقتها وأخذت تدون ملاحظاتها ثم نظرت إلى (سالم) لبضع ثوان محاولةً أن تحدد تعبيراته وانفعالاته ولكنه أهدأ مريض مر عليها وأقلهم تفاعلاً ولكن الأهم أنه كان أصدقهم، وهو انطباع يندر اتخاذه عن مريض أثناء جلسته الأولى.

- هسألك سؤال، وليك مطلق الحرية إنك ماتجاوبش عليه بس لو هتجاوب، أتمنى توعدني إنك هتجاوب بصدق.

هز رأسه موافقاً وأشار لها مرحباً فأردفت

- عمرك خرجت عن القانون وقصدي هنا القانون الجنائي.. عمرك ارتكبت جريمة؟

تفرس قسماتها لبضعة ثواني ثم أحنى ظهره مقترباً منها وكأنه على وشك أن ينطق سراً

- أنتو فعلاً حالفين قسم إنكم ماتطلعوش أسرار مرضاكم؟

اقتربت منه وأحنت ظهرها مثله وهمست بصوتٍ أخفض

- العيادة دي مثلث برمودا، اللي بتقوله فيها بيقع في ثقب أسود مالوش قرار.

أطفأ سيجارته ثم تكلم فاتحاً ذراعيه بأريحية

- اللي خلاني أجيلك هنا مش عشان تقوليلي إذا كنت سيكوباتي ولا لأ.. أنا جَي أعرف منك إيه علاج السيكوباتية لإني متأكد مية في المية إني فعلاً سيكوباتي.

- وإيه اللي خلاك متأكد؟

- بيقولوا على النت إن السيكوباتي مش بيحس بتأنيب الضمير أو الذنب اتجاه الناس حتى لو كان أذاهم أذى كبير.. الكلام ده بينطبق عليا بالمللي.

- وأنت أخر مرة أذيت حد كان إمتى؟

- إمبارح الفجر.

- أذيته إزاى؟

ثبت نظارته على أنفه ثم همس

- قتلته.

قطبت (سلوان) حاجبيها المقوسين وحاولت أن تخفي صدمتها وأن تلتزم الاحترافية.

بلعت ريقها بصعوبة وانتصب ظهرها الذي كان مقبلاً على (سالم) لترجع في كرسيها ثم همست له

- قتلته ليه؟

- لأن ده شغلي.. أنا قاتل مأجور.

صُفِعَ الباب وفُتِحَ على مصراعيه وسمعا الممرضة تصيح

- يا فندمماينفعش كدا في حد جوة.

التفت (سالم) و(سلون) صوب الجذاب ذا الجسد الرياضي وطابع الحسن والغمازتين والشعر الكثيف اللامع والأعين الكحيلة ورائحة العطر الفرنسي والبدلة الأنيقة وساعة الرولكس الذهبية.

نظر (هادي الحكيم) ل(سالم عبد الرحيم) بأعين غاضبة وابتسامة معاتبة

- ده اللي اتفقنا عليه؟

الفصل الخامس

وطأ (هادي) غرفة العيادة وصفع الباب بوجه الممرضة ثم التفت للطبيبة (سلوان) بابتسامته الساحرة واقترب منها بخطى واثقة.

- Pardon يا هانم على المقاطعة أمسك يدها ولثمها بأرستقراطية: (هادي الحكيم).

تأمل أنحاء الغرفة ثم استقر نظره على (سالم) الذي لم تختلج ملامحه من دخول (هادي) المفاجئ.

أردف (هادي) بضيق

- أنا الطبيب المعالج الخاص بـ(سالم) جلس على الأريكة بجواره وأردف: أنا سمعت المعلومات اللي مريضي بيقولها لك.. ضحك مستهتراً: طبعاً ده كلام فاضي، (سالم) عمره ما قتل ولا مسك قصافة حتى مش سلاح.

لم يعلق (سالم) وسحب سيجارة جديدة من علبته وأشعلها بينما عقب (هادي)

- هو من كتر ما حياته الزوجية مملة بقى مصاب بهلاوس.

سحب السيجارة من بين أصابع (سالم) بهدوء ثم ثناها بالمرمدة ورمقه محذراً إياه من التدخين ثانية ثم أكمل

حديثه.

- الهلاوس دي بتخليه يتصور إنه قاتل محترف وإن حياته كلها أكشن ومغامرات.

ألصقت (سلوان) ظهرها بالكرسي وحاولت استيعاب ما يدور، في اللحظة الأولى التي رأت فيها (سالم) توقعت أنه أتى يشكو من الاكتئاب أو ربما الوسواس القهري ولكن آخر ما ظنته هو أن يكون قاتلاً سيكوباتياً، والآن ها قد أتى ضيفٌ آخر.

تفحصتهما من رأسيهما حتى أخمصهما وكأنها تحاول أن تقرأ الطالع وهي تتفرس قسماتهما وملبسهما ولغة جسدهما لتلحظ أن (هادي) يستخدم يديه كثيراً منفتحاً على العالم وخارجاً عن إطار مساحته الشخصية ويلمس ذقنه ويشرئب بعنقه بنرجسية من برهة للأخرى، بعكس (سالم) المتيبس الذي لا يحرك يديه إلا إذا كان سيشعل سيجارة.

قلبت صفحة جديدة وأعدت قلمها وقررت أن تهزم التوتر الذي انتابها وأن تريهما وجهاً يختلف عن الوجه المريح الحنون الذي عادة ما تلبسه لمرضاها الأرستقراط.

- إيه نوع الهلاوس اللي مريضك بيشتكي منها يا دكتور (هادي)؟

حدق بها (هادي) وتبادل النظرات مع (سالم) الذي ابتسم له ساخراً متحدياً إياه أن يجيب بدقة حتى حكّ (هادي) طابع حسنه وأجاب (سلوان) بثقة

- هلاوس بصرية.

- إيه نوع الهلاوس البصرية؟.. هلاوس مرافقة للذهان ولا الهذيان ولا الفصام ولا نوع مختلف؟

ابتسم (هادي) ومشّط شعره ضاحكاً بلا إجابة فأردفت (سلوان) بثبات

- ماعتقدش إنك طبيب نفسي. أظن إن (سالم) صادق في اعترافه وأنت جيت وراه عشان خايف يطلع أي تفاصيل تخص شغلكم.. أنت هنا عشان حاسس بالخطر.

- (سالم) عمره ما كان مصدر خطر بالنسبة لي.

- ده معناه إنك شريكه مش مديره.. لو كنت مديره أو زعيم العصابة اللي هو شغال فيها كان زمانك قتلتني وقتلته بدل ما تحاول تكدب عشان تطلعه من هنا بأقل خساير.

صفق (هادي) وابتسم معجباً بفطنة (سلوان) قائلاً بلكنة فرنسية

- برافو ربت على كتف (سالم) بحماس: لأ، فعلاً اخترت

دكتورة شاطرة.. هل ده استنتاجك يا دكتورة ولا (سالم) هو اللي حكى عن اللي عملناه إمبارح فعرفتي إن له شريك في الجريمة؟

قبلها بأربع وعشرين ساعة

أغلق (سالم) حاسوبه وترجل صوب خزانته لاسترداد زوجته وعلى الرغم من أن هرته كانت تموء وتخرخر حوله وكأنها تحاول منعه من تركها إلا أنه لم يستوقفه سوى رنين هاتفه.

نظر لرقم المتصل فضغط على زر الرد وأنصت لمحدثه بصمت دون أن ينبس حرفاً.

كان المتصل يطير على الطريق الصحراوي أسفل البدر المتوسط الفضاء الليلي الداكن المزدان بالنجوم المتلألأة المحروم القاهريون من رؤيتها.

أسرع (هادي) بسيارته الكلاسيكية على صوت (إيديت بياف) في طريق عودته من الساحل الشمالي بعد أن مسح بصماته من كل إنش بفيلا (الدَغّش) وتأكد من أن ابنة شقيقته (هايدي) قد توقف نبضها وأرسل الفيديو المقيت لـ(سلطان) عن طريق تطبيق الهاتف الذي برمجه (سالم) حتى لا يتمكن أحدهم من اختراقه وليكن الوسيلة الآمنة

لتبادل أية معلومات تخص أي جريمة يرتكبونها.

- كل سنة وأنت طيب يا أبو (أدهم).. معلش هقاطع طقوسك العائلية وهخليك تلبس وتجهز عشان في طاجن صيادية لازم يتاكل الليلة.. ساعة وأبقى عندك.

هز (سالم) رأسه ونظر بساعة يده ثم أجاب بكلمة واحدة

- تمام.

نزل من بنايته وما بجيبه غير مفاتيحه وهاتفه وعلبة سجائره ومقدحته.

ترجل على ساقيه إلى آخر الشارع وصولاً لكوبري طرة. صعد الكوبري ثم نزله ثم انعطف يميناً لينزل عند مكب القمامة الذي يحيط بمنطقة بناء مظلمة.

أسند ظهره على نصف حائط من الطوب الأحمر نافثاً دخان سيجارته لأعلى حتى اخترقت العتمة هالتان من نور لسيارة «جيب شيروكي سوداء تعلو وتهبط مع اعوجاج والتواءات الطريق الجامح حتى استقرت العربة المجردة من أرقامها أمام المدخن الشره المستمتع بوحدته.

اتجه (سالم) للسيارة ثم فتح الباب ليجلس ومازالت سيجارته بفمه

- التدخين يدمر الصحة قالها (هادي) قائد السيارة ثم سحب السيجارة من بين شفتي (سالم) ثم ألقاها من النافذة وقال بابتسامة مرحبة: وحشتني.

حدجه (سالم) بضيق ثم أمره بهدوء

- اطلع!.

كانت قيادته انتحارية.

يطير بسرعة ١٢٠ كيلومتر بالساعة ثم يفرمل فجأة ليتفادى حفرة أو يعلو مطباً بالطريق الذي يحفظه عن ظهر قلب وتزداد جرعة الأدرينالين كلما ظهرت سيارة نقل ثقيل بالطريق وإذ به يباغتها ويسارعها ويظهر أمامها من عدم.. كل هذا على ألحان (إيديت) الفرنسية وهي تغني Milord بشكل مبهج و(هادي) يردد ورائها بروح معنوية مرتفعة.

- فلتأتي يا (ميلور) وتنضم لطاولتي، فالجو باردٌ بالخارج ولكن الجلوس هنا معي لهو مريح.

مد (سالم) يده وأطفأ المذياع الذي يبث الأغنية الأثيرة لقلب (هادي).

نظر له (هادي) متأففاً وخيّم صمت الليل على الأجواء.

- طب على الأقل لو هتطفي الأغنية اتكلم معايا.. سليني لم

يلقَ منه سوى الصمت فعقب: عملت إيه في العيد غير إنك دبحت وإديت المدام والولد العيدية وحاجات المتجوزين المملة دي؟

لم يجِبه ولم يلتفت له وكأنه غير موجود من الأصل.

التفت (هادي) صوبه وهو يكلمه دون أن ينظر للكورنيش الخالي الذي يطير على أسفلته.

- مابتردش ليه؟

- انجز عشان عايز أدخن.

- طلباتك أوامر.

دعس على البنزين أكثر وأخذ (سالم) يتساءل إن كان سيموت يوما بسبب قيادة (هادي) السافرة.

***

أسند ظهره على السيارة السوداء اللامعة مدخناً سيجارته وهو يراقب الأبراج الشاهقة المطلة على النيل مفكراً كيف سيبدو المنظر من الأعلى إذا تأمل من نافذتها الشروق المطل على نهر (حابي)؟

سحب النفس الأخير من سيجارته وألقاها أرضاً فأخمد أنفاسها المعافرة بطرف حذائه ثم أخذ عُقبها المطفأ ووضعه

بجيبه.

انضم لـ(هادي) الذي يخرج حقيبتين معدنيتين من السيارة.

جاوره عند الزاوية المظلمة التي تعمى عنها كل كاميرات المراقبة المعلقة فوق المتاجر والمحال وأخرج من ظهر السيارة بدلة بيضاء من النايلون كبدل مربي النحل.

خلع سترته الرياضية وألقى بها بالسيارة وبدأ يرتدي البدلة المكونة من قطعة واحدة.

دخل مرتديا البدل النايلون البيضاء التي تغطي كل جزء بجسدهما إلى البرج.

استدعى (هادي) المصعد وانتظر لحظات كان سيدها الصمت حتى رنّ المصعد معلناً عن وصوله، ليلجه (سالم) فـ(هادي).

ضغط (هادي) على رقم ثلاثة عشر ثم التفت له (سالم) سائلاً إياه

- تعرف يعني إيه سيكوباتي؟

أغلق المصعد بابه الثقيل.

أخرج (هادي) من جيبه مفتاح الشقة وهو يشرح

- واحد مختل عقلياً بيستمتع بعذاب الآخرين.. زي فيلم الجوكر كدا.

فُتح الباب حين وصل للطابق المنشود ثم دخلا الشقة المعتمة.

لم تكن ملامحها واضحة بهذا الظلام فاستعان (سالم) بكشافه الصغير بينما دخلا وأغلقا الباب خلفهما بالمفتاح بنفس عدد الدورات التي فتحاها.

كشف الكشاف الصغير عن سفرة وأثاث عربي الطراز ومبخرة وصل دخان بخورها الثقيل لأنفيهما.

وضع (هادي) حقيبته على المائدة وأخرج أدواته.

- ماشوفتش فيلم Psycho؟ كان عن واحد سيكوباتي بيقتل الستات.

أخرج من الحقيبة حبلاً خشناً ولاصقاً أمريكياً شديد الالتصاق وستة سكاكين من أنواع وأحجام مختلفة رصهم بدقة من الأكبر إلى الأصغر وأردف

- وفي فيلم تاني اسمه American Psycho بتاع (كريستيان بيل).. عمل دور يهبِل أغلق الحقيبة الأولى ثم فتح الثانية: بتسأل ليه؟

أخرج (سالم) من جيبه مسدساً كاتماً للصوت وتفحص أجزاءه مجيباً شريكه

- (حبيبة) شايفة إني سيكوباتي.

ضحك (هادي) ساخراً

- أنت سيكوباتي! أخرج خزنة طلقات ومسدساً من الحقيبة الثانية: إحنا أبعد ما يكون عن السيكوباتية أعدّ مسدسه ثم وضعه على السفرة بجوار باقي أدواته: أنا شايف إنك..

- هششششش.

قاطعه (سالم) مشيراً له بالصمت ثم أشار صوب الباب حين استشعرت أذناه حركة.

سمعا صوت المفتاح يُدار بداخل الباب فتأهبا.

سحب (هادي) السكين الأكبر بينما أحكم (سالم) قبضته على مسدسه ثم سارا على أطراف أصابعهما صوب الباب.

وقف (هادي) عند الطرف الأيمن بينما قابله (سالم) على الميسرة.

لف المفتاح لفته الأولى.

أشار (سالم) لـ(هادي) بأنه سيقوم بالضربة الأولى.

لف المفتاح لفته الثانية.

هزّ (هادي) رأسه موافقاً وأحكم قبضته على سكينه بحماس طفولي.

لف المفتاح لفته الثالثة.

دخل صاحب الشقة وقد ألصق الاثنان ظهريهما بالحائط فلم يلاحظ وجودهما بهذه العتمة.

ركل الباب بساقه وراءه لينغلق غير مدركٍ أن مساعدي عزرائيل يقفان خلفه.

تمشى حتى منتصف الصالة مترنحاً وإذ بـ(سالم) يهجم عليه بغتة من حيث لا يدري وكأن أمعاء الظلام قد لفظته.

همّ صاحب الشقة أن يصيح ولكن بخفة، أطبق (سالم) بيده على فمه وباليد الأخرى شدّ اللاصق على فيه فكتم صوته.

بسرعة، قيّد (سالم) يديه ثم ركل قدميه فأبركه أرضاً وإذ بـ(هادي) يربط ساقيه ليشل حركة ضحيتهما تماماً فلا صوت ولا حركة يصدرا عنه.

نزل (هادي) على ركبتيه ليصل لمستوى نظر ضحيتهما وكلمه بابتسامة مستفزة وأعين تبرق حماسة وحمية

- (سلطان الدَغَّش) يتمنى لك عيداً مباركاً.

ضحك (هادي) وهو يريه السكين الحاد الذي سينهي به حياته، فاكتنف الضحية المقيدة الهلع وحاول أن يركله بركبتيه ولكنه عجز عن الوصول إليه فصار يرفس كالتيس بيديه وقدميه المقيدتين ويصارع اللصق على فمه ليحرر صرخة واقفة بعنقه ففشل.

- ماتقتلوش بالسكينة.

قالها (سالم) فالتفت له (هادي) مستفهماً

- ليه؟

- عشان قتلت اللي قبله بنفس السكينة. البوليس ممكن يربط بين الجريمتين ويوصل لنا.

- مش فاهم.

- ماتعملش لنفسك trademark.. اقتله بطريقة تانية.

صمت (هادي) للحظة وهو ينظر لضحيته التي تعافر كي تخلص نفسها.

- ممكن أقتله بسكينة تانية.. أنا جايب كل السكاكين معايا.

نظر له (سالم) بلا تعليق ففهم (هادي) أنه مازال معترضاً،

فحاول أن يقنعه

- طب ممكن أطعنه في مكان مختلف عن اللي طعنت فيه اللي قبله.

- مكان غير الستة وتلاتين مكان اللي خدهم المرحوم اللي قبله؟

استشعر التهكم بنبرة (سالم) فبدأ صبره ينفد خصوصاً لأنه يكره التحاور أثناء القتل فهذا يقلل من تحمسه ويهدأ من حميته.

- أومال عايزني أقتله إزاى يعني؟ قلت لك إني..

قاطعه صوت الطلقة المكتومة التي خرجت بهدوء من فوهة مسدس (سالم) لتخترق رأس الضحية المربوطة.

سالت الدماء الدبقة من رأسه ونهض (هادي) سريعاً حتى لا تُغرِق بدلته البيضاء.

ظل (سالم) يحدق بالرأس التي اخترقتها رصاصته وهو يرى بركة الدم الصغيرة تتسع وتتمدد وخُيّل له أن تلك الجثة تنظر إليه بعتاب.

ضرب (هادي) الأرض بعصبية وأخذ يصيح بـ(سالم) غاضباً

- ليه يا (سالم)؟ ليه؟.. ده كان دوري.. أنا كنت مرتب نفسي

على إن أنا اللي هقتله يا أخي.

فك (سالم) مسدسه وقابل غضب (هادي) الطفولي بلامبالاة

- معلش.

أدار ظهره وأعاد مسدسه لحقيبته ولملم أدواتهم بالحقيبة الأخرى وأتبع التعليمات الموجهة إليهما بأن يتركا الجثة مكانها ثم خرجا من الشقة كما دخلاها واستدعيا المصعد.

لم يكن هناك أي تغيير بتعبيرات (سالم)، كما صعد كما سينزل إلا أن شتان الفرق بين الحماس الذي كان يسيطر على (هادي) حين صعوده وبين الغضب والحنق وخيبة الأمل الذين يعتصرونه الآن.

خرجا من البرج و(هادي) يفك غطاء الرأس والقناع الأسود في طريقه للسيارة كذلك فعل (سالم) ببرود وهو يخرج سجائره ويشعل واحده يتلذذ بأنفاسها بينما يخلع بدلته البيضاء.

شد (هادي) السيجارة من بين أصابع (سالم) وقال ساخطاً

- لو هتقف تضيع الوقت في السجاير شوف حد غيري يوصلك.

ركب السيارة وصفع بابها بعنف.

ببرود، ركب (سالم) بجواره دون أي تعليق وإذا بـ(هادي) ينطلق بسرعة أقصى من التي أتى بها وكأنه أقسم على أن ينهي حياتهما الليلة على الأسفلت.

ولكن وعلى أي حال، هكذا كانت حقيقتهما.. لا (هادي الحكيم) بالرزين الهادئ ولا (سالم عبد الرحيم) بالرؤوف المسالم.

الفصل السادس

- يعنى أنتو الاتنين قتلة مأجورين!.

قالتها (سلوان) في محاولة لتدارك ما قصه (هادي) على مسمعها دون أن تُظهر وجلها.

أجابها (هادي) ساخراً

- قديمة أوي قاتل مأجور دي.. hitman أشيك.. ولكن على كل حال، ده مش معناه إننا سيكوباتيين زي ما حضرتك ومراته بتحاولوا تقنعوه.

- كونك بتقتل أشخاص لا آذوك ولا سببوا لك ضرر ولا ليك دافع شخصي لقتلهم فده مالوش مسمى غير سيكوباتية.

- طب ما الجنود في الحرب بيقتلوا وظباط الشرطة بيقتلوا وعشماوي بيعدم بدون ما يكون له دافع شخصي.. هل ده معناه أنهم سيكوباتيين؟

- دول بيقتلوا لقضايا نبيلة، بيقتلوا عشان يحموا المجتمع، إنما أنتو إيه قضيتكم؟

أجابها (سالم) بلسان خمل

- الموضوع مش دافع وقضية.. دي وظيفة زي أي وظيفة.

- لأ يا (سالم) excusez- moi بقى، الموضوع مش وظيفة والسلام قالها (هادي) متضايقاً ثم نظر للطبيبة ووضح بابتسامة حالمة: ده شغف، أنا كل ما بيجيلي أوردر جديد بتبقى معنوياتي مرتفعة ومتشوق ومتحمس للي هعمله.. أنا مش موظف حكومة عشان أطلمس أي حاجة وأروَّح. أنا إنسان عنده ضمير مهني يا دكتورة وبراعي الناس اللي شغال معاهم بدليل إني بقالي عشرين سنة شغال hitman عارفة قتلت فيهم كام واحد؟ لم ينتظر منها إجابة وتكلم بثقة واضعاً ساقاً فوق الأخرى: قفلتهم إمبارح ٦٢٠ بني آدم ومافيش حد قدر يربط الجرايم دي ببعض ولا يمسك عليا دليل واحد، عارفة ليا يا دكتورة؟ لم يتريث ليسمع إجابتها وأردف شامخَ الرأس: لإني راجل شغوف متقن لعمله.

بدأ التوتر يعلو سطح المشهد ثانية ولكنها حاولت أن تظل ممسكة بزمام الحوار وعقلها يفكر، ما الذي ستفعله بعد تلك الجلسة المريعة.

- نقدر نقول إنك مدمن قتل؟

مط شفتيه وهز رأسه بهدوء معترضاً

- لأ، أنا مش مدمن حاجة. بدليل إن إمبارح لما (سالم) ماحترمش الدور وقتل هو الراجل مكاني تحسس شعره

بأنامله: أنا ماتضايقتش.

كان يكذب.

***

قبلها بأربع وعشرين ساعة

لكم بوق السيارة وقد انتابته نوبة غضب أخرى حتى تطايرت أجزاء من المقود وانقطع صوت البوق ودمت براجم أصابعه الناتئة وهو يصيح

- ده.. كان.. دوري.. أنا.

توقف عن لكم البوق وظل (سالم) ينظر له ببرود دون تعليق.

لهث (هادي) ثم فتح النافذة وأخرج رأسه منها ليتنفس بعض الهواء المنعش علّه يهدأ.

داعبت صبا الليل قسمات وجهه الأرستقراطية ثم التفت لـ(سالم) وحاول أن يعبر له عن مكنونه بهدوء.

- المرة اللي فاتت أنت اللي قتلت (سامح العدوي) فالمفروض المرة دي أنا اللي أقتل (شريف عادل).. أنا ماقطعتش أجازتي وسِبت الساحل باللي فيه عشان أجي هنا أتفرج عليك وأنت بتقتله بالطريقة دي علت نبرته ثانية

واهتاج مجدداً: قتلته بطلقة في دماغه في تلات ثواني.. فين أم المتعة في كدا؟

- (سلطان) بيدفع لنا فلوس عشان نقتل، مش عشان نستمتع.

لكم البوق ثلاثة مرات بغضب صائحاً

- غلط، غلط، غلط، التفت لـ(سالم) مغتاظاً: طول ما أنت بتعمل شغلك من غير متعة ولا شغف عمرك ما هتعرف معنى الحياة وهتفضل جماد ماعندوش مشاعر.

رمقه (سالم) بشيء من الانزعاج فتنهد (هادي) وسحب منديلاً يمسح به يده التي دمت

- (سالم) أنت عارف أنا بحبك قد إيه بس أنت أحياناً بيبقى ليك تصرفات بتفقع مرارتي.

لم يعر (سالم) رأيه اهتماماً وخرج من السيارة أسفل الكوبري ذاته تحت القمر نفسه عائداً إلى منزله بينما أكمل (هادي) قيادته الانتحارية ولا يسيطر عليه سوى الغضب.

انطلق مسعوراً وأشفق على نفسه كظمآن كان على شفا خطوة من أن يستسقي من ماء عذب يروي جوفه وإذ بجبار يسكب المياه أمامه دون أن ينالها، وبناءاً عليه فهو يعلم أنه

لن يُغمض له جفن الليلة دون أن ينهل من البلال ما يُخمد حرارة تعطشه للدماء.

قادته غريزته لذاك الكوبري الحديدي الذي يبدأ وينتهي بأسدين شامخين ويكثر على جانبيه إناثهم اللاتي ينتشرن كطوارق الليل بأيام الأعياد.

كان يعلم أن العيد هو موسم المومسات فلم يتبقَ على الكوبري منهن إلا اثنتان.

واحدة تقف بسترة مقطعة وسروال ضيق يصرخ بتفاصيل مؤخرتها ولكنها كانت بأقصى نهاية الكوبري وهو لم يعد يطيق الانتظار.

وقف أمام الدانية الواقفة بمنتصف الكوبري بعباءة سوداء مفتوحة أسفلها سروال جلدي أحمر وفوقه بلوزة شيفون ذهبية لامعة كالمنار بمنتصف اليم العاتم.

انتظر ثلاث ثواني حتى اقتربت منه ذات مساحيق التجميل الفاقعة وهي تنفخ علكتها الوردية.

فتح لها نافذته فاستندت على السيارة متقصعة وهي تنظر متفحصة إياه وهو يبتسم لها كأمير أوروبي قائلاً

- بونسوار.

- بونسوارين يا برنس نظرت نظرة أخيرة بداخل السيارة: لوحدك؟

هزّ رأسه أي «نعم.

- يبقى ٨٠٠ جنيه.

ابتسم ساخراً وعلق: أركبي.

- ماشي.

اختالت وتمايلت متغنجة أمام السيارة الفارهة وهي تطرقع علكتها ثم ركبت بجواره لتعبئ العربة برائحة عطرها الرخيص المخلوط بعبق البيرة ودخان السجائر والحشيش.

أدار المحرك وهمّ أن ينطلق ولكنها استوقفته

- على فين يا إكسلانس فتحت راحتها ومدت يدها نحوه: الدفع مقدماً.

ضحك ساخراً، فهي لا تعلم أن تلك آخر ثمانِ مئة جنيهٍ ستمسكهن بحياتها.

مد يده بسترته وأخرج أربع ورقات من فئة المئتي جنيه وقال بنبرة مشجعة

- برافو. أهم حاجة في الشغل.. الحرص.

صف «الجيب شروكي» بمرأب سيارات لعمارة تحت الإنشاء على الحيد الثاني من كورنيش المعادي.

نزل سلالم حجرية أوصلته للسان خشبي تذوب نهايته بقلب النيل الذي بدا كالحبر الأسود تحت سماء الليل العاتمة ولا نور سوى لبدر بدا قاصياً عاجزاً وهو يغوص بين سحب الظلام.

نظرت حولها لتفاصيل تلك المنطقة المنعزلة الساكنة وسألته بفضول

- ألا إحنا فين كدا يا برنس؟

- الصبر.

قالها واقفاً عند طرف اللسان يفك لانش أبيض مكتوباً عليه بأحرف ذهبية وبخط فرنسي متشابك (بياف).

ابتسمت متعلكة اللبان وهي ترى (هادي) يركب اللانش الصغير خاصته

- يا حلاوة.. هي المركب الألاجة دي بتاعتك يا باشا؟

- عجباكي؟

- إلا عجباني.. دي تصرع.

نظر لها متفحصاً ملامحها الصارخة أسفل حمرتها الفاقعة وتحسس وجهها فتلطخت أصابعه بالبودرة التي دهنت بها خلقتها.

- ده أنتِ اللي تصرعي.

أمسك يدها برقي وساعدها على صعود اللانش كسيد نبيل ثم أدار المحرك الذي خرَّ كاسراً صمت ليل المعادي فخرجت تموجاته محدثة حلقات تتسع وتتمدد حتى تختفي بسواد النهر.

وصلا لمنزله المنتصب على جزيرة منعزلة على الحيد الآخر من النيل.

كان منزل أوروبي الطراز من طابقين بحديقة خضيرة الحشائش مثمرة الأشجار يعتني بها (هادي) بأوقات فراغه.

حين توقف اللانش داعب أنفيهما عطر النعناع والورود المزروعين بالحديقة ممزوجة برائحة العشب المبتل.

نزلا من اللانش وتوقفا عند اللسان الخشبي الذي يقودهما للمنزل الأبيض.

ربط اللانش وعقده باللسان ثم وقف خلف الباغية التي ذهلت مفتونة بجمال المنزل والحديقة والنيل والليل وكل ما

صاحبهما من أجواء مهدئة للأعصاب.

استشعرت وجوده خلفها فألتفتت له قائلة بانبهار

- إيه ده.. ده أنت عايش في جنة.

دخلت الجنة التي يقطنها الشيطان ووقفت عند رقة وجمال المنزل الزاخم بالأنتيكات والكريستالات والجرامافون الهائل بالزاوية الذي تجانبه مكتبة أسطوانات (إيديت بياف) وصورها وبعض الأخبار الهامة بمسيرتها الفنية الموضوعة في إطارات من الذهب معلقة على الحائط الكلاسيكي اللون.

وضع أسطوانة (إيديت بياف) وأتى صوت البيانو يتبعه تغريد عصفورته الباريسية ببحة يملؤها الشجن وهي تغني "C’est l’amour" فرفع الصوت على آخره واتجه صوب ركن الخمور وانتقى زجاجة من النبيذ الأحمر فتحها وشرب منها مباشرة.

- مش هتشربني حاجة يا جِنتل؟

- مافيش وقت.. تعالا.

سحبها من يدها ونزل بها السلالم حيث القبو المعتم.

فتح الباب وجعلها تتقدمه. أشعل الضوء. خلع سترته

وقميصه. أخرج من جيبه قفازيه الجلديين.

وقفت بائعة الهوى تتأمل المكان البارد الكئيب.

مصمصت شفاهها معترضة

- طول عمري فقرية وحظي نحس.. يعنى أنت يا باشا عايش في الجنة دي كلها وماحبكتش معاك غير في البدروم.

- أنتِ اسمك أيه؟

- (نجلاء).

- طب يا (نجلاء)، أنا مش جايبك هنا عشان تمارسي معايا مهامك كفتاة ليل في موسم الأعياد اتجه صوب الخزانة وفتحها: أنا جايبك عشان أنا اللي أمارس معاكي مهامي كنحات.

قطبت حاجبيها الرفيعين كالحمقاء

- لا مؤاخذة مش مجمعة الكلام.

أخرج فأس حمراء اليد. حادة الرأس. تزن كيلو وربع، وتمتد ذراعها لثمانين سنتيمتر.

داعب الرأس الحديدية العنيفة الزاوية بأصابعه ثم راقص ذراع الفأس بين يديه وفسّر لها بابتسامة جذابة

- أنا عايز أحط راسك عـالرف.

الفصل السابع

حَكَّت سلوان عنقها ثم شحمة أذنها بتوتر.

- إشمعنى أخترت البنت دي بالذات عشان تقتلها؟

رفع (هادي) كتفيه مبتسماً

- عزرائيل اللي حطها في طريقي.. لو واحدة غيرها ماكنتش هعترض.

أرجعت شعرها خلف أذنها ثم حاولت أن تحافظ على الموضوعية بصوتها

- بعد ما قتلتها عملت إيه؟

ابتسم بثقة وغمزها بتحدي

- قلبك جامد؟ هتستحملي تسمعي التفاصيل؟

***

فصل رأسها عن جسدها بفأسه مصفراً على إيقاع البيانو بأغنية (بياف).

اتّبع خطى الفراعنة وطبّق ما درسه عن التشريح بكلية الفنون الجميلة وكذلك ما تعلمه أثناء اللهو بجثث ضحاياه.

أوقف رأسها على الرخامة حتى توقفت عن النزيف ثم

غسلها بالنبيذ والماء.

أنتشل مخها بخطاف رفيع وحاد ثم وضعه بكيس بلاستيكي مضغوط بجوار جثتها.

ثبتّ رأسها على مسمار عريض ينتهي بقاعدة حديدية.

وضع القاعدة بالرأس المثبتة على الرخامة الباردة وغطاها بملح النطرون وتركها حتى يؤدي السر الفرعوني سحره ويسحب منها الرطوبة ويمنعها من التعفن.

أخذ برميلاً وضع به الجثة عديمة الرأس وصبّ فوقها الأسمنت الذائب.

دحرج البرميل للخارج بعد أن جف الأسمنت، ووضع فوقه قالب حجري ثقيل ربطه بالحبل الخشن الذي تبقى من مقتل (شريف عادل) منذ سويعات.

أوقف البرميل عند طرف اللسان ثم ركله فسقط وسحبته شياطين النيل للقاع لتجاور جثث سابقاتها.

عاد لقبوه ترافقه زجاجة النبيذ.

خلع حذاءه وجلس على الكرسي ذي العجل ورفعه لمستوى الرخامة.

بفرشاة، نطر الملح عن رأس ضحيته وعاملها كقالب من

الصلصال لتمثاله الجديد.

قلّب الجص الأبيض السائل بصحنه وبدأ يدهن وجهها وهو يصفر ويردد كلمات (إيديت بياف)

- إنه الحب الذي يجعلنا نحب. إنه الحب الذي يجعلك تحلم. إنه الحب الذي يريدنا أن نحب بعضنا البعض. إنه الحب الذي يجعلك تبكي.

ترك الجص السائل يجف ويتماسك ثم وضعه بالماء البارد ليزداد تماسكاً.

قلّب الأغاني وغيرها وأنهى نصف زجاجة النبيذ.

انتشل القالب ثم وضعه بماكينة سكب الشمع. سكب الشمع الياباني الساخن بالقالب وتركه لساعة.

خرج من القبو وصعد للمطبخ.

أخرج شريحة من اللحم النيء.

تبلها بالملح والفلفل الأسود والروزماري وتركها تتفاعل مع التوابل بينما قشر بعض البطاطس وسلقها ثم تركها لتبرد.

قلب شريحة اللحم المتبلة بالطاسة بينما هرس البطاطس بالكريمة لتراقص رائحة طهوه الذكي حواسه.

أشعل الشمع الفواح الذي ينشر رائحة اللافندر بالصالة ووضعه أمامه ليتناول وجبته على ضوء الشموع.

رص طبق شريحة اللحم متوسطة التسوية كما يحبها ومعها البطاطس المهروسة وكأس النبيذ وتمتع بوجبته وسط الروائح المريحة للأعصاب والإضاءة المهدئة للنظر والمذاق الذي يداعب لسانه والموسيقى والغناء اللذان يطربان نفسه.

أنهى طعامه ثم نظر لساعته، حان وقت إنهاء تمثاله الجديد.

أخذ طبقة الشمع التي يختبأ أسفلها رأس القتيلة.

بسكينه وخطاف عدل بعض التفاصيل وبفرشاته أزال الزوائد ثم حمله صاعداً لغرفته ليعلق الضيفة الجديدة ويضمها لأخواتها.

وقف واضعاً يديه بخصره فخوراً بنفسه مختالاً بموهبته وأنامله الخلاقة.

دخل حمامه لينهي يومه بحمام دافئ خرج منه بروح معنوية مرتفعة ثم ألقى بنفسه تحت الغطاء عارياً كما ولدته أمه وأغلق عينيه والألحان الباريسية تربت على رأسه وتداعب خصله المبتلة حتى نام هادئ البال باسم الثغر.

***

حاولت (سلوان) ألا تحفظ في مخيلتها أياً من التفاصيل التي قصها عليها (هادي) بفخر.

نظرت إلى عينيه فأخافتها ابتسامته الجذابة وجِلسته الأرستقراطية الهادئة.

- إشمعنى (إيديت بياف)؟

تنهد مغرماً

- عشان أنا بحب اللي بعمله، و(روز) علمتني إن الحب ما يبقاش حب لو مش على صوت (إيديت بياف).

- مين (روز)؟

***

القاهرة، 1978

قصيرة القامة، ممتلئة العود، بيضاء البشرة، حمراء الوجنتين، زرقاء العينين، بيضاء الشعر وجميلة القلب، كانت (روز) التي عاشت تسعة عقود.

قسمت المسنة ذات نظارة النظر الذهبية المستديرة علكة المستكة لنصفين أعطت أحدهما للصغير ابن السنوات

الخمس ثم تركته يعلكها بينما أخرجت أسطوانة ضخمة من ظرفها المتهالك ووضعتها بجرامافون متقشر كثير الأعطال بزاوية أسفل الشباك الخشبي الذي فقد بضع درجاته لتتسلل منه أشعة الشمس منعكسة على عيني (هادي) الكحيلة.

قالت بصوتها الأقرب لقلبه من صوت (إيديت بياف)

- (إيديت بياف) ما تتسمعش غير في الجرامافون خرج صوت الأكورديون يصاحبه البيانو ثم الكمان والطاعنة بالعمر تحرك ساقيها ويديها وتدور على مهل: لو سمعتها بتغني في راديو ولا ترانزستور هتلاقيه مش صوتها.. التكونولوجيا بتخرب كل حاجة حلوة.

مدت ذراعها صوب (هادي) الطفل الضئيل الحجم فأمسك يدها ثم دار معها بالغرفة الضيقة ذات ورق الحائط المقشر والجدران المتآكلة والسقف الناشع بالماء والأثاث الخشبي البالي الذي يهتز من طعن عمره.

سألها (هادي) الصغير

- هي بتغني إيه؟

بفرنسية متقنة أجابته

- دي أغنية اسمها La foule، بتحكي عن واحدة ماشية

في الزحمة والدنيا زقتها لحد ما وقعت في حضن حبيبها، بس زي ما الدنيا إديته لها بسرعة انتشلته منها بسرعة.

توقفت (روز) العجوز عن التمايل ثم جلست على فراشها الذي يُصدر أزيزاً مزعجاً ليجاورها الصبي.

داعبت رأسه ثم أطرقت بالأفق وقد لمعت عيناها شجناً

- الزحمة فرقت بينها وبين حبيبها وخدته من حضنها وكل واحد منهم راح في طريق.

لاحظ (هادي) حزن (روز) العزيزة فوضع يده على وجنتها

- أنتِ بتعيطي يا (روز)؟

ابتسمت الحزينة وقالت

- الأغنية دي بتفكرني بـ(أوليفيه).. هو اللي إداني الجرامافون وكل الأسطوانات دي تنهدت: هو اللي عرفني على (إيديت بياف) وعلى السينما وعلى الموسيقى وعلى المسرح وعلى كل حاجة حلوة.

نظرت صوب الشباك حيث شمس الظهيرة الدافئة

- كان صاحب أكبر محل ورد في وسط البلد، خلاني أبطل شغل الشارع وكرمني في بيته.. أينعم ما اتجوزنيش بس إني أبقى رفيقة راجل واحد بيحبني وبيخاف عليا كان

حلم، عمري ما تخيلت إنه ممكن يتحقق التفتت لـ(هادي) ووضّحت له أكثر: ساعتها شغلتنا دي كانت برخصة وورق من الصحة والواحدة مننا ماكانش يهمها حاجة مش شغل الضلمة والسر بتاع دلوقتي بس بردو.. كان نفسي أتجوز وأتستت وأتهنن زي باقي البنات.

- واتجوزتيه يا (روز)؟

ضحكت بمرارة

- مش بقولك الدنيا زي ما بتدي بسرعة بتاخد بسرعة؟ سرَّحت شعره الكثيف بأناملها: الحرب قامت في بلده فاستدعوه وخدوه مني، ماتبقاليش منه غير (إيديت بياف) وأسطوانتها وكل ما أحب أفكر نفسي بإني في يوم من الأيام كنت ست الستات وكان ليا راجل بيحبني، بشغل (بياف) وبغمض عينيا وأسيب صوتها يدخل قلبي بدون استئذان.

أغمضت عينيها متمزجة بصوت (إيديت بياف) المصاحب للأكورديون وهي تردد بفرنسية ممتازة

- جرفنا الحشد الذي فرقنا ودفعنا بعيداً عن بعضنا البعض وأنا أحارب وأقاتل، ولكن صوتي تغطيه ضحكات الآخرين فأخذتُ أبكي من الألم والغضب والحنق والأنين.

قلدها (هادي)، أغمض عينيه مثلها وأخذ يكرر كلمات اللغة

التي كانت مجهولة بالنسبة له آنذاك وهو ينطق بكلمات لا معنى لها ولكن المهم أنه يقلد (روز) فحسب.

***

ابتسم (هادي) لـ(سلوان) متمتماً

- (روز) الله يرحمها كانت البيبي سيتر بتاعتي.

تعجبت (سلوان)

- البيبي سيتر بتاعتك كانت شغالة في الدعارة؟

- ماحدش فينا ماضيه ناصع يا دكتورة.

قلبت (سلوان) الصفحات ودونت بضعة ملاحظات وهي تردف

- يعنى أنت بتقتل على ألحان (إيديت بياف) عشان البيبي سيتر بتاعتك كانت بتحبها؟

هزّ رأسه موافقاً فأردفت

- كنت بتحب (روز) للدرجة دي؟

- ماحبتش ست غيرها.

- أومال ليه بتقتل الستات؟

- أنا مابقتلش الستات في المطلق.

- يعني بتقتل بنات الليل بس؟ بتكرههم أوى كدا؟

- مش كره على قد ما هو احتقار.

- مع إن (روز) كانت واحدة منهم.

تحسس حاجبه متحفظاً وعلق بنبرة صارمة

- (روز) غيرهم.

- إشمعنى؟

- عشان كانت راقية.. ست شيك في كل حاجة.. ذوقها أرستقراطي، عشاقها كانوا من كريمة المجتمع.. تعليمها كان فرنساوي.. طريقة كلامها، أكلها، لبسها.. كل حاجة فيها كانت مختلفة فإزاى أساوي واحدة تحت الكوبري لابسة عباية بترتر وضاربة شعرها أوكسجين وحاطة اتنين كيلو جبس على خلقتها بمدام (روز فرنسيس)؟

- ومامتك كانت شبه مين فيهم؟

ابتسم وحك زاوية فمه ثم قال بنبرة محايدة

- كفاية كلام عني.. إحنا جايين هنا نتكلم عن (سالم).

قالها مربتاً على كتف زميله ولكن (سلوان) لم تبالِ بتعليق (هادي) وأكملت بعزم

- إيه الشئ المشترك بينك وبين (إيديت بياف) يا (هادي)؟

- أنا وهي برج القوس.. عارفة إيه المميز في برج القوس؟ مثل أنه ممسكٌ بقوس وسهم: إنه زي السهم، كل ما ترجعيه وتشديه لورا بينطلق لقدام بسرعة أكبر.. عشان كدا أنا و(إيديت بياف) على الرغم من إن طفولتنا كانت صعبة إلا إننا عندنا إصرار خلانا نوصل لكل أهدافنا غصباً عن أي حد.

- صح.. أنا كمان بحب (إيديت بياف) على فكرة. شوفت الفيلم اللي بيحكي قصة حياتها اللي مثلته الممثلة الفرنساوية دي مش فاكرة اسمها.

أسرع مجيباً كالطالب النجيب

- (ماريون كوتيار).. أنا حضرت بريمير الفيلم في باريس.

- أنا شايفة إنه كان فيلم رائع.. خصوصاً الجزء بتاع طفولتها وحكاية إن والدتها كانت فتاة ليل وأبوها سابها تتربى في بيت دعارة بين البغايا.

قرأ (هادي) ما ترمي إليه الطبيبة فابتسم بخبث وهي تنظر له بتحدٍ وثقة

- نقدر نقول إن الطفولة عنصر مشترك بينك وبين (إيديت بياف)؟ نقدر نقول إن والدتك كانت..

- مومس.

قالها مقاطعاً إياها بفخر فأرجع ظهره وجلس بأريحية واضعاً ساق فوق الأخرى، رافعاً رأسه بشموخ، ناظراً صوب (سالم)

- d'accord.. من الواضح إن (سالم) قرر يجيبنا هنا عشان نعري نفسنا نظر للطبيبة بتحدٍ وثقة: أنا ماعنديش حاجة أتكسف منها.

***

القاهرة، ١٩٧٣

اسمه الحقيقي (ناجي).

هكذا قررت أن تسميه (روز) –مديرة الماخور القائم بوسط البلد منذ عشرينيات القرن الماضي حيث توالت أجيال من المتاجرات بشرفهن والعاهرات المتمرسات اللاتي كانت إحداهن (عشق) والدة (ناجي)– الذي سُمي هكذا لأنه نجا من خمس محاولات لقتله.

الأولى كانت حين اكتشفت (عشق) أنها حامل من زبون تجهل هويته فذهبت لحلاق الحي حتى يخلصها من ذاك العبء.

دخلت دكانه قبيل الفجر. حضر عدته. خلعت ملابسها وفرجت ساقيها على طاولته. أمسك كماشته وإذ بأنفاسه تتصاعد وضربات قلبه تتضاعف ويصاب بأزمة قلبية تنهي عمره.

الثانية حين حاولت (عشق) أن تقفز من فوق سريرها خمس عشرة مرة علّ الجنين يسقط من بين ساقيها ولكنه كان متشبثاً بالحياة ولم يمت.

بالمرة الثالثة حاولت أن تزيد من مستوى الخطورة وألقت بنفسها من فوق السلم فكسرت ساقها وظلت شهراً ملقاة على ظهرها لا تتحرك.. ومازال الجنين ينبض برحمها.

بالرابعة، طلبت من إحدى زبائنها الساديين أن يركل ويلكم بطنها وأن يلجها بعنف ولكن تلك النطفة كانت أعند وأقوى مما تخيلت فلم يهجر رحمها.

بالمرة الخامسة والأخيرة كانت بعد أن وضعت الرضيع وحتى قبل أن تمسح عرق الولادة عن جبينها أو تنظف نفسها من الدماء والمخاض، ناولتها (روز) طفلها علّ رؤيتها له تدب غريزة الأمومة بقلبها ولكن من قال أن جميعهن خلقن ليكن أمهات؟

انتشلت الرضيع من يدىّ مديرتها وأطبقت على أنفاسه

بوسادتها المتسخة.

صفعتها (روز) مصدومة وحملت الصغير الباكي الذي كان أول ما فتح عليه عينيه بهذه الحياة هو الاغتيال والنبذ.

- إياكي تهوبي ناحيته تاني.. الولد ده من النهارده ابني أنا، فاهمة؟

قررت أوروبية الملامح المقبلة على الثمانين من عمرها آنذاك أن تتخذ (ناجي) ابناً لها فقد حرمها رحمها الجدب من نعمة الأمومة.

كان يبيت على سريرها ملتصقاً بالحائط البارد ذي الرائحة العطنة ليظل محشوراً ليلاً بين ترهلات (روز) العجوز والجدار المشروخ ولكنه لم يكن يرى سوى الجرامافون العتيق المقابل للفراش وكان يتأمله ليلاً نهاراً متخيلاً أنه سجناً تعيش بداخله تلك السيدة الفرنسية التي يطرب صوتها مسمع شريكته بالغرفة وأنها تغني بذاك الصوت الحزين طالبة العون علّ أحدهم يلتفت لحالها ويحررها من ذاك السجن النحاسي الصدئ.

كان ككل ليلة يصاب بالأرق ويعجز عن النوم.

ليس لأنه كائن ينشط ليلاً كالخفاش، بل لأن حاله كان كحال المومسات اللاتي يقطنّ معه، ينشطن ليلاً ويخملن

نهاراً.

كيف له أن يسمع كل هذه الضحكات والقهقهات والصرخات والتأوهات ويظل نائماً؟

كان يخرج على أطراف أصابعه الهزيلة ببيجامته المتهدلة التي أذابها الغسيل حتى فقدت ألوانها ومعالمها ويسير بالرواق بين الغرف بخفة الريشة حتى يقف عند غرفة أمه.. دائماً يختار غرفة أمه حيث يخرج منها صوت يختلف تماماً عن الأصوات الزاحفة من أسفل أبواب باقي الحجرات.

بكل غرفة، يسمع ضحكات امرأة تئن تعتليها صيحات ذكورية تشبه خفخفة الضباع إلا أن ما يصدر من غرفة (عشق) هو صوت لسعات مدوية وتألم الرجال وصراخهم.

كان يشب على قدميه ليَطُل مقبض الباب خلسة ثم يفتحه بما يكفي ليرى بعينيه الداكنتين أمه واقفة بحزام تارة وبسوط تارة أخرى تجلد أحد زبائنها من المازوخيين الذين يخضعون لها ويتلذذون بعذابهم الجنسي.

كانت (عشق) والدة (ناجي) هي السيدة السادية بذلك الماخور وقد ذاع صيتها بمجتمع الذكور الباحثين عن الألم الجسدي المبرح للوصول لذروتهم الجنسية فلم تكن تخلو حجرتها ولا يبرد فراشها منهم.

وهناك يقف (ناجي)، صبي بالثالثة يشاهد لذة العنف ومتعة تعذيب الآخرين وخضوع أعتى الرجال أمام امرأة تجلدهم بسوط رنان وهي تصيح بهم آمرة

- قاوم!.

وكلما صرخ زبونها وتألم أكثر طالباً منها الرحمة، وصلت لنشوة أكبر.

ومن هنا تعلم (ناجي) من (عشق) عشق السيادة والسيطرة على الآخر ومشاهدته يبذل محاولات واهنة لتخليص نفسه من الألم، وأهم ما اكتسبه منها هو أنه مهما ترجتك ضحيتك، لا ترحمها.

ظل (ناجي) يشاهد مغامرات (عشق) الجنسية وتجاربها وقصصها السادية عاضاً على شفاهه، متصبباً عرقاً، ضاغطاً على ضروسه متمنياً أن يشعر بالقوى التي تشعر بها ولكن على من سيمارس سيادته وهو لا يسلم من أذية أبناء الحي المنادين إياه بـابن العاهرة فيتجمعون حوله ويلقونه بالحجارة دون أن يمنحوه حتى فرصة المقاومة التي تمنحها عشق لزبائنها.

فلم يكن لديه سوى هرر الطريق وجراء الكلاب والفئران القارضة لصناديق الكرتون أسفل سريره ليمارس عليها

جينات السادية التي ورثها عن أمه.

بعد كل جريمة يرتكبها بحق تلك الأرواح البريئة، كان يشكل الحيوان الذي عذب روحه بالصلصال الذي تجلبه له (روز)، فكانت ترى منحوتاته متقنة بالنسبة لصبي هاوٍ بالسابعة فتربت على كتفه مشجعة إياه

- أنت هتطلع نحات عظيم زي (مايكل أنجلو).

فكان يبتسم بسعادة ويقتل أكثر لينحت أكثر وترضى عنه (روز) التي تجمع تماثيله وتضعها على تسريحتها وتتباه بها أمام أمه السادية التي لا تبالي.

ظل يطبق ما يشاهده من أمه على الحيوانات حتى أتم الثامنة من عمره ووجد (عشق) ذات الأعين النارية والعود المفرود والكتفين الشديدين قد ذبلت.

فقدت وزنها، تطبق وجهها المستدير، اصفرّت بشرتها الفاتحة، انطفأ وهج عينيها الغامقة وارتعشت قبضتها التي كانت تُحكم على السوط والحزام والعصا.

فرغت غرفتها من الزبائن وصار سريرها واسعاً عليها وأصبحت تتقيأ أكثر مما تتنفس.

ظلت تتآكل وتنطفأ لعام.

حين أتم (ناجي) عامه التاسع، ماتت عشق فسأل (روز) عن سبب موتها فأجابته

- عشان كانت بتشرب سجاير.. السجاير بتدمر الصحة يا (ناجي)، إوعى تدخن زيها.

هذا كان الرد الوحيد الذي استطاعت أن تُسكِت به فضول وتساؤلات الصغير عن أمه ولكنه حين كبر فطن أن والدته العاهرة ماتت بالإيدز.

لم يخلف موتها فرقاً كبيراً، ظل ينام محشوراً بين (روز) والحائط وظل يعذب الحيوانات ويراقب باقي المومسات اللاتي لم تجلبن له متعة تساوى ربع مشاهدته لأمه معذبة المازوخ.

ظل يسمع (إيديت بياف) مع (روز) وهي تترجم له أغانيها وتحفظه كلماتها حتى قررت بيوم أن تأخذه بين ذراعيها في ليلة اكتمل بها القمر.

شغلت أغنية La vie en rose وأخذت تغنيها له فكرر خلفها الكلمات بصوت عذب.

تنهدت (روز) ثم همست له

- أنت روحك روح فنان يا (ناجي).. إوعدني إنك هتطلع

أرتيست المجتمع كله يتكلم عنه.

أجابها ذو العاشرة من عمره بابتسامة مطمئنة

- أوعدك.

قبلت جبينه ثم تنفست نفسها الأخير وصعدت روحها للأعلى.

قبل أن تدفن بالصباح، كانت إحدى بائعات الهوى الساكنات ببيت الدعارة قد أخذت (ناجي) من يده وتركته أمام باب دار للأيتام بعد أن ماتت الإنسان الوحيدة التي كانت تكترث لأمره.

***

سعلت (سلوان) لتصفي حلقها ثم قبضت على قلمها مركزة على ملامح (هادي) الذي لم يبدِ أي نوع من الخزي أو العار تجاه ماضيه، بل كان محافظاً على ابتسامته الساحرة ونظراته الثابتة.

- اتعرضت لأي اعتداء جنسي في العشر سنين اللي عيشتهم في البيت ده يا (هادي)؟

أنزل ساقه عن الأخرى ثم ضحك بشدة حاكاً رأسه

- يا دكتورة أنا كنت ولد صغير، مين اللي هيعتدي عليا؟

- نسبة مرضى البيدوفيليا والشذوذ الجنسي مش قليلة.

- وإيه اللي هيجيب راجل شاذ جنسياً بتاع عيال لبيت دعارة؟

- يعنى عمرك ما اتعرضت لأذى جنسي؟

- في بيت (روز)، ماكانش فيه رجالة بتتأذي غير اللي بينزلوا تحت كرباج (عشق).

قالها ثم ضحك ساخراً ظاناً أنه قال شيئاً طريفاً ولكن لم يتجاوب مع فكاهته أياً من (سلوان) أو (سالم).

- طب ووالدتك؟

- ما اعتدتش عليا جنسياً هي كمان.

قالها متهكماً.

- قصدي ماكانتش بتعتدي عليك بالضرب أو بتإذيك؟

انكمشت ابتسامته وحكّ طرف أنفه ثم أعاد ساقاً فوق الأخرى وقال بجدية

- هو في أم فى مجتمعنا ده ما بتأذيش أولادها يا دكتورة؟

- آه، فيه.

قالها (سالم) متحفظاً وهنا أدركت (سلوان) أن تلك الجلسة بدأت بدخول ذاك المريض الرتيب الهيئة والممل الخطاب ولا تدور حول صاحب الكاريزما معذب الحيوانات وسفاح العاهرات.

التفتت (سلوان) ل(سالم) وتركت له مجالاً ليكمل

- (حبيبة) مراتي أم كويسة و.. تردد لثوانٍ ولكنه أردف بعدها: وأمي.. أمي كانت ملاك.

الفصل الثامن

الفيوم،١٩٩٤

أسند (سالم) ذو الحادية عشرة من عمره، ظهره على الحائط الأيسر ببهو معبد ديونيسيوس الذي علمته أمه أنه يسمى قصر قارون وأنه بقايا مُلك (قارون) النمرود الذي خسف به ربه أرضه وجعل مكانه بحيرة لتكن شاهداً على معصيته وطغيانه وعبرة للخلق من بعده.

هكذا روت له أمه الحكاية على الرغم من بُعدها عن الحقيقة والواقع والتاريخ إلا أنه بذاك الوقت كان يجهل ما سبق ولم يكن ليمرر أية معلومة تنطق بها أمه على عقله الصغير بل يحفظها بقلبه ويرددها بإيمان دامغ.

رفع رأسه صوب الحائط المستطيلي التصميم وانتظر بضع دقائق.

يعلم أن جلوسه لأربع ساعات متواصلة لن يذهب سُدى وستحدث المعجزة الفرعونية خلال دقائق كما تحدث كل عام بدقة بلا تأخير ولا تعطيل بالحادي والعشرين من ديسمبر.

وقد كان.

أدخلت الشمس -أو كما ناداها أجداده الأولون (رع)- ذراعها وانسابت من النافذة المعلقة منذ القرن الثالث قبل الميلاد، وعبرت من خلال السقف الذي صبغه الدهر بالأسود واستمرت في المرور قاطعة الأمتار حتى وصلت واستقرت عند قدس الأقداس ولمست بأصابعها مومياء ما اتخذه أسلافه رباً للفيوم، الإله التمساح (سوبك).

شاهد السحر وغمر ضوء الشمس قلبه دفئاً فابتسم ونهض ممتناً لكل ذرة فكر بذلها المصريون الأولون في التخطيط لتحقيق ظاهرة التعامد تلك.

مشى على الجسر الجيري المعلق فوق الدور السفلي من القصر وأمسك بالدرابزين الخشبي واصلاً لقدس الأقداس حيث سنا شعاع (رع) يوضح المكان الذي كان معتماً منذ برهة.

هنا، شبّ على أصابع قدميه ومد يده ليشعر بذاك الدفء السماوي الذي تسلل لروحه البريئة.

خرج (سالم) بعد أن تشبع بالسكينة حين تمددت روح (رع) بالمكان وأنزلت نورها على مومياء (سوبك).

تمشى على الرمال وامتزجت زرقة السماء بحمرة الشفق بعد أن ودعتها شمس المغيب وهنا أدرك (سالم) كم تأخر

على المنزل.

تخللت جسده نسمات ديسمبر محملة بيود بحيرة قارون المحيطة بالقصر.

وقف الصغير عند طرف البحيرة مقترباً من عم (رجب) الصياد الذي يعبر به كل صباح وظهيرة من ذاك الحيد وحتى الشاطئ المقابل حيث يقبع منزل (سالم) بين الغيطان الخضيرة.

ركب القارب السماوى الصغير ذا الشراع الأبيض الكبير ليرحب به عم (رجب) ذو الجلد البائس والبشرة الخمرية التي قبلتها الشمس والأعين التي طابق لونها زرقة اليم.

- الله!.. أنت كنت فين كل ده يا (سالم)، أنا قلت خدتها بري.

- كنت بشوف التعامد.

- تعامد إيه وكلام فارغ إيه، شوف مذاكرتك أولى.

قالها الصياد البسيط مجدفاً مركبه المحلق فوق سطح البحيرة البريئة من كل ما ألصق بها من أكاذيب أن بقاعها تقبع جثة (قارون) النمرود.

تعلق (سالم) بالسماء مراقباً رحيل (رع) وقدوم (خونسو) لتتبدل الحمرة بالزرقة الداكنة وليحل السكون إلا من صوت

هدير الموج وهفيف الريح ونداء الكروان وحفيف النخيل المحيط بالبحيرة.

ظن الفتى أن القمر يتبعه، وأن (خونسو) يراقبه، فقد أخبرته أمه أنه مميز للدرجة التي تجعل القمر يشعر بالفضول الشديد تجاه لياليه فيترك الدنيا عتمةً ليمشي خلفه ويتبع خطاه وحده.

- يا ابني لازم تبطل سرحان وتوهان في ملكوت ربنا كدا.. الحياة بتطحن المسهمين اللي زيك.

جدف وشاهد الصبي المتأمل القمر والنجوم المتناثرة حوله ثم أردف

- أنت ناوي تطلع إيه؟

التفت له صاحب نظارة النظر المتماسكة بسبب اللصق الشفاف الملفوف حولها ثم هز كتفيه

- مش عارف.

- طول ما أنت مش عارف هتفضل زي كيس الزبالة المرمي في البحيرة، موجة تجيبه وموجة توديه إنما هو أصدر صوت يشبع طرقعة البومب: ولا فاهم حاجة ولا هيبقى شيء عليه القيمة.. هيفضل كيس لا ومش أي كيس.. كيس

زبالة تايه.

صمت (رجب) وأكمل تجديفه حتى كاد يقترب من الشط وهنا قرر أن يستأنف نصيحته

- ماتطلعش زي باقي الخلق اللي هنا، كون أي حاجة غير نحات تماثيل فخار ولا صانع أسبتة خوص ولا صياد في البحيرة.. خليك دكتور، مهندس، ظابط إن شالله تكون حرامي المهم تكون مختلف يا (سالم).

رسى (رجب) الثرثار بقاربه فنهض الولد الصامت وقفز من على المركب وترجل فوق الشاطئ حيث الرمال المزدانة بالقواقع التي تلمع أسفل ضي القمر.

أحكم تعليق حقيبته القماشية التي رسمت له أمه عليها مشهد نوبي لنيل وقارب شراعي كبير وزهور وشمس دافئة.

ترجل هادئ الروح، سكين الفؤاد إلى أن وصل للجانب الريفي من القرية حيث البرسيم الممتد حتى الطريق الأسفلتي السريع الذي تمر عليه الشاحنات ذات الأبواق المرعبة والميكروباصات والأوتوبيسات المسرعة في طريقها للقاهرة وباقي المحافظات.

وهناك، وسط الخضرة، أسفل عتمة الفضاء الفسيح حيث لا جار ولا خليل، يقبع منزل أصفر باهت من طابقين وسطح

عارٍ لا سور ولا مسند له.

لطالما وقف الدار بمفرده وكأنه زرع شيطاني ظهر من حيث لا تدري له مصدراً أو أساساً أو قاطناً، فيُهيأ لك كبيت مهجور ما من معمرٍ له سوى مارد خبيث سيلتهم لبُك إذا وطأت باب مسكنه.. وجزءٌ من ذاك الوصف الفانتازي كان حقيقياً.

فتح (سالم) الباب الخشبي الذي دهنته والدته بالبرتقالي بالأمس ليبدو أكثر بهجة ولكنها لم تكن تحسب أن تغيير الألوان واستخدام موهبتها الفنية ليست سوى قشرة سينزعها صياح ذاك المتهيج الذي يصرخ بوجهها بعنف

- والأسبتة دي مين اللي هيجدلها؟ أمي؟

- دي مرة.. مرة على نفسه يحس إنه طفل مش شايب على كتافه هموم الدنيا.

فطن الفتى لفحوى الشجار ولكنه دخل على أي حال ليتابع العراك الثائر بين أمه (حليمة) وأبيه (عبد الرحيم).

في اللحظة التي لمحه بها (عبد الرحيم)، وثب نحوه وصفعه صفعة أطارت نظارة نظره عن وجهه النحيل.

- كنت فين يا ابن الكلب؟

صرخت الأم وقفزت حيث ابنها وحاولت أن تداوي ألمه بعناق دافئ وهي تصيح بزوجها

- إلهي إيدك تتشل.

انتشل الصغير الذي لم يُصدر أية ردة فعل من بين ذراعي أمه وسأله

- كنت فين كل ده؟ الشغل في السوق بيخلص الساعة تلاتة ودلوقتي الساعة ستة.. كنت سايب الشغل وبتلعب كورة مع صحابك الصيع؟

أجابه بثبات ذكوري لا يليق بتاريخ ميلاده

- لأ.

- وكمان بتكدب؟

صفعه ثانية ثم أطاح المفترس برأسه صوب الحائط فسقط الصغير.. ولكنه لم يبكِ.

- ياللهوي! صرخت (حليمة) بحرقة على ابنها: سيبه.

هرعت صوب سكين الفخار ورفعته على زوجها الذي جذبته من جلبابه بكل ما أتيت من قوة كي يرحم صغيرها وهي تصرخ

- أقسم بربي لو مديت إيدك على ابني تاني ما هسيب فيك حتة سليمة.

ترك (عبد الرحيم) ابنه الذي نزفت جبينه والتفتَ لزوجته المتمردة.

نظر لها بعينيه القاسيتين ثم ابتسم ساخراً

- بترفعي السكينة عليا يا (حليمة)؟ اقترب منها فارداً كتفيه: طب ما توريني.. اغرسي السكين في جتتي كدا ارتعشت يدها من شدة ثباته ونظرة التحدي بمقلتيه: يلا!

أخفق قلبها وارتخت أوصالها فـ(حليمة) كانت بالفعل حليمة الفؤاد.

جذب منها السكين فسلمته إياه خاضعة.

لطمها بعنف فتكومت بجوار ولدها ليدوي طنين بأذنها من وطأة كفه الخشن وإذ بـ(عبد الرحيم) يرفع سبابته ويهمس بصوت أقرب لفحيح الحية

- اللي يهدد يبقى قد تهديده واللي يعمل حاجة يستحمل نتيجتها، يا (حليمة).

بكت ولكنها حاولت أن تكتم أنينها بينما صاح صوب ابنه آمراً

- ساعة زمن أرجع ألاقي الأسبتة كلها خلصانة يا ابن الصرمة يا بتاع الأصنام.

في اللحظة التي خرج فيها عانقت (حليمة) ابن رحمها بقوة وهي تبكي مرتعشة هامسة لربها

- يا رب خده، خده وخلصنا منه.

رددتها وهي تعصر صغيرها الجامد التعبير بين ذراعيها وتضم رأسه بين ضلوعه وكأنها هي التي بحاجة إلى أن تشعر بالأمان في حضنه وليس العكس.

ربتت على رأسه الحليق وظلت تهمس بأذنه

- حقك عليا.. حقك عليا يا ابني.

لم يكن (سالم) يبكي، فقد حفظه أبيه أن ذلك ليس من شيم الرجال كما علمه أن الرجل لا يتألم، لا يصرخ، لا يعبر، لا يتأثر.. إن الرجل لشيء مصمت لا صوت ولا حركة ولا مشاعر ولا رحمة لديه تماماً كتلك التماثيل التي تنحتها أمه بأصابعها ويبيعها هو بالسوق.

وهكذا، لم يفعل شيئاً سوى أن وضع رأسه الجريح على صدرها وأنصت لدقات قلبها وهو يتأمل ملامحها التي اتخذها مرجعاً لتحديد معايير جمال الأنثى:

نوبية السمار، حريرية الشعر الأسود كالليل واللامع كالقمر والمسدلة جدائله على كتفيها ليصير أخف ما تحمله على منكبيها بخلاف الهموم الثقال التي ألقاها الدهر على عاتقيها.

فقصة تلك الحسناء، لمياء الشفاه، فرعونية العيون أنها كانت أسوانية الجذر.

ترعرعت (حليمة) بمنزل أزرق على طرف النيل، ينتهي بسلمتين صوب النهر ويتمايل بجواره قارب سماوي خشبي تهدهده أمواج النهر مع كل تيار هواء.

اعتادت الصغيرة أن تجدل شعرها الثقيل على هاتين الدرجتين، مدلدلة ساقيها الملفوفتين فوق سطح الماء ثم تنهض لترسم مع أبيها على جدران المنزل بالأحمر والأخضر والأصفر وبعدها تجلس معه على عجلة الفخار فتصنع معه أواني وطواجن وقلل من الطمي النوبي يشكلها بأنامله ثم ينقش عليها بخطافه ثم يضعها بفرنه ويتركها تتماسك حتى يشتد عودها ثم يخرجها.

يركب قاربه مع صغيرته الموهوبة بالفطرة وينتقل بها من داره للسوق حيث يبيع منتجاته للأجانب السائرين في أفواج يقودها مرشد يروي لهم عن (طيبة) موطن الآلهة ومولد الملوك ومدفن الطغاة.

كانت ابنة الشمس الصغيرة تصغي وتدون بذاكرتها كل معلومة تسمعها ثم تضيف عليها جزءاً من خيالها الخصب فتراودها أحلام اليقظة وهي ترى نفسها مرشدة سياحية تهدي العجم لجمال موطنها وتنشر سحر أساطير أجدادها بينهم ولكن كضوء شفق باغتته ظلمة الليل، تلاشى حلمها.

كانت بالثامنة عشر حين أتى سائق أوتوبيس سياحي للسوق يشتري منها الفخار ثم غازل سمارها وكحلها وحمرة خجلها فدق له قلبها.

استمرت زيارات ذاك الفيومي القصير ذي الأعين الخضراء والبشرة الحنطية لأشهر حتى قرر أن يتزوج صبية الفخار ذات الجدائل.

فاتحت أبيها طويل القامة، شامخ الرأس فلم تلقَ سوى الصياح والسباب واللعن.

كيف لنوبية أن تتزوج من غير نوبي؟

كيف للصبية أن ترفض ابن عمها الأربعيني وترضى برجل لا يحمل من سمرة الشمس أو طمي النيل شيئاً؟

هددها والدها بالخزي والعار ولكن حليمة القلب، كانت حرة الروح.

اتبعت فؤادها وهربت مع (عبد الرحيم) الفيومي لينتهي بها الأمر بذاك المنزل الباهت القاصي بأطراف الريف المعتم أسفل سطوة هذا الطاغية ولا أهل ينصفونها ولا جيران يسمعونها.

مسحت (حليمة) النوبية دموعها التي لا تنشف ولا تجف منذ أن اتخذت (عبد الرحيم) زوجاً، ثم ذهبت بـ(سالم) الساكت إلى المرحاض حيث غسلت له جرحه وكبسته بالبن وربطت رأسه بالشاش وقررت أن تأخذه معها لورشة الفخار خاصتها بالدار وبدأت تمارس العادة الأقرب لقلب نجلها.. عمل تمثال من الفخار.

آنذاك، كان يظن أمه إلهة؛ فحين قال معلم التربية الدينية لهم بالصف الأول الابتدائي أن الله يخلق الإنسان من صلصال قال له (سالم) كذلك تفعل أمه، فهي تصنع تماثيل لحيوانات وأناس من الفخار.

ضربه بالخرزانة بفناء المدرسة ونعته بالمشرك.. كلمة لم تكن بمعجم الصغير الحالم ولكنها راقت لزملائه بالفصل وظلوا يدعونه به.

ولكن هذا لم يغير نظرته لأمه، فما كانت لرؤيته لها وهي تدير العجلة بقدمها الصغيرة ثم تبدأ بأناملها التي باركها الخالق بنعمة الدقة والتشكيل أن تخلق تمثالاً مفصل

الملامح، لتفسير آخر عنده سوى أنها إلهة.

جلس على الحصيرة اليابسة متربع القرفصاء ململماً أدواته حوله.

فرد جريد نخل البلح البلدي الطراح، ونصب بجواره ما يُطلق عليه «سلاح الجريد وهو سيف حاد معقوف النصل ليجانبه» «اللقط الذي يثقب به من الجريد الأخضر» «مخ وتوني وطوالي ليصنع منها قفصاً بهيج الألوان»

همّ أن يبدأ في تقطيع الجريد لشرائط وأن يدق عليه بمطرقته ولكن (حليمة) أستوقفته

- رص الحاجة وسيبها، أنا هخلص التمثال ده وأشتغل الأسبتة.

- بس أنا عايز أجدلهم.

- تجدلهم إيه بس وتمقق عينك فيهم وأنت تعبان كدا؟

- أنا كويس.

ابتسمت له (حليمة) برضا ثم قالت له بحنان

- تعرف يا (سالم)، أنا ماشوفت في حياتي راجل في قوتك.. أنت سيد الرجال يا ولدي.

نهضت خصيصاً لتقبل رأسه متحاشية أن تلطخه بالفخار الذي تخضبت به يداها.

بدأ تقطيع الجريد طولياً ودق عليه بمطرقته ثم همّ أن يجدله غيبياً فهو يحفظ عقده عن ظهر قلب ولكن سرحت عيناه مراقباً من ثُبتت الجنة تحت أقدامها عن كثب وهي تصنع جسداً لذكر مفتول العضلات وتحادثه بصوتها الحنون.

- عارف القصر اللي كنت قاعد فيه النهاردة ده فيه الموميا بتاعت مين؟

- (سوبك) التمساح.

- تعرف.. (سوبك) ده كان إله البحيرات والفيوم.. لما (سِت) حبس أخوه (أوزوريس) في التابوت ورماه في النيل، (سوبك) حماه ودل (إيزيس) على مكانه.. (إيزيس) فضلت تعيط وتدعي فربنا سمع لها ونفخ الروح تاني في جوزها (أوزوريس). الخبر وصل لـ(سِت) الملعون قام دوّر عليهم لحد مالقاهم.. عارف عمل فيه إيه؟

كان (سالم) يحفظ القصة بحذافيرها، ولكنه كان يدرك أن سرد تلك الأساطير هو الشيء الوحيد الذي يجلب السعادة لقلب أمه فكان يتركها دون أن يقاطعها ويتظاهر بأنه يسمع الحكاية للمرة الأولى فقط ليرى تعابير وجهها وهي تبتسم ثم تقطب حاجبيها ثم يعلو صوتها ثم تهمس ثم تحرك يديها في

الهواء حسب إيقاع القصة.

- عمل فيه أيه؟

- جاب سيفه وقطع جتة (أوزوريس) 42 حتة وحط كل حتة في إقليم.. افتكر إنه لما قطعه انتصر عليه.. ما كانش يعرف إن (إيزيس) حامل في (حورس) اللي هيكبر ويتربى على الحرب والقوة والشجاعة.. عارف مين اللي حماه ورباه على الحرب وإدى له القوة؟

كان يعلم من.

- مين؟

- (سوبك) التمساح.. خبى (حورس) هنا في الفيوم وخلاه قوي وشجاع وقلبه ميت ما يخافش.. وصار (حورس) الأمير المنتقم اللي جاب حق أمه وأبوه ورجع لبلده النصر لما قتل (سِت).

صَمتَ الصغير مفكراً بينما انتهت أمه من تشكيل جسد التمثال المشدود وبدأت تشكل رأسه المطاولة وتنقش تفاصيله بإبرتها.

سألها (سالم)

- وأمه فرحت بيه لما قتل عمه؟

تنهدت (حليمة) ثم نظرت لصغيرها المسكين الذي مازالت علامات أصابع أبيه الغاشمة على وجنته

- هو انتصر بس خسر عينه في الحرب.. الانتقام بيعدمك البصر والبصيرة يا (سالم).

لم يفهم فحوى مقولتها فأعاد صياغة سؤاله

- يعني أمه اتبسطت عشان انتقم لها ولأبوه؟

- أمه فرحت عشان خد لها بتارها بس اتقهرت عليه عشان خسر أهم حاجة فيه.. بصره.

أرته تحفتها الجديدة.

كان تمثالاً لرجل مفتول العضلات له ذيل مدبب الطرف ورأس تمساح يرتدي تاج عليه قرص الشمس.

ابتسم وهي تريه التمثال قبل أن تضعه بالفرن

- إيه رأيك؟

- جميل.. هتبيعيه بكام؟

طبعت قبلات كبيرة وكثيرة على وجنتيه ثم كفه ثم رأسه

- ده ليك أنت يا قلب أمك، عشان تفضل قوي وشجاع زي (سوبك).

وضعت التمثال بالفرن بينما دخل (عبد الرحيم) محملاً بعبق الحشيش ودخان السجائر فتعكر صفو الجو العائلي الدافئ حين صاح

- فين الأسبتة يا ابن (حليمة)؟

أخذت (حليمة) الأسبتة من ابنها السريع التجديل الذي أنهى عدد لا بأس به منها أثناء حديثهما القصير وألقتهم صوبه بحنق.

قلب نظره بهم ثم ألقاهم بالزاوية وصاح بها

- فين إيراد الفرشة بتاع النهاردة؟

لم تجبه ممصمصة شفاهها وعادت للجلوس على عجلتها لتبدأ عمل الطواجن وهي تحادث (سالم) بحب

- يلا يا حبيبي خش نام دلوقتي عشان تصحى لصلاة العيد.

نهض الهزيل واتجه لغرفته بينما التفتت (حليمة) ل(عبد الرحيم) فور أن اختفى (سالم) عن أنظارهم فهمست مستشاطة غضباً.

- بقى يا ناقص، مورم لنا صداغنا في ليلة مباركة زي دي وبدل ما تمد إيديك في جلبابك تديني وتدي وحيدك العيدية

وتكسينا بلبس العيد وتملا لنا التلاجة لحمة، بتقولي هاتي؟

زفر خائفاً على فقدان سطله الذي رسمه حشيشه ومخدراته وبيرته

- ما هو مش هيبقى نكد قبل وبعد الدماغ.. فين الإيراد؟

- جبت بيه هِدمة وجزمة كاوتش لابنك اللي هدومه دابت وتلفت وحتتين لحمة عشان تطفحهم بعد الصلاة.

- والباقي؟

- باقي إيه يا حسرة؟ هو أنا حد بيشتري مني بسبب سمعتك العطرة.

- ما تبطلي كدب يا مَرَة، ماحدش في السوق بيربح قدك.. ده أنتِ أشهر اسم في قرية تونس كُمل.

زفرت (حليمة) وانكفت على العجلة مستأنفة عملها متمتمة

- أستغفر الله العظيم.

***

لِمَ لا ينام ليلاً كباقي الأطفال؟

لِمَ تعامله وظائفه الحيوية كخفاش معلق بالسقف المتصدع فيرى الأمور منقلبة رأساً على عقب؟

استلقى بجوار أمه التي غطت في النوم حتى شخرت.

لِمَ قد تشخر إلهة حسناء مثلها ولِمَ تتمكن خشونة الجلد من يديها بهذا الشكل ولِمَ تشهد كل هذا الشقاء؟

ظل يفكر الصغير المصاب بالأرق، لِمَ لم يُخلق إلهاً كالذين تتغنى بهم أمه؟

لِمَ لم يصطفِه الله ليحيا بعصر القدماء حيث العدل.. بالنسبة له، كان العدل خرافة أكثر مبالغة من حكايات (رع) و(خونسو) و(سوبك) و(قارون) و(حورس).

فهو يؤمن أنه إذا حدّق بالبدر مطولاً سينطق (خونسو) وإذا تأمل الشمس سيكلمه (رع) وإذا ظل ينادي باسم (توتو) سينتهي أرقه ولكنه لم يؤمن مطلقاً بأنه إذا تشبث بالأمل سيحُلّ العدل.. ما القسط بلا قوة كالتي وهبها (سوبك) لـ(حورس) حتى يحقق العدالة ويثأر لروح أبيه ويظفر بحكمه؟

تساءل (سالم).. لِمَ يؤثر الصمت والخضوع والخنوع؟

لِمَ لا ينتقم كما ثأر (حورس) من (سِت)؟

بعد تحديق مطول بوجه (خونسو)، فطِنَ إلى الإجابة.. ما من مقوي له كما قوى (سوبك) (حورس).. ما من أب روحي..

ما من آلهة تهبه قواها السحرية.. ما من ملك يسعى خلفه.. ما من شيء يستحق أن يتحمل خسارة عينه من أجله.. لا شئ يكتسبه أو يخسره.. ما بحياته الصغيرة سوى الخواء.. ولكن رغبة القصاص كثيراً ما تداعب خلده.

فتحت أمه ضئيلة الحجم عينيها ظمأة.

مدت يدها صوب القلة الفخارية الموضوعة عند الشباك المفتوح حيث يطل القمر عليهما.

شربت وتناثرت بضعة قطرات على ملبسها المهترئ ثم تفقدت ابنها قبل أن تعود لنومها.

- بردو مانمتش؟

هز رأسه بلا، فنصحته بنبرة نعسة

- نادي على (توتو) تلات مرات.

- ناديته بس هو مش سامعني.

فركت عينيها ثم مدت ذراعها صوب عنقه حتى يرسي رأسه عليها.

ألقت رأسها على الوسادة ثم وضعت راحتها الدافئة على رأسه متجنبة أن تلامس جرحه الحديث ثم بدأت تهمس في أذنه بآية الكرسي كي تسكن أفكاره وتسكت الأصوات

الصائحة برأسه ويطمئن فؤاده وتغفو عينيه.

تثاءب..ارتخى.. نام.. مرت سويعات.. بزخ صياحاً.

تأهبت أوصال (سالم) ورحل عنه (توتو).

- عليا الطلاق لو ما طلعتي بالإيراد لأكون دافنك في التو.

انتفض صاحب الأحد عشر عاماً ورفع رأسه عن وسادته الدافئة وتحول خمل النوم لدقات قلب متصارعة تلاكم صدره.

وجد أمه ملقاة بجوراه على الفراش يعتليها (عبد الرحيم) متكئاً علي كفيها بركبتيه منقضاً على عنقها بكفيه وهو يعتصرها بأصابعه.

- يا الفلوس يا روحك يا (حليمة).

وثب (سالم) صوب أمه وحاول بيديه اللاتي يبسهما تجديل الجريد أن يرفع ذاك الغاشم عن والدته التي كاد الأوكسجين أن يهرب من رئتيها ولكنها فور أن لمحت صغيرها فزعاً، ضحكت.

لم تبتسم ولم تلتفت له ببشاشة بل ضحكت وقهقهت بعد أن كانت تصارع الموت.

تكلمت بصوت غبشه الاختناق وهي تقول

- بنلعب.. إحنا بنلعب.. ما تخافش.

هذا ما نطقت به بصوت واهن في محاولة لتهدئة روع صغيرها من بطش (عبد الرحيم).

هل تأثر أو رَحِمها؟

كلا.

لا يعرف (عبد الرحيم) شيئاً عن الرحمة سوى أنها جزءٌ من اسمه بالبطاقة.

استبسل (سالم) وحاول أن يشده من ياقته فلم يفلح.

حاول أن يحكم ذراعيه على عنقه كي يَحِل عن والدته ولكنه لم يفعل، بل لطمه بمؤخرة رأسه فانشقت شفته وهوى جسده الدافئ عن الفراش ليقابله البلاط ببرودة لَسَعَتُه.

لا مفر.

خرج (سالم) حافي القدمين وترك أمه بين يدي المارد الخبيث.

حاولت أن تصارعه وأن تخلص نفسها منه ولكن الحشيش لم يزده سوى قوة وثقلاً.

- سيبها!

قالها (سالم) آمراً أباه بثبات مرعب بعد أن عاد للغرفة.

رفع (عبد الرحيم) يديه عن (حليمة) على الفور.

ليس لأنه خاف من حدة نبرة (سالم)، بل لأنه أحس نصلاً بارداً ثقيلاً موضوعاً على عنقه القصير.

استدار ليجد ابنه المشحون ممسكاً بسلاح الجريد المعقوف مهدداً إياه به.

اليوم، قرر أن يكون (حورس) حتى وإن كان سيفقد عينه.

بغضب وشر ضاعفه خدر الحشيش وتوَّجه أدرينالين المخدرات بالسادية، سأله (عبد الرحيم)

- بتقول إيه؟

- بقولك سيبها.

صفعه كما اعتاد.

- تاني.. مش سامعك.

نظر له (سالم) وكأن وجنتاه فقدتا الإحساس وخدرهما الألم المتراكم.

- سيبها.

لطمه لطمة أعنف.

- عيدها كدا؟

علّه أطاح رأسه لأقصى اليسار ولكنه لم يهز إصراره.

تلبسته روح (حورس) ورفع سكينه وحدد المكان الذي سيغرسه به، فهو لم يرث حِلمَ الفؤاد من أمه الناعمة.

- بقولك سيبها.

سقط (عبد الرحيم) صارخاً من شدة الألم المباغت.

لم يسقطه نصل (سالم)، بل الضربة التي وجهتها له (حليمة) من الخلف حين أنزلت قُلَتَها الفخارية فوق رأسه.

فردت جناحيها لتضم صغيرها بين ضلوعها ثم طارت من الغرفة للخارج.

ولكن لِمَ قررت أن تأخذه إلى السطح؟

لِمَ ظنت أنها حين تصعد الطابقين لاهثة مرتعشة متأبطة ابنها ستنجو؟

لِمَ توقعت أن قفل الباب الخشبي المتهالك الذي يفصل بين السطح ودرجات الدار سيحميها من بطش (عبد الرحيم)؟

لِمَ لم يلهمها الله بأن تركض بالحقل وصولاً للطريق الأسفلتي حيث قد تجد سيارة مارة تستغيث بها؟

والأهم، لِمَ استفاق (عبد الرحيم) سريعاً من تلك الضربة، واهتاج كثور ضَخَمَتْ المخدرات قواه وقادته بعنف صوب السطح حيث تكوَّرت (حليمة) ضامة طفلها؟

لِمَ فتح الباب وكسر القفل بركلة واحدة؟

لِمَ في لحظة خاطفة انتقى (حليمة) وانتشلها من بين ذراعي صغيرها واستعمل وجهها ككيس ملاكمة؟

لِمَ أسقط (سالم) سكينه أثناء الركض؟

لِمَ وقفت (حليمة) عند طرف السطح حيث لا سور ولا مسند؟

لِمَ ركل (عبد الرحيم) بطن (حليمة) بهذه السادية؟

لِمَ سقطت من فوق السطح بهذا العنف أمام (سالم)؟

لِمَ سكنت تماماً ولم تنطق بعد أن وقعت عند طرف المدخل الحجري؟

لِمَ سالت كل هذه الدماء وامتزجت بالعشب الأخضر؟

لِمَ صمت حفيف النخيل وانطفأ ضوء القمر وتخدر الهواء وسكنت حركة الكون؟

لقد فقد حورس عيناً واحدة أثناء حربه، فلِمَ فقد (سالم)

فؤاده قبل حتى أن يخوض المعركة؟

صُدم (عبد الرحيم) وللحظة نظر لما اقترفته يداه وظل واقفاً عند طرف سور السطح بجوار (سالم) يشاهد المشهد من أعلى واضعاً يديه فوق رأسه وهنا أدرك أن الطاغية اللا رادع له، تحول إلى قاتل.

ركض (عبد الرحيم) إلى الحقل حيث رقدت جثة زوجته.

نزل على ركبتيه وفمه مفتوح في ذهول وإذا بالذهول يتحول لفاجعة حين تأكد من توقف نبضها.

نداها.. ما من رد.

هزها.. ما من حركة.

صرخ باكياً.

- الراجل ما يعيطش!.

قالها (سالم) من خلفه وكان هذا آخر ما سمعه (عبد الرحيم) قبل أن يهوي (سالم) علي عنقه بسيف الجريد. ذاك السكين البالغ من الطول ذراعاً أخترق عنقه.

ثار (سالم) ونفَّس عن كل صرخة ألم كبتها بداخله بعد كل صفعة ولطمة وركلة ولكمة سددها أبوه له ولأمه.

انفجر الصغير الساكن الذي طال صمته وظل يصرخ وهو يهوي بسيفه على جثة (عبد الرحيم) بكل موضع يطوله وهو يصيح فحسب لتنفذ أوجاعه حتى وهنت أحباله الصوتية وتخدل كتفاه وتلون وجهه ويداه بالدماء فسقط على ركبتيه.

زحف على أربع وجلس بجوار أمه.

قعد فارداً ساقه ثم وضع رأسها المَلكي الملامح على فخذه ولم يسمع سوى طقطقة عظام عنقها التي تهشمت وصوت قطرات الدماء الخارة من مؤخرة رأسها وجبينها.

داعب شعرها الأملس وظل ينظر للأفق بحواس مُخدرة.

ولكنه رآهما فجأة وسط البرسيم.

ربت (سوبك) التمساح ذو الجلد الأخضر المتين على كتفه ثم دعاه (حورس) ذو الريش لينضم لصف الأمراء المنتقمين الذين فقدوا أعينهم.

ثأر (سالم) لوالدته وتصالح مع فكرة أنه فقد بصيرته فأعاد رأسها حيث كانت ثم نهض ممسكاً بسلاحه الدامي.

دخل الحمام واستحم لينزل الدماء والطين عن بدنه.

فتح خزانته. لملم ثيابه وضبها بحقيبته المدرسية.

فتح الثلاجة وانتشل ما لقاه من لقيمات فطير وجبن.

جمع كل ما قابله من أموال تخبؤها أمه بشقوق السقف حتى لا يجدها الطاغية الذي سقط في دمائه بالخارج.

وضع ملابس العيد التي ابتاعتها له والحذاء الرياضي الجديد فوقهم سترة من جلد صناعي رخيص مهترئ والتف بكوفيته.

وضع حقيبته وهمّ أن يرحل ولكن قبل أن يخرج لمح آخر ما صنعته أنامل أمه.

خبأ تمثال (سوبك) التمساح الفخاري بالجيب الداخلي لسترته بأعلى اليسار حيث فؤاده وترك كل شيء خلفه.

خرج من الباب ودعس العشب ولم ينظر لأعلى، لم يعد يبالي إن كان (خونسو) يتبعه.

لم يعتقد أن الظلماء ستكون بتلك الوطأة وأنه لن يستطيع أن يرى حتى كفه ولكن فليذهب النور والضوء والضي والشمس و(رع) وقدس الأقداس إلى الجحيم، فهو يعرف طريقه كأنه خطط لتلك اللحظة في أحلامه مئة مرة أو كأنه قاتلٌ بالفطرة.. ولكن لِمَ قد يكون طفل بالحادية عشرة لم يبلغ أشده قاتلٌ بالفطرة؟

لم يكن ليتبين الطريق ولكنه كان ثابت الخطى، واثق المسار.

فعلى الرغم من أن ظلام ليل الريف موحشٌ حتى وإن كان قمر سمائه بدراً زمهريراً، إلا أن بالنسبة له، لم تكن عتمة هذا الحقل أكثر ضنكاً مما مر به بحياته عامة، وبهذه الليلة خاصة.

الفصل التاسع

- مش هتكلم عن أمي.

قالها (سالم) بعد أن تذكر كل تفصيلة سابقة وآثر أن يكتمها كما اعتاد.

- أنت كدا بتغش.

نطقها (هادي) منزعجاً دون أن يلتفت لـ(سالم)، بل رسم ابتسامة كاذبة وهو يحادث (سلوان)

- إشمعنى أنا حكيت كل حاجة عن أمي بمنتهي الصدق والشفافية وبدون ما أسيب تفصيلة قد كدا قالها مشيراً لجزء من عقلة إصبعه: وأنت مش هتحكي؟ هو إحنا قاعدين كل ده عشان مين؟ ولا أنتِ إيه رأيك يا دكتورة؟

- أنا رأيي إننا نسيب (سالم) يحكي اللي هيبقى مرتاح يشاركنا بيه التفتت (سلوان) ل(سالم) وسألته بابتسامة: تحب تكلمنا عن والدك؟ كان دوره إيه في حياتك؟

- كان دوره الضغط.. فطبيعي يبقى رد فعلي الانفجار.. وهو أول حد اتدمر في الانفجار ده.

بابتسامة متلهفة همس (هادي) خالقاً جواً من التشويق

- قصده يقولك إنه قتل أبوه وهو عنده حداشر سنة.

حكّث (سلوان) حاجبها الأيسر بعدم ارتياح ثم تعلق نظرها بالساعة وهوّنت على نفسها بأنه لم يتبقَ سوى خمس عشرة دقيقة على انتهاء تلك الجلسة اللعينة.

لم تجد سوى ذاك السؤال التقليدي لدى الأطباء النفسيين لتنطق به مرتبكة

- وحسيت بإيه لما.. لما قتلت باباك؟

مط شفتيه بفتور

- ولا حاجة.

- لا غضب، ولا حزن ولا ذنب ولا...

- ولا حاجة أكد المعلومة: ولا حاجة غير الصمت.. صمت فضل عايش جوايا لحد دلوقتي.

- خططت لقتله ولا الموضوع كان وليد اللحظة؟

- كان رد فعل لحادثة.

- وإزاى حادثة اتحولت لمهنة وحرفة بتمارسها باستمرار وبأجر يا (سالم)؟

قاطع (هادي) الحوار، فهو لا يطيق أن تسلط الأضواء على

غيره مطولاً

- (المايسترو).. (سلطان الدَغَّش).

***

الفيوم،١٩٩٤

لم يحدد إن كانت نعمة أم نقمة أن يقتل (عبد الرحيم) في ليلة الأضحى، فالنقمة أن الكثير من سائقي الميكروباصات رآوه على الطريق والنعمة أنه ركب بجوار أحد السائقين فوجد وسيلة هرب سريعة.

تفحصه السائق التي تفوح منه رائحة حشيش مطابقة لرائحة من ردعه قتيلاً.

- نفرين قدام؟

هز رأسه موافقاً وألقى بحقيبته على الكرسي الأوسط بينه وبين السائق ثم أغلق النافذة وأراح رأسه على الزجاج حتى اكتمل عدد الركاب الإثنى عشر وشغل السائق شريط منوعات شعبي ركيك ثم أدار المحرك مدخناً حشيشه على الأسفلت.

فتح (سالم) النافذة على أخرها ثم أخرج منها ذراعه فرأسه فكتفه وأغمض عينيه وترك الهواء البارد يلطمه عله يفيق من خدره ولكنه لم يستفق وهنا تأكد أن حالة التخدل الصامتة

تلك ستصاحبه لما تبقى من عمره.

نزل بموقف رمسيس مع تكبيرات صلاة الأضحى ليرى لوناً من الحياة لم يبصره من قبل.

هل أتث أمه للقاهرة سابقاً أو كما دعتها هي «مصر؟

هل تمشت من قبل بين هذا الزخم من الميكروباصات البيضاء والقرمزية والرمادية وسط تلك النداءات المتداخلة للسائقين وصبيانهم؟

أسمعت من قبل صوت باعة البلالين ورأت هذا الكم المنتشر من البالونات ذات الألوان المبهجة؟

أشهدت تلك البنايات التي تحجب الأفق ولاحظت أن الشمس بالقاهرة أصغر وأبعد مما تبدو عليه بالفيوم وفطنت أن (رع) أقل سطوة بالعاصمة عما هو عليه بقريتهم؟

أكان سيعجبها مشهد المباني القاتمة الشامخة التي تضخ حجارتها برودة غريبة؟

أكانت لتلتفت لكون القاهرة رمادية باهتة؟

لم ولن يعلم لأن أمه ليست هنا ولن تأتيه لتجيب تساؤلاته التي كانت أهمها.. وماذا بعد؟

قادته قدماه حتى "مسجد النور بمحيط "ميدان رمسيس

ووقف يشاهدهم يسجدون.

فكر أن يتوضأ وينضم للمصلين ولكنه تذكر أن معلم التربية الدينية بمدرسته وشيخ المسجد حيث يحفظ القرآن أخبراه أن لا صلاة ستقبل منه لأنه يؤمن بحكايات (سوبك) و(حورس) و(توتو) و(رع) و(خونسو) وقد تصالح مع الأمر وقرر أن يجلس على الرصيف البارد متأكداً من أن تميمته سليمة لم يرهقها السفر وأنها مازالت بجوار قلبه.

دفس يديه بجيوبه الممزقة وظل ينظر لأعلى مع صوت المصلين وقد تكاتفت السحب الثقيلة حتى التحمت وأقسمت على أنها لن تسمح لشمس البكيرة أن تسطع من فوق أكتافها ولا لأشعتها أن تخترق ثغراتها، فاستسلمت السماء ورضخت ليصبح يوماً رمادياً ملبداً بالغيوم.
هكذا استمر حال السماء حتى انتهت الصلاة وانفض الناس من عليا القوم ومتوسطي الحال بملابسهم الجديدة وسط أهاليهم ليتقافز الأطفال ويفرقعون البمب والصواريخ.

أكانت (حليمة) ترى أن صوت الصواريخ والبمب مبهج ومبشر بالعيد أم أنه يطابق صوت خلفية الحروب الدموية مثله؟

لم يتبقَ بمحيط المسجد الرخامي سوى الشحاذين وحراس العقارات والباعة الجائلين المزعجين وبدأت تظهر

سيارات فارهة لامعة ينزل منها بهوات كما دعاهم أبناء الطبقة الدُنيا يوزعون أكياس سوداء مبتلة ودبقة.

كان أولهم السكندري الخمسيني ذو الشعر المصبوغ والشارب الكث والأنف المعقوف والأعين الراكزة والأسنان الصفراء والابتسامة الواسعة والقميص غير مفهوم اللون.. درجة ما بين الأصفر والأخضر.

وقف وسط صبيته الذين لا يتعدى أكبرهم سن العشرين وهم يوزعون الأكياس على كل من تقع عليه أعينهم ثم يأتي صاحب الكيس مُقِبلاً يد السكندري بامتنان وكأن طبع قبلة من شفاه غريب شققها الرياء والنفاق هو القربان المقدم لإله لحم الأضحى.

قَبِلَ القربان بأن ضرب على كتف صاحب كل فم لثم يده متمتماً بابتسامة ساخرة

- على الله يطمر.

انفض الناس بعد أن انتهت الأكياس ولم يعد هناك أيٌ من المتوسلين للإله الإغريقي ذي القميص الفاقع فقد نفدت خيراته.

التفت حوله بنظارته الشمسية الأعرض من قطر وجهه ثم نظر للشاب العشرينْي صاحب السروال الأسود القاتم

والقميص الأبيض الناصع والسترة الجلدية الباهظة الجالس بسيارة الإله المتعجرف بالمقعد الخلفي يغني بفرنسية مثاليا مع صوت (إيديت بياف) محركاً يديه كأنه ممسكاً بأكورديون سحري

- تحت سماء باريس تطير أغنية.. ولدت اليوم بقلب صبي.. تحت سماء باريس تـ...

قاطع غناءه طرق صاحب السيارة على النافذة الداكنة ليعكر صفوه.

زفر عاشق (إيديت بياف) والتفت للطارق على نافذته الذي أشار له بغرور أن ينزل من السيارة.

وضع نظارته الـRay – Ban وعدل ياقة قميصه وفتح الباب.

وطأ الأسفلت بحذائه الـTimberland العالي ووقف بجوار مناديه فارداً كتفيه ورافعاً رأسه بينما زجره ونهره

- أنت بروح أم النونة جَي تسمع لي الخرا ده وتفطر كرواسون ولا تشوف شغلك؟

نظر له مغني الفرنسية ثم أخرج من جيبه لبانة بدأ يعلكها وهو يراقب المحيط بعينيه من أسفل نظارته ثم أشار برأسه

وأعلن.

- على الرصيف.

نظر (سلطان) حيث أشار معلك اللبان ليجد (سالم) الجالس على الرصيف بزاوية متطرفة محدقاً بالسماء.

- إشمعنى؟

- قاعد بشنطة مدرسته يوم العيد لوحده على الرصيف ليه؟.. تلاقيه هربان من مصيبة.

زفر (سلطان)

- أما نشوف أشار لأحد صبيته: (غزال).

تحرك (غزال) صوب حقيبة السيارة ليخرج منها كيساً أسوداً من اللحم حفظه لتلك اللحظة ثم ذهب نحو (سالم).

مازال يتساءل لِمَ سماء القاهرة بهذا الثقل المزعج ولِمَ رائحة هوائها خانقة حتى أتاه المراهق طويل القامة ذو الجروح الغريبة المنتشرة بمعصمه ووجنته.

وقف عنده (غزال) وسأله بصوت عريض ونبرة حادة

- قاعد هنا ليه؟

لم يُرِد (سالم) التحادث مع ذاك الغريب فنهض بلا رد.

صاح به (غزال)

- خد هنا، بكلمك.

أكمل (سالم) طريقه دون أن يلتفت له ولكنه أصر وجذبه من كتفه

- يا جدع.. أنت جَى من أنهي داهية؟

التفت له (سالم) وقال ببرود

- لو جَي تثبتني فأنا ماحلتيش غير رُبع فطيرة وحتة جبنة.

- دي هيئة حرامي؟

أشار (غزال) لملابسه النظيفة ففحصه (سالم) من رأسه حتى أخمصه وكاد يكمل سيره ولكن (غزال) أوقفه مناولاً إياه الكيس الأسود

- خد.

حدق به مستفهماً دون أن يلمس الكيس أو يخرج يديه من جيبه

- ده إيه؟

- تمن سهرتي مع أمك ضحك ساخراً مستفزاً أيه: لحمة، كُل وأشكر.

ألقى (غزال) الكيس بوجه (سالم) ثم ابتعد.. ولكنه لم يبتعد كثيراً.

وثب (سالم) لأعلى وانقض عليه كما انقض (رع) الصقر على (أبيب) الحنش وغرس مخالبه بعنقه.

ثبّته على الأرض بقبضة وكوّر الثانية وهوى بها علي وجهه عدة مرات وهو يهمس من بين ضروسه.

- ماتجيبش.. سيرة.. أمي.

عند السيارة المقابلة للرصيف، وقف (سلطان) ومرشده ماضغ العلكة يشاهدون المشاجرة.

ابتسم العشريني ظافراً وهو يشاهد (سالم) يضرب (غزال) بعنف وكأن تجربته قد نجحت.

همّ أحد الفتيان أن ينقذ صديقه من قبضتي (سالم) ولكن أشار حافظ الأغاني الفرنسية له أن ينتظر

- خلينا نشوف آخره.

خلص فيه (سالم) السنون التي تعرض فيها للتنمر والسخرية من قبل زملائه بالفصل.

أفقدت اللكمات السريعة والمباغتة (غزال) وعيه، بينما ظل يصيح المتحلي بقوة (رع)

- مابحبش.. حد.. ييجي.. عليا.

لاحظ الدماء التي غطت ملامح (غزال) العريض فتوقف وهو يلهث.

انتبه للدم على قبضتيه فمسحهما بقميص (غزال) وظل صدره يعلو ويهبط بأنفاس متسارعة.

- خد لك لبانة تهدي أعصابك.

التفت (سالم) للمتكلم ذي السترة الجلدية السوداء.

ابتسم له ابتسامة ساحرة تليق بأبطال أفلام هوليوود وهو يقول

- طبعاً أنت بتسأل نفسك مين أبو لبانة ده؟ يا تري هو يعرف الشاب اللي شلفطت له وشه؟ يا ترى هينتقم له ويعدمني العافية ولا هياخدني على القسم من سُكات؟

ظل (سالم) يحدق به متعجباً من طريقة كلامه الاستعراضية ونبرته الفرحة

- أنا لا ده ولا ده.. أنا (هادي الحكيم) Supervisor المسكين اللي أنت لخبطت له خلقته ده ومدير العلاقات العامة لكل الأعمال الإجرامية اللي بيقوم بيها الراجل اللي هناك ده أشار صوب (سلطان) الذي ظل واقفاً يتابع ما

يحدث عن بُعد: وإحنا شايفين إن عندك مهارات وإمكانيات هايلة تؤهلك للشغل معانا.. جاهز تسمع الـoffer؟

لم يفهم (سالم) كلمة مما نطق به (هادي)، فأكمل اللبق كلامه باسماً

- هعتبر سكوتك علامة الرضا.. الـoffer بتاعنا بيشمل، تأمين صحي واجتماعي ومسكن ومأكل وملبس ومشرب ده زائد bonus سنوي لو حققت الـKPIs المطلوبة. أما بقى الساليري اقترب منه أكثر مما ينبغي وهمس بأذنه بنبرة مشوقة: مفاجأة.

ظل يبتسم له كمندوبي المبيعات ومازال (سالم) تائهاً.

- لو محتاج وقت تفكر مافيش مشكلة، بس خليك فاهم إحنا مش مجرد ناس شغالة مع بعض، إحنا أسرة وشُركا فى النجاح وبنكبر وبنتوسع بسرعة وده معناه ترقيات أسرع.. أنا بدأت هنا زيك ووصلت للمنصب ده في خمس سنين بس وبقى عندي عربية وشقة وبلف العالم.. لو عايز تبقى زيي.. أنا مادد لك إيدي وأوعدك إني هنقل لك كل خبرتي بشفافية ونزاهة.

مد (هادي) يده صوب (سالم) الذي لم يفطن حرفاً مما سبق ولكنه سمع سرير وطعام وماء وهذا جل ما أمله بهذه

اللحظة.

وعلى الرغم من أنه كان متيقناً من أن (هادي) مخبولاً، إلا أنه مد يده وصافحه.

ابتسم (هادي) وعانق موظفه الجديد

- ألف مبروك.. مش هتلاقي team أحسن مننا تبني معاه كاريرك.

تأبطه (هادي) ذو الرائحة العطرة وتمشى معه خارجاً من الزقاق الذي أسال فيه دماء (غزال) على التراب ليخرج إلى الساحة المنيرة حيث تصطف سيارات (سلطان الدَغَّش).
فتح (هادي) الباب الخلفي لـ(سالم)، انزلق بالسيارة ثم جلس الأول بجواره وأغلق الباب.

وقف (سلطان) وفتح الباب الخلفي منزعجاً موجهاً كلماته ل(هادي)

- انزل يا متني، أقعد جنب السواق.

ضحك (هادي) ثم قال لـ(سالم)

- أعرفك على الـbig boss.. المايسترو (سلطان الدغش).

نزل (هادي) منفذاً أوامر رئيسه ليجلس بجوار السائق ويترك مساحة لـ(سلطان) كي يجاور (سالم) بالخلف.

تفحصه (سلطان) ناظراً لكل إنش بجسده فسأله

- عندك كام سنة؟

- حداشر.

التفت له (هادي) ثم سأله بحماس

- وأنت هربان من قتل مين؟

توتر (سالم) ولكنه حاول أن يُداري هذا بسؤال

- إيش عرفك إني قتلت؟

- تقدر تقول إني موهوب.. أشار لطرف أنفه بنرجسية: بشم قتالين القتلة من على بعد.

قاطعه (سلطان) بعصبية

- سيبك من الأهطل ده.. أنت قتلت مين؟

- أبويا.

صفق (هادي) منبهراً

- واو.. برافو.

أردف (سلطان) وكأنه لم يسمع (هادي)

- قتلته إنجليزي ولا أمريكاني؟

قطب حاجبيه: يعني أيه؟

- يعني قتلته بنظام وسرعة وخفيت أي دليل ضدك وتاويت جتته ولا قضيتها عربجة رعاة البقر وشغل المجانين بتاع كلت ودنه وسلخت جلده ورميته للكلاب.

- أنا غزيته وسيبته ومشيت.

- فين؟

- في أماكن كتير.

- قصدي سيبت الجتة فين؟

- قدام الدار.

تبادل (سلطان) النظرات المستغربة مع (هادي) الذي أبدى إعجابه ببسالته

- واااو، أنت قتلته في الشارع؟

- لأ، في الغيط.

سأله (سلطان)

- ليه؟

- عشان جه عليا.

مط (سلطان) شفتيه ثم ابتسم للمرة الأولى متمزجاً بوقع كلمات (سالم) على أذنه

- اسمك إيه يا ولا؟

- (سالم).

- لأ.. أنا هسميك..

نظر للطريق مفكراً باسم جديد بينما قاطعه (هادي)

- سميه (حبيب).

- ده لما نكون بنسمي أنارب مش صبيان (الدَغَّش) يا روح أمك.. خليك في مستيكتك التفت لـ(سالم) ثانية: أنا هسميك (بحر)، سريع وغدار ومالوش أرار.

- أنا مش غدار.

- هو اللي يقتل أبوه اللي أطعمه ما يبقاش غدار؟

- واللي يسيب الصَبِي بتاعه غرقان في دمه في الشارع ما يبقاش غدار؟

للمرة الثانية، ابتسم له (سلطان) ممتزجا

- أحيه عليك يا (بحر).. ده أنت قلبك ميت يا ولا.

- أنا ماسميش (بحر)، أنا أمي سمتني (سالم) وهفضل

(سالم).

ربت (سلطان) على كتفه وأجابه

- اللي تشوفه يا حلاوة.

الفصل العاشر

لم تكن فيلا، بل قصراً بالمنصورية لك أن تفتح به سيركاً ولن يشعر أحد بضجيجه في ذاك الجانب المصمت من المدينة.

يحيط بالقصر الحجري ذي اللون غير المفهوم والذي لا ريب في أنه من اختيار (سلطان)، حقول شاسعة من الموالح المفضلة لقلبه.

كان يجمع الصبية من الشوارع والملاجئ والإصلاحيات للعمل بمجالين: أولهما زراعة تلك الموالح، وثانيهما تجارة المخدرات والفَتوّنة والقتل وفقاً لتقييم شخصية الفتى المختار.

فإن كان فتى عذب اللسان، خفيف الحركة، بدنه لم يذق مخدراً والأهم أنه لحوح منعدم الكرامة فليتسلم وظيفته بقسم تجارة المخدرات ولتكن حجرة نومه بالعنبر المستطيل بالطابق العلوي معدة لاستقباله وسط زملائه المراهقين من موزعي المخدرات.

بينما إن كان مراهقاً غليظ اللسان، حاد الطباع، انفعالي، سريع الغضب، قوي البنيان، مصاب بجروح وندوب يحبذ أن تكون بمنطقة الوجه والعنق، فليتقدم لاستلام سلاحه

والانضمام لقسم الأعمال التخريبية حيث مصاحبة أصدقائه من الديلرز لحمايتهم أو مرافقة (سلطان) في تنفيذ صفقاته وعملياته الخطرة التي تتوجب حماية وقوة بدنية لا لعقل مدبر.

أما القسم الأسمى والأقرب لفؤاد (الدَغَّش) يتطلب أن تكون ميت القلب، ثابت الانفعال، حَسِن التخطيط، دقيق الملاحظة، لا تعاني من أية علامات بدنية مميزة، سريع الحركة وخفيفها، يستحيل أن يسيء الناس الظن بك أو أن يتوقعوا أن لديك أية علاقة قريبة أو بعيدة بعالم الإجرام.

إن كانت تلك الصفات بسيرتك الذاتية، ففي الغالب سيطوي (سلطان) أفيونه اليوغوسلافي الفاخر في بفرته ويلقي الحشيش في مبخرته ويناولك برتقالة من محاصيله ويمضي معك عقد احتكار أبدي ينص على أنه سيوفر لك بيئة تدريبية على يد محترفين من روسيا وسيبريا وكذلك سيهبك تأميناً طبياً على أعلى مستوى ومسكن ووجبات يومية وبدل نفقات وبدل تلفيات وتأميناً اجتماعياً لأسرتك في حال تم القبض عليك – وهي أكذوبة لأنه في حال تم القبض عليك سيتم ذبحك داخل الزنزانة بمَوْسى مخبأ أسفل لسان أحد صبيته الذين سيتسللون للقسم لإنهاء حياتك قبل مخاطرة (سلطان) بكشفك لسره – وعليه فلا مجال للخطأ.. وهو ما

سيعلمك إياه في فترة تدريبك الاحترافي.

بعد الانتهاء من التدريب، ستوضع في فترة اختبار غير مدفوعة الأجر، ستكون مجبراً فيها على أن تحيا تحت سقفه لعشرة سنوات تنفذ المهام المسندة إليك وتقتل بلا أجر بمعدل مرتين شهرياً (هو معدل متدني لأنك مازلت بمرحلة التأهيل).

فتأخذ سلاحك وتقوم بما يسمونه العاملين بمجال خدمة العملاء بالـ"shadowing أي مرافقة الظل.

ترافق أحد القتلة المحترفين مدفوعي الأجر كظله لتتعلم منهم عن كثب وهذا لمدة عام لأن (سلطان) مؤمن بأن الفرد إن ركز على تعلم شيء محدد لمدة عام معتمداً على وسيلتي التعلم التي اتبعها الفراعنة.. الملاحظة والتجربة.. سيصبح محترفاً بهذا الشيء.

وعليه، بعد أن تنهي عام المرافقة، تصبح قاتل تحت الملاحظة.. أنت الآن في مرحلة التدريب.. أنت قاتل فحسب، تقتل مقابل فراش ووجبة دافئة.

تنهي سنينك العشر بقصر (الدَغَّش)، ثم تكون ترقيتك الأولى.. أنت الآن قاتل مدفوع الأجر.

تحصل على مبلغ يتراوح بين ثلاثين إلى خمسين ألف

دولار على الرأس الواحدة ويتضاعف معدل المهام المسندة إليك من واحدة شهرياً إلى اثنتين أو ثلاث وفقاً للعرض والطلب.

بعد مرور خمسة أعوام آخرين (أي إجمالي أعوام عملك كقاتل خمسة عشر عاماً) تصبح شريكاً.

لك نصف الأجر المدفوع لـ(سلطان) من قبل زبائنه وهو مبلغ غالباً ما يتروواح بين مئة إلى مئة وخمسين ألف دولار لك وحدك بالإضافة إلى مكافأة سنوية تحصل عليها مع تقفيل السنة المالية وهي نسبة تحدد وفقاً لحسن الأداء وجودة العمل وقياس مستوى رضا العملاء.

آنذاك، حين كان (سالم) بالحادية عشرة وعند دخوله مصنع القتلة هذا، لم يكن ليستوعب أياً مما سبق.

كل ما أدركه هو أن هناك من هم قتلة مثله وأنهم متصالحون مع جريمته بل يأملون تنميتها وتطويرها لشيء سيوفر له لقمة ورشفة ومضجع.. وقد كان صبياً - قاتلاً - ولكن مازال صبياً تائهاً مكلوماً على مقتل أمه أمام عينه، مشحوناً بأعوام من الصمت والألم البدني والنفسي الذي لم يشعر به يتفجر إلا حين نزل بسلاحه على عنق من عذبه.. ولكن أليس من المفترض أن يشعر بشيء ما؟

هكذا تساءل بعد أن أراه (هادي) غرفته وعرّفه على المكان وقدمه لبعض الشباب وجلب له ثياباً جديدة لم يحلم يوماً بأن يضعها على بدنه الهزيل الذي قشفته ملوحة البحيرة وخشونة الجريد وتراب السوق، ثم دخل الحمام وبدأ يستحم ليزيل عنه غبار الطريق الذي لم يكن يتخيل أن هذه نهايته.

وقف بالمرحاض الذي لم يتدارك فخامته ونظافته ووعى أنه وللمرة الأولى سيستحم أسفل «الدُش المعدني ذي الخلاط البارد والدافئ وأنه لن يضطر لاستخدام «الطشت والبستلة والوابور للاغتسال شتاءاً وأن كل ذلك يمكن تنفيذه فقط إذا فتحت الصنبور ذا العلامة الحمراء ليدع الماء النظيف الدافئ ينساب فوقه متسائلاً ماذا سيفعل بيديه العاطلتين غير المنشغلتين بتعبئة الماء من الحلّة وسكبها على رأسه؟

قرر أن يفرك رأسه بيده وعاد يسأل نفسه.

لِمَ لا يشعر بشيء وهو إحساس يُخالف كل ما شاهده بالأفلام بالمقهى حين كان يهرب من المدرسة بالظهيرة لمشاهدة الفيلم الأجنبي على القناة الثانية.

فهو يتذكر حين رأى الممثلين من العجم بعد أن قتلوا ضحيتهم بإحدى الأفلام الهوليوودية أنهم أصيبوا بالفزع

والهلع وأخذ ضميرهم يؤنبهم معتصراً روحهم.

لِمَ لم يشعر بهذا؟

ألا يخاف من عقاب الله وأن يخسف به الأرض ويجعل منه عبرة كما فعل بـ(قارون) النمرود؟

ماذا لأمه أن تقول إذا رأته الآن وقد تلوثت يداه بالدماء؟

أكانت لتسعد لأنه ثأر واقتص كحال (حورس) مع (إيزيس)؟ أم كانت لتشعر بالخزي ولتتبرأ من جرمه كما فعل (يعقوب) مع أبنائه أخوة (يوسف)؟

لم يكن يعلم، ولم يكن ليلح على نفسه ليجد إجابة.. الملخص أنه لم يشعر.

لم يشعر بخزي أو عار أو خوف أو ذنب أو غضب أو حتى سعادة.. لم يشعر سوى بأنه لا داعي للتفكير فيما مضى وأن تلك التساؤلات حتى وإن وجدت إجاباتها لن تعيد الليلة الماضية ولن تبعث روح (حليمة) النوبية ولن تمسح الدماء من على يديه وعليه.. صمت.

حان وقت الصابون.

أخذ الصابون الذي لم يتوقع أنه سيكون سائلاً ومعبأ بزجاجة شفافة تفوح منه تلك الرائحة العطرة التي تشبع بها

أنفه ثم أخذ الليف.. أيسمون تلك القطعة الحريرية ليفاً؟

لم يقتنع بأن تلك القطعة الملونة الناعمة التي داعبت ظهره من المفترض أن يكون الغرض منها فرك الوساخة عنه وتنظيفه كتلك الليفة التي كانت أمه تسلخ بها جلده ليظل لامعاً نظيفاً وسط أبناء القرية.

غسل جسده الرفيع كله ودعك وجهه بالصابون ثم ترك المياه تقوم بعملها وتزحلق عنه رغاوي الصابون وباللحظة التي فتح بها عينيه رأى بنظره الضعيف (هادي) يقف أمامه مستنداً على مقبض الباب الموارب وهو يتأمله.

وقف ذاك الأنيق ذو الرائحة الأكثر عطراً من الصابون السائل الباهظ وهو يمضغ علكة المستكة اللاذعة، يشاهد جسد (سالم) العاري متأملاً إياه من رأسه حتى أخمصه بنظرات متفحصة وتركيز منقطع.

للمرة الأولى منذ تلك الحادثة التي وقعت بالأمس، شعر (سالم) بشيء من القلق.

- عايز أنحت لك تمثال.

قالها (هادي) بهدوء وكأن ما من شيء مريب يدور بالمرحاض فبالنسبة لمن ولد ببيت للبغاء، مشاهدة الذكور عراة لهو أمر معتاد.

اقترب (هادي) وأغلق الباب خلفه متأملاً (سالم) عن كثب.

- بفكر أعملك تمثال برونز زي تمثال le penseur بتاع (أوغوست رودين).. حاسك مفكر زيه قالها بابتسامة ساحرة: تعالا معايا أوضتي.. أنا هنحتك زي ما أنت كدا.

اقترب (هادي) أكثر حتى ناله رذاذ المياه المنزلق على رأس (سالم) الحليق ومد يده صوب جسده ليلمس عضلة كتفه العارية مردفاً

- هحتاج بس أخد مقاسات كل حتة في جسمك و..

لم يلحق أن يمس بدنه المكشوف.

أحكم (سالم) متين العصب قبضته على معصم (هادي) ثم جذبه بقوة ليرطمه بالحائط السيراميكي الأبيض ويلطم وجهه بعنف أدار رأسه وأصابها بالدوار ولم يكتفِ.

جذبه (سالم) من قميصه وحمل الطويل أنيق الملبس من خصره ثم هوى به على الأرض ونزل أمامه على ركبة واحدة قرر أن يثني عليها مرفقه ليكسر له ذراعه من مفصله.

صاح (هادي) صيحة بدأت بتأوه من ألم كسر ذراعه ثم انتهت بضحك هستيري وكأنه كان يتمازح مع صديق عزيز.

لم يبالِ (سالم) لردة فعل (هادي) المريضة ولكنه هدده

بثبات

- لو لمستني تاني، هشنقك بمصارينك.

أمسك (هادي) بذراعه التي كسرها له ذاك العنيف الصامت وظل يضحك والمياه تنزل عليه فابتل بالكامل ثم صاح بنبرة مرحة.

- أنت نيتك مش تمام على فكرة.. أنا كنت عايز أعمل لك تمثال وبس.

انتشل (سالم) سرواله ليستر عورته بينما أردف (هادي) بالنبرة نفسها

- أنت عصبي وعنيف وماعندكش رحمة.. أنت من النهاردة شريكي، مش شريكي وبس.. أنت بقيت صديقي يا مسيو.. صديقي السيكوباتي.

- من ساعتها وأنا و(سالم)، الشاكوش اللي (الدَغَّش) بيطبق بيه عدله.

- القتل هو العدل؟

سألته (سلوان) وهي تتأمل آخر عشرة دقائق بالجلسة ولكن انسلّت الإجابة من فِيّْ (سالم)

- هو القصاص.

- القصاص هو الموت؟.. هو أنت شايف الموت إزاى؟

- بداية جديدة قالها (هادي) متفلسفاً: حياتك دي بتنتهي بموتك بعدها روحك بتبعث من جديد وبتبدأي حياة مختلفة باختيارات وبداية ونهاية مختلفين.

داعبت (سلوان) طرف قلمها ثم نظرت لـ(سالم) بفضول

- وبالنسبة لك يا (سالم)؟

مط شفتيه وأجاب بلامبالاة

- اختيار.. أنا وعدت نفسي إن موتي هيكون باختياري ومش هيخرج عن إرادتي زي ولادتي.. أنا ماخترتش حاجة في حياتي، لا بدايتها ولا أحداثها، بس نهايتها هتكون من اختياري أنا.

أطرقت (سلوان) لكلماته ثم انتبهت للساعة.. لم يتبقَ من الزمن سوى خمس دقائق فأخذت تفكر فيما ستفعله بعد نهاية تلك الجلسة.

صحيحٌ أنها أقسمت ألا تفشي أسرار مرضاها ولكن في حالة أن ذاك المريض هارب من قضية مازالت تحت التحقيق لها حق الإبلاغ عنه حتى لا يُتهم بريءٌ مكانه.

ولكن إن أبلغت عنهما، فلا دليل لديها على كلامها كما أنها لا

تعرف لهما عنواناً ولا حتى رقم تليفون.

- أعتقد بعد كل اللي سمعتيه ده، اتأكدتي من نظريتي.

قالها (هادي) عاقدًا أصابعه ورافعاً رأسه بشموخ لينتشل (سلوان) من مخططاتها.

- نظرية إيه؟

- إننا مجرد ناس بتمارس عملها باتقان وشغف لا سيكوباتيين ولا حاجة.

خلعت نظارة نظرها وهي تراقب الدقائق الأخيرة

- أستاذ (هادي)، أهم صفة في الطبيب النفسي هي الصراحة، وبصراحة، أنا حالياً ماقدرش أشخصكم باضطراب غير السيكوباتية.

زفر (هادي) بضيق

- أقدر أفهم ليه؟

- لأنكم بتقتلوا ناس أبريا بدون دافع شخصي.

- مش معنى إنهم ما أذوناش إحنا بشكل شخصي يبقوا أبرياء.. لو أبرياء ماكانوش اتحطوا في سكة (الدَغَّش) ولا كانوا دخلوا في شبكته أو اشتغلوا معاه أو حتى كسبوا

عداوته.

- مش شرط.. ممكن يكونوا..

- حتى لو كانوا فعلاً أبرياء زي ما بتقولي قالها (هادي) وهو يقاطعها: الموت هو قدرهم، كلنا في النهاية هنموت بس ربنا هو اللي اختار تنفيذ حكمه عليهم بإيدينا إحنا.. هو اللي حط الناس دي في سكتنا وهو اللي اختار طريقة وتوقيت موتهم.. إحنا مش أكتر من مساعدين لعزرائيل يا دكتورة.

قالها بابتسامة واثقة ثم انجعص في مقعده.

- إيه العلاج؟

سألها (سالم) بهدوء وصدق فاعترض (هادي) على كلامه

- علاج إيه يا (سالم)؟ أحنا مش مرضى.

أجابته (سلوان)

- الاعتراف بالمرض هو بداية العلاج.. بس للأسف، السيكوباتية مالهاش علاج نهائي.

- مالهاش علاج؟ كررها (هادي) بعصبية: يعني أنتِ سايبانا نحكي ونقلب في ماضينا ونفتَّح لك في جراحنا عشان في النهاية تقولي مافيش علاج؟.. إيه؟ كنتِ زهقانة فقولتي تسلي نفسك بقصص الاتنين الهطل اللي فتحوا لك قلوبهم..

استفدتي إيه من كل ده، مدام مافيش علاج؟

- أستاذ (هادي) من فضلك اهدا.. صحيح السيكوباتية مالهاش علاج نهائي شامل بس دايماً في طرق لتحسين السلوك أو ترويضه.

تلفت (هادي) حوله بتربص

- ترويض؟ أنتِ شايفانا حيوانات مسعورة؟ بدأ يتلفت حوله كالمجذوب: أنتِ بتسجلي لنا، صح؟ عايزة تبلغي عننا وتعملي لنفسك بروباجندة ولقاءات في التليفزيون ويستضيفوكي في الستات مايعرفوش يكدبوا مش كدا؟

- من فضلك يا أستاذ (هادي)، أنا وضحت وأكدت لأستاذ (سالم) قبل ما تقتحم علينا الجلسة إني مش بسجل.

سألها (سالم) برزانة وهدوء بوذي متعبد في صومعته

- يعني مافيش أي شاهد على دخولنا هنا وكلامنا معاكي؟

- لأ نظرت الطبيبة لأوراقها: أنا هحدد لكم ميعاد الأسبوع الجاي بس هحتاج أرقام تليفوناتكم وصور من البطاقة و..

صرعتها رصاصته.

حلقت الطلقة من فوهة مسدس (سالم) الكاتم للصوت الذي كان يخبؤه بحامله في سرواله من الخلف – كالعادة –

لتستقر الرصاصة بمنتصف جبين الطبيبة التي ظنت نفسها فطِنة حين تركتهما يقصان ويحكيان كل ما لديهما من مآسٍ مفصلة وتظاهرت بالاستيعاب والحكمة والتعاطف والتفاهم وطلبت منهما صور من البطاقة لتسليمهما للسلطات.

انفرجت ملامح (هادي) حين رأى خط الدماء الرفيع ينزل من جبين ذات الوجه المتيبس المطعم بالبوتكس.

همس (هادي) لـ(سالم) بحماس

- أنا اللي هقتل الممرضة.

هز (سالم) رأسه بلامبالاة.

أخذ المرمدة التي دفن بها سجائره طيلة الجلسة ووضعها بكيس بلاستيكي أخرجه من جيبه ثم همّ أن ينهض ليأخذ دفتر الملاحظات الراقد بين يدي الطبيبة القتيلة ويمزق كل الأوراق التي كتبت فيها (سلوان) عنهما حتى لا يترك أي دليل ضدهما ولكن (هادي) أمسك معصمه ليطيب خاطره

- (سالم)، ما تصدقهاش.. مش إحنا اللي سيكوباتيين، المجتمع هو اللي عايش دور الضحية.

الفصل الحادي عشر

وقف (هادي) بالطرقة يصفر اللحن الأقرب لقلبه “La vie en rose وهو يعيد لجيبه القفازين الجلديين اللذيْن لبسهما ليسلب الممرضة الشابة أنفاسها بينما جاوره (سالم) وهو يدس أوراق ملاحظات (سلوان) بجيبه ثم ينظف عدستي نظارته بمنديله الورقي في انتظار وصول المصعد.

همس (هادي) لشريكه

- قلت لك من الأول إن دي فكرة سخيفة.. كل ده بسبب وسوسة مراتك اللي هتوديك في داهية.

لم يعلق (سالم) كعادته ولكن (هادي) لم يتوقف عن الثرثرة

- مش قصدي أنتقدك، بس أنت أحياناً بتندفع في تصرفاتك.. لو ماكنتش ماشي وراك ومتابعك، كان زمان الدكتورة دي سلمتك للشرطة بعد كل اللي حَكِت لها عليه.

- على أساس إنك كنت قاعد ساكت.

سعل (هادي) ليصفي حلقه ثم أردف محرجاً:

- أنا أتكلمت عشان أدعمك.. بشجعك تفتح لي قلبك وتحكي لي عن اللي مضايقك بدل ما تلجأ للغريب ونتفضح.

- كدا كدا كنت هقتلها في نهاية الجلسة.. أنا بس كنت عايز أعرف في علاج للسيكوباتية ولا لأ.

- سيكوباتية إيه يا (سالم) ده كلام فارغ.. إحنا زي الفُل.

سأله (سالم) بنبرة متهكمة

- فعلاً؟

رنّ المصعد معلناً عن وصوله فولجاه ثم ضغط (هادي) على زر G وأجابه ببساطة

- آه، فعلاً. لو فكرت في الموضوع هتلاقي إننا لا بنعذب اللي بنقتلهم، ولا بنسخلهم وهم أحياء، ولا بنمثل بجثثهم ولا بنغتصبهم ولا..

- ورف التماثيل اللي في أوضة نومك؟

- هواية فنية.. طريقة بخلد بيها ذكرى كل واحدة فيهم.. وبعدين، أنا بعمل كدا بعد ما بقتلهم يعني لا بتتعذب ولا بتحس بحاجة.

انغلق باب المصعد وساد الصمت الثقيل لبرهة فلم يحتمله (هادي) وكسر هذا السكون معقباً

- ثم إحنا بنقتلهم عشان ده شغلنا. لا أنا ولا أنت بنعرف نعمل حاجة تاني.. طب ده أنا أعرف واحد بيقتل بدون أي

مقابل مادي عشان يقلل الزحمة.. فاكر نفسه (ثانوس) بروح أمه.

ضحك (هادي) علّه يقلل من ضيق شريكه ولكنه لم يلمح حتى نصف ابتسامة فاترة.

زفر (هادي) متأثراً بمزاج صاحبه المتعكر وأردف

- أنا مش فاهم أنت غاوي جلد نفسك ليه.. ما كل دقيقة في واحد بيموت ولا حد بيحس بيه واللي بنقتلهم دول مش ملايكة يا (سالم)، كلهم أوساخ يستاهلوا القتل.. البشرية كلها تستاهل القتل، حتى أنا وأنت و(حبيبة) و(أدهم)، كلنا في يوم من الأيام هنموت مقتولين على إيد ناس زينا و..

قاطعه شعوره بفوهة مسدس (سالم) تنغرس في ضلعه بعنف و(سالم) يهمس له

- ماحدش يقدر يقرب من مراتي وابني.

- يخربيت قلبة موودك قالها (هادي) وهو يزيح المسدس عنه ويردف متجاهلاً تهديد رفيقه له بالقتل: قصدي إن دي النهاية الحتمية لينا كلنا.

أعاد (سالم) مسدسه.

- أنا مش هتقتل.. لا أنا ولا أي حد يخصني.. دي مش

نهايتي.

- يا سيدي أنا ماعنديش مانع تكون نهايتي على إيديك

وضع (هادي) يده على صدر (سالم) ونظر لعينيه مبتسماً:

وأنا هلاقي أعز منك يقتلني؟

حدجه (سالم) بنظرة مرعبة ومقتضبة جعلت (هادي) ينزل يده عن صدره بهدوء.

توقف مصعد البرج عند الطابق المنشود.

خرج (سالم) أولاً وهمّ (هادي) أن يتبعه ولكن (سالم) التفت له بسرعة ولكمه بخفة فاستقرت قبضته على عينه الداكنة فأمسك (هادي) موضع اللكمة المباغتة ولم يتأوّه بينما علق (سالم)

- ماتمشيش ورايا تاني.

أغمض (هادي) عينه التي تلقت الضربة وأغلقها بقوة ثم صاح بـ(سالم)

- أنا غلطان إني خايف عليك وعلى مصلحتك لو (سلطان) شم خبر هيدفنك حي.

رحل (سالم) عن العمارة بينما ظل (هادي) يضغط على عينه المصابة ويحاول فتحها وإغلاقها عدة مرات لتتضح

رؤيته التي شوشتها لكمة ذاك العنيف الذي يتخذه صديقاً.

***

لم ينتبه (سالم) لكون هاتفه رن عشرات المرات باسم (حبيبة) حتى أجابها وهو منتبه مع الطريق.

- آلو.

أتاه صوتها وهي تبكي بشدة

- (سالم)، الحقني.. (عمر) اتقتل!.

***

يعرفها الزبائن بـ(صافي) والضباط بقسم مباحث الآداب بـ(صفاء السُكري).

كانت ضيقة الملبس، صارخة الملامح، مسرفة في استخدام اللامع والبراق من مستحضرات التجميل.

تضع ذيل حصان أسود لامع لا يحتاج الأمر خبيراً كي يجزم أنه صناعي رديء.

أظافرها طويلة وحادة كالمخالب وقد دهنت السجائر الرخيصة أسنانها المسوسة بالأصفر.

منطقتها هي شارع جامعة الدول حيث تقف عند الناصية مدخنة سيجارتها محدقة بالسيارات بأعين صيادة وابتسامة

متكدرة حتى وقفت أمامها تلك السيارة السوداء اللامعة المجردة من أرقامها.

أسدل قائد السيارة نافذته السوداء وابتسم لها.

كانت تحيط بعينه كدمة سوداء لاحظتها (صافي) على الفور فاتكأت على طرف شباكه وضمت ذراعيها وهي تنفث دخانها ليبرز ثدياها المرمريان وهي تسأله بصوتها المبحوح

- مين اللي شلفطك كدا يا سيد الرجال؟

- حد بعزّه.

- لا يا خويا، أنت لو من بتوع اضربيني وهزقيني فطريقك أخضر، الله الغني.

ضحك (هادي) ساخراً ثم أشار لها بأن تركب السيارة فأبت موضحة

- لأ، أعرف طلباتك الأول، يمكن ما تناسبنيش.

- اسمك إيه؟

- (صافي).

- شوفي يا (صافي)، أنا مافيش حاجة تعجبني أكتر من المومس عزيزة النفس.. على العموم، أنا طلبي بسيط. مش

عايز منك حاجة غير ودانك.

شهقت بسوقية

- وده أصله إيه ده؟

- أنا عايز أتكلم.

- تتكلم وبس؟

- آه، مش هتعملي حاجة غير إنك تسمعي.

- طب والحساب؟ هتحاسبني على الكلام بس؟

- عايزة كام؟

نظرت لهيئته وسيارته ولنبرة الاحتياج التي بصوته ونظرات الوحدة التي بعينيه

- 5000 جنيه.

فتح لها الباب فلم تصدق أنه وافق على مطلبها المبالغ فيه بهذه البساطة.

وثبت بجواره وأغلقت الباب ثم همست

- بس هنتكلم بما يرضي الله.

ضحك ساخراً وانطلق بقيادته القاتلة.

***

ماثلت الأجواء لوحة زرقاء لـ(فان جوخ) يتوسط كبد سمائها قمر ناضج ينعكس وجهه على صفحة النيل المترقرقة أسفل نجوم السماء التي كافحت ليتسلل ضيها من أسفل طبقة تلوث بسبب عوادم سيارات القاهرة.

تراقصت تموجات الماء مع ملامسة نسمات الصيف لها لتختلط مع حفيف أوراق الشجر المحيط بحديقة الجزيرة النيلية التي يسكنها (هادي) بمفرده، فتمتزج موسيقى الطبيعة مع لحن (إيديت بياف) الباريسي لتكلل رومانسية هذا المشهد زجاجة نبيذ أحمر يجاورها كأسان وطبق من الفاكهة وآخر من جبن الجودة الدنماركية برتقالي اللون تتوسط جميعا طاولة تضيئها الشموع.

قطع (هادي) لنفسه التفاح وهو جالس على المقعد الخشبي مستنداً على شجرة البرتقال متأملاً النيل وملقياً ما قطعه بطرف السكين بفمه

- إشمعنى ٥٠٠٠ جنيه يا (صافي) هانم؟

- إجابتي كلها صعبنيات وأنت شكلك بيه ماتفهمش في الهم.

ابتسم نصف أبتسامة مرة

- وأنا لو مافهمش في الهم، كنت هدفع فلوس لواحدة من الشارع عشان تسمعني؟

نظرت له بمرارة لا تختلف عن تلك التي كلمها بها

- تسلم يا ابن الأصول.

- ماتخديهاش على صدرك يا ست (صافي).. أصلي وأصلك واحد.

نظرت حولها ثم أردفت بابتسامة حزينة:

- العين ما تعلاش عن الحاجب.

نظر لها بهدوء وتفرس نظراتها المحتاجة

- عايزة الفلوس في إيه يا (صافي)؟

أطرقت للأرض ثم أجابته بحزن

- لأمي، البوليس كبس عليها إمبارح والمحامي مصاريفه كتير.

- أمك شغالة زيك؟

هزت رأسها بخزي وعلقت

- لأ، قصدي أيوة.. أنا.. أنا أول مرة أنزل مكانها.. يعني عمري ما..

- عايزة تفهميني إنك بنت بنوت؟!

فرت منها الدموع وقد ذاب قناع العهر الذي حاولت ارتداءه

- أمي هي اللي كانت شغالة عشان تصرف عليا أنا وأخويا، بس بعد ما إتمسكت مابقتش عارفة أعمل إيه ولا أجيب فلوس منين عشان أخرجها.

- مالكيش أهل؟

- أبويا مانعرفش أراضيه وأمي أهلها كلهم متبريّين منها وأخويا الكبير بعيد عنك مدمن بودرة، الفلوس كلها رايحة على علاجه مسحت دموعها: أنا حمدت ربنا أول ما لاقيتك بتقولي إنك مش محتاج غير حد يسمعك.. شوف يا بيه.. أنا عينية ليك وهسمع كل اللي عايز تقوله إن شالله نقعد سنة بنتكلم بس تصدق في وعدك معايا.. تتكلم وبس من غير ما تلمسني.

ابتسم وأعاد السكين لصحن الفاكهة وصب لنفسه نبيذه ليرتشفه ويمضغ معه الجبن.

- زي ما قلت لك.. أنا مش عايز منك غير ودانك.

- اعتبرهم ملكك.. بس ماتآخذنيش في السؤال يعني، بيه زيك مش لاقي حد يتكلم معاه غير واحدة زيي؟.

- عشان الزمن علمني إن اللي زيك بيسمعوا أحسن من أي طبيب نفسي أعاد ملء كأسه: كان في واحد صاحبي رايح لدكتورة نفسية وأنا مشيت وراه.. هو فاكر إني عملت كدا عشان خايف ليقع بلسانه ويطلع أسرار شلغنا برة بس أنا عملت كدا عشان كنت عايز أبقى جانبه وهو بيتكلم عن الحاجات اللي بتوجعه وبتضايقه.. مش سهل إنك تتعري قدام حد مهما كنتي فاكرة نفسك قوية ومستبيعة ومش فارق لك.. وأنا ماقدرش أحكي عن حقيقتي وعن ماضيا قدامه، في حاجات ماينفعش (سالم) يعرفها عني.

- صاحبك ده شكله عزيز عليك أوي.

ابتسم ابتسامة مريرة

- عزيز عليا.. (سالم) ده أكتر واحد بحبه وبخاف منه أرتشف من كأسه ثم أردف: أنا شغلي إني أختار رجالة (الدَغَّش).

- مين (الدَغَّش) ده؟

- لأ بصي، أنا هتكلم وأنتِ هتهزي راسك وبس.. مش عايز أسئلة عشان ماطلعش من الموود.

- خلاص، أنا شديت لصق على بُقي.. كمل.

ارتشف المزيد ماضغاً الجبن وشرائح التفاح

- أنا اللي مختار كل رجالة (الدَغَّش) وأنا اللي مقسمهم.. هي موهبتي كدا. بشمهم من على بُعد كأن عندي مجسات بقرا بيها الغاضب من الضعيف، الخايف من اللي قلبه ميت. وأنا أول ما شوفت (سالم) على الرصيف عرفت إنه مش بس هيبقى دراعي اليمين وهيثبت نفسه. أنا كنت متأكد إنه هيجي يوم وياخد مكاني.. وفي الحقيقة، مش دي الحاجة الوحيدة اللي خدها مني.

ترك كأسه الفارغة على الطاولة ثم أطرق للنيل للحظات مفكراً

- أنا جوايا حاجات كتير نفسي أقولها وأتكلم فيها بس تصدقي دي الحاجة الوحيدة اللي بخاف منها.. الكلام عن نفسي، عن حقيقتي، عن أمي، عن طفولتي، عن...

صمت قليلاً ولكنها أمسكت يديه واقتربت منه أكثر ببراءة تخلو من أي عهر

- ماتخافش، سرك في بير.. اعتبر إنك بتكلم نفسك في المرايا.

أبتسم لها واستشعر بنبرتها الصدق فأسهب في الحديث

- أمي كانت شغالة زي أمك، بس الفرق بينهم إن أمك كانت بتبيع نفسها عشان تصرف عليكم وأنا أمي كانت مستعدة تبيعني لو ده هيزودها قرش.

***

القاهرة، ١٩٧٩

كان بالسادسة يتراقص على موسيقى (إيديت بياف) بغرفة (روز) العجوز التي باتت بالمشفى بتلك الليلة إثر غيبوبة سُكَر شديدة.

كما علمته، وضع الأسطوانة بالجرامافون وترك إبرتها تراقصها وبدأ يدور حول نفسه بزوايا الحجرة الكهلة وهو يغني ويردد الكلمات بفرنسية متخبطة.

وقف عند تسريحة (روز) وسحب الباروكة البنية المعلقة على رأس منعدمة الملامح وبدأ يلف بالشعر المستعار كأنه يراقص إحداهن ولكنه كان يجهل..

كان الصغير ابن الست سنوات يجهل أن هناك ضبعاً يراقبه من خلف الباب الموارب.

لم يعرف أن ذاك البدين القصير ذا المؤخرة المترهلة مرتدي الجلباب الأبيض والذهب الثقيل يستند على الباب ويتابع

حركاته ورقصه.

ولج الكائن الجيلاتيني الغرفة ثم أغلق الباب خلفه فانتفض (ناجي) واستعجب.

لِمَ قد يدخل أحدهم إلى غرفة ما من نساء بها بهذا الماخور؟

جلس المترهل على السرير وأشار للصغير

- تعالا، ماتخافش.

اقترب (ناجي) على استحياء فأردف صاحب الهيئة المستديرة

- تيجي نلعب سوا؟

- ماحدش بيلعب معايا غير (روز).

- وهي فين (روز)؟

- عند الدكتور بتاخد حقنة.

- عارف الناس بتاخد حقنة فين؟

- لأ. ماخدتش حقنة قبل كدا عشان أنا قوي ومش عيان.

- طب تيجي نلعب دكتور وعيان، وأوريك الناس بياخدوا الحقنة فين؟

غرس أصابعه بذراع الصغير وانتشل من يديه الشعر المستعار ثم وضعه على رأس الطفل وبدأ يسرح له الباروكة بأصابعه

- كدا شكلك حلو.

- بس البواريك دي للستات.

- مين قالك الكلام ده؟

سحبه من يده نحو التسريحة، سرح له الباروكة بدقة ثم سحب مساحيق التجميل، ووضع له أحمر الشفاه وحمرة الوجه وقلم الكحل ليكحل له جفنيه والصغير يظن أنهم يلعبون لعبة جديدة.

- بص لنفسك كدا في المرايا.. إيه رأيك؟

- شكلي زي البنات.

- لأ، شكلك ولد قمور.. وحلو.

تحسس وجهه وكتفيه وذراعيه وفخذيه ثم همس

- مش هنلعب عيان ودكتور؟

- مين فينا العيان ومين الدكتور؟

- إحنا الاتنين عيانين.

قام مريض البيدوفيليا بتجريد ضحيته التي بالكاد حفظت من الأرقام والكلمات ما يكفي للتعبير عن ذاتها البريئة.

خلع له سرواله الداكن ثم سرواله الداخلي وأخذ ينهشه بنظراته الشبقة بالغريزة المريضة المحرمة.

لم يفهم (ناجي) لم خلع عنه ذاك الرجل الثلاثيني بنطاله، ولِمَ بعد أن فعل ذلك قام هو أيضاً برفع جلبابه الأبيض وخلع سرواله الداخلي ثم طلب منه أن يصعد السرير كي يأتي الطبيب ويعطيه الحقنة التي ستشفيه.

أخذ (ناجي) حقنته ولكنه لم يشفيه، بل أصابه بداء لا دواء له.

***

لتذهب الكأس إلى الجحيم، تجرع (هادي) من الزجاجة مباشرة.

حاول ألا ينظر لوجه (صافي) وألا يتفرس تعبيراتها ولكنه سمع صوتها، مفجوعاً حزيناً

- كانت تعرف؟

- هي مين؟

- أمك.. كانت عارفة إن الراجل ده..

- لأ.. طلع إنه كان قاعد برة مستني دوره بس رجله ساقته ليا.. أو بمعنى أصح، قدري اللي جابه ليا.

- قلت لحد؟

ألقى مكعب الجبن بفمه وهز رأسه مبتسماً ابتسامة مُرّة.

***

القاهرة، ١٩٧٩

ظل جالساً بغرفته متكوراً بالزاوية.

تزحزحت الباروكة من على رأسه وساح كحله وتلطخ وجهه بأحمر الشفاه وابتل جسده كله بالعرق البارد الذي أصاب بدنه الصغير برعشة أرعدته وتركته بشعور مختلط من الخزي والعار والألم والخدر والغدر.

تخدرت أعضاؤه من شدة الألم وظل الطفل العاري يحدق بالسجاد إلى أن سمع أمه تضحك بالممر.

لسبب مازال يجهله وجد نفسه يركض عارياً خارجاً من الغرفة ملقياً بجسده المنهوش بين ساقيها فلم يطل سوى ركبتيها.

أحاطها بذراعيه وأخذ يبكي بغزارة مرعوباً ناشجاً.

نظرت له الرفيعة ذات العروق البارزة والأسنان الرفيعة الصفراء

- إيه اللي قلعك كدا انتشلته بعيداً عنها وأخذت تنظر لهيئته: مشلفط خلقتك زي النسوان ليه؟

بقلب مكسور وأعين كادت تقع مع الدموع المنهمرة منها

- هو اللي حط لي مكياج وقلعني وقالي هديك حقنة.

اختلجت ملامحها

- هو مين؟

تلفت حوله حتى رأى طرف جلباب ناهشه من خلف باب موارب

- ده.

قالها مشيراً لها وقص عليها ما فعله به مغتصب الأطفال ومشتهيهم بالتفصيل.

انقبضت ملامح الأم وجذبت (هادي) دون أن تبالي بأن تستر نصفه السفلي العاري وركلت باب غرفتها ثم سحبت سوطها من على فراشها وخرجت.

اتجهت صوب الغرفة التي ولجها ذو الجلباب الأبيض

والمعصم المرصع بالذهب وركلت باب الحجرة.

باغتته من الخلف وأنزلت عليه سطوها فانتفض وقد طرقع صوت اللسعة.

- عملت إيه في ابني؟

بنبرة مرتعشة خائفة

- أنا كنت.. أنا كنت..

- أنا عرفت كل حاجة.. لو ليك في العيال، كنت تقول وإحنا نتصرف مش تتسحب زي الحرامية وتنهش العيل.

- أصل أنا..

- لا أصل ولا فصل، فين حساب الواد؟

رفع يديه حتى لا تضربه بسوطها ثانية

- عايزة فلوس؟

- أومال هعوز إيه يا روح أمك؟ ولا فكرك إنه عشان عيل هيبقى ببلاش؟

حتى مريض البيدوفيليا مغتصب الأطفال استغرب دناءتها.

مد يده بجلبابه وأخرج نفس الحساب الذي كان سيدفعه

لأي مومس بالبيت فلسعته بسوطها مجدداً

- عايزة قدهم تلات مرات يا روح أمك.. ده ابني.

- حاضر، حاضر.

أخرج ثلاثة أضعاف المبلغ الذي كان سيدفعه.

عدتهم المومس ووضعتهم بثديها.

- معلوم.

ألقت بالصغير صوبه كمن ألقى بحمل نحو ضبع لينتهشه على مهل

- بعد كدا إبقى ادخل البيت من بابه.

تركت له صغيرها العاري ثم رحلت وأغلقت الباب خلفها وتجاهلت بكائه وصرخاته.

من يومها، صار هناك طبقاً خاصاً جديداً على قائمة ملذات ذاك الماخور.

***

لم ينظر (هادي) صوب (صافي) ولم يرَ دموعها ولكنه سمعها وهي تحاول أن تسيطر على أنفها الذي سال مع دمعها فتمسحه بطرف شالها الخفيف.

ابتسم ابتسامة ساخرة مريرة

- صعبت عليكي؟

أجابته بلغة غير الكلام.. عانقته.

وضعت رأسه على صدرها وضمته بين ذراعيها كأنها تعتذر له عما رآه طفلاً وعن قسوة أمه وبشاعة مفترسه وشناعة زمنه الذي لم يختره.

ولأول مرة، منذ وفاة (روز) العجوز، شعر أن هناك من يحنو عليه بصدق.

الفصل الثاني عشر

القاهرة، ١٩٨١

هذا الصباح، قرر (ناجي) أن يقتل (قلوب).

كانت (قلوب) هرة تبلغ من العمر ثلاثة أشهر.

بيضاء اللون ذات عين زرقاء وأخرى خضراء ووحمة سوداء حول أنفها وشاربها تشبه القلب وأخرى مماثلة عند مؤخرتها فأسمتها صاحبتها السمينة زوجة حارس العقار القاطنة فوق سطح البناية المقابلة لهم ب(قلوب)، وتركتها تلعب فوق الأسطح لتسير متغنجة على سوره فيراقبها (ناجي) المستلقي على فراش (روز) قبالة النافذة المتسخة.

شعر أن (قلوب) تغيظه، أحس أن مؤخرتها ذات الوشم الإلهي تهتز بكل خطوة تأخذها وكأنها تتعمد مضايقته وإذلاله لكونها حرة ملك نفسها على عكس (ناجي) ذي الثمانية أعوام الذي صار داعراً تحت الطلب وفقاً لأذواق مرضى البيدوفيليا.

نهض عن فراشه ذي الغطاء البلاستيكي الذي صار يُفرش على السرير بسبب حالة التبول اللاإرادي التي أصابته منذ أن أُغتُصِب منذ عامين، وترك (روز) المشخرة.

كانت كل عاهرات الماخور نياماً، ولكنه لم يبال على أي حال.

خرج من بيت الدعارة الذي يقطنه وصفع بابه لاهياً بالمفاتيح وولج المبنى المقابل.

صعد سلالمه المتكسرة واحتك حذاءه المهترئ ببلاطها الخشن متجاهلاً ثرثرة وصياح سكانه وضحك أطفالها ورائحة طعامهم الثقيلة حتى وصل للسطح.

ضربته شمس الظهيرة الحامية التي سُلطت على الهرة البيضاء التي كانت تداعب شبحاً في الهواء لا يبصره غيرها وهي تقفز يميناً ويساراً محاولة الإمساك بخيط خفي لا تدركه العين البشرية.

علها تبصر ما لا يبصره البشر ولكنها لم تعِ نية ابن الثامنة حين أحكم قبضته على رأسها وركض السلالم نزولاً والصغيرة البيضاء تموء بين يديه.

ركض بخفة ضاحكاً بحماس طفولي وأعين شيطانية وهو يعود لبيت الداعرات ثم يطأ الحمام مغلقاً الباب خلفه.. تمنى لو كان لديهم قفلاً يوصد به الباب ذا الأزيز المزعج ولكن لِمَ قد توصد عاهرة بابها على نفسها؟

سد بالوعة الحوض بالسدادة المطاطية السوداء المهترئة

وفتح الحنفية على مصراعها لتتسارع المياه حتى تملأ الحوض الذي اصفرّ لونه.

خربشته الهرة ولكنه لم يشعر بها وهو يتابع بعينيه اللتين لمعتا بضّي شر مشحون وعنف انتقامي حتى امتلأ الحوض وفاض ماؤه على جانبيه.

لم يغلق الصنبور، بل أمسك الهرة الزغبة وقبل رأسها ثم داعب عنقها الناعم.

أحكم قبضتيه الهزيلتين حول رقبتها الرفيعة وبدأ يخنقها وهو ينزلها بالحوض الفياض.

خربشته وصارعت المياه وهي تقطع جلد يديه الناعمتين بمخالبها الحادة ولكنها كانت أصغر من الغل الدفين بداخله الذي يدفعه لتفريغ قهره وغضبه وعنفه بهذا الكائن الأبيض العاجز وظل يستمتع برؤية روحاً يتعلق بقاؤها من فنائها برغبته فحسب.

قاومت (قلوب) تحت المياه التي لا يتوقف خريرها منسكبة على الأرض حتى كادت أن تلفظ أنفاسها الأخيرة.

- (ناجي)!

صاحت (روز) مشدوهة فانتفض (ناجي) وترك الصغيرة

البيضاء فوثبت مرتعبة وهي تموء بهلع ووهن خارج الحوض وتركض من الحمام.

خاف أن يرفع رأسه وينظر لـ(روز) فيراها غاضبة منه.

- بتعمل إيه؟ بتقتل القطة؟ جذبت يده بعنف: الإيد البريئة دي تقتل؟

- أنا ماقتلتهاش.. كنت بحميها.

- كداب.. ليه كدا يا (ناجي)؟ ده أنا وقفت في وش أمك لما حاولت تقتلك، تطلع أنت القاتل؟

- أنا ماقتلتهاش.

- بس كنت عايز تقتلها.. بتنتقم في القطة؟

لم يُجِبها. أغلقت الصنبور وزفرت بثقل.

- أنت غضبان.. باين في عيونك الصغيرين دول.. أنا عارفة إن العالم قسي عليك بس ده الواقع.. العالم قاسي يا (ناجي).

صمت الصغير الغاضب ثم ظل ينظر للحوض الذي كان محيطاً عاتياً بالنسبة للهرة التي استجاب الله لنداءات استغاثاتها.

- عارفة (عشق) بتعمل فيا أيه؟

- عارفة.

لم تكن تعرف شيئاً.

جهلت ما حدث لـ(ناجي) واستثمار أمه الجديد الذي استمر بثبات لعامين سراً عن (روز) العجوز وقد سهي عنها كل هذا بسبب تدهور صحتها واضطراب إدراكها فلم تعد مسيطرة على ما يدور بماخورها ولا دارية بتفاصيله.

- أنا عارفة إنها بتضربك وبتقسى عليك ومش بتديك الحب اللي تستحقه، بس ده مش معناه إننا ننتقم من حيوان مالوش ذنب، روح بريئة ما أذتكش.

راقته الفكرة.. لا يجوز الانتقام من روح لا ذنب لها.

لِمَ لا ينتقم من الروح التي أذته؟

لِمَ لا تدفع (عشق) ثمن خطاياها.

أخذ قراره.

بالبكيرة التالية، خرج من غرفة (روز) منتشياً بفكرته.

سيتسلل لغرفة (عشق) السوداء، سيفتح بابها ويلج عتبتها ويطأ سريرها ويتكئ على ركبتيه الصغيرتين ويثب عليها وهي نائمة ويعتصر عنقها بيديه كما اعتصر عنق (قلوب) الزغب.

سيراها تقاومه وتتوسل إليه وتبكي راجية إياه أن يرحمها، ولكنه لن يلبي رغبتها وسيكون الرجل الوحيد الذي دفعها للصريخ والاستنجاد والاستغاثة.

سيكون الوحيد الذي أسقط عنها سوطها وكسر شوكتها بل وأنهى حياتها.

لم تكن (روز) بجواره على الفراش.. علّها بالمرحاض.

خرج من غرفته ذات الرائحة الكريهة المكتومة ومشى الطرقة ذات السجاد الفستقي المتسخ وفتح الباب الذي دوّى صوت صريره المزعج وابتهل حين رآها راقدة بالفراش بلا حراك.

سيباغتها وينهي أنفاسها.

ولكن السيناريو الذي رسمه تغيرت أحداثه، لم تكن بمفردها بالغرفة، كانت زميلاتها المومسات حولها وعلى رأسهم (روز).

لم تكن (عشق) نائمة، كانت مستلقية على ظهرها وهناك رجل رفيع كث الشارب يغطي وجهها بالملاءة البيضاء.

- البقية في حياتكم.

قالها وكمايسترو رفع عصاه لفريق الأوركسترا، بدأن يبكين وينشجن معاً.

كيف ماتت (عشق) دون أن يخنقها بيديه؟ دون أن يراها تقاوم؟ دون أن يشاهدها تتوسل إليه وتعتذر منه وتطلب السماح والغفران؟

بكى معهن وإلى هذه اللحظة لا يعلم أبكى لوطئة الشعور بالموت أم لأنه بكى قصاصاً لم ولن يذقه؟

***

- كان هيحصل إيه لو الإيدز خد روحها قبل اليوم ده بسنتين؟ صاح (هادي) في وجه (صافي) بغضب: ليه ما ماتتش قبل ما تسمح لهم يعملوا فيا كدا وتقبض تمني؟ ليه موتها ماتأجلش ساعة واحدة آخد فيها حقي منها بنفسي؟

ربتت (صافي) على كتفه بأعين دامعة وقسمات متأثرة

- عشان ربك بيحبك.. ربك مش عايزك توسخ إيدك بالدم.

ضحك ساخراً

- ترجمتك للموقف ركيكة.

رمشت ولم تفهم فحوى جملته. قرأ تعبيرات الغباء المرسومة على وجهها فبسَّط كلماته

- تحليلك للموضوع غلط.. مش هي دي الحكمة.

- أومال إيه الحكمة في كل اللي مريت بيه ده؟

تجرع المزيد من قنينة نبيذه وأردف حكايته مجيباً على سؤالها.

***

القاهرة، 1983

ماتت (روز) بعام ١٩٨٢.

توفت بالصباح وقبل أن تُدفن كان (ناجي) قد أُودع بملجأ أيتام بالظهيرة.

كانت حياته هناك بلا معايرة أو تنمر فجميعهم لقطاء أو منبوذون لا حول لهم ولا قوة.

ما من عزيز أو قريب أو سند أو أهل يتباهون بهم أو يُشعرونهم بالفوقية على غيرهم.

لم يشتم بالدار رائحة العهر أو الخمر أو المخدرات، لم يرى رجال عراة أو نساء متأوهات أو مرضى بيدوفيليا.

ولكنه أيضاً لم يرَ جرامافوناً، ولم يسمع صوت (إيديت بياف)، ولم يشعر بدفء عناق (روز) حين كانت تنيمه كل ليلة على صوتها وهي تدندن له ترنيمة فرنسية ولم يشتم رائحة المستكة التي تفوح من تلك العلكة اللاذعة التي كان

يعلكها مع العجوز الراحلة.

كان في سلام، ولكنه كان وحيداً صامتاً مصمتاً بلا روح، يتسلل إليه الضجر، و(ناجي) ابن العاشرة الآن لم يكن يكره بحياته شيئاً بقدر مقته للضجر.

كان أحياناً يصطاد هرة أو فأر يتسلل لحوش الدار من فوق السور أو من بين ثغور الحوائط ليقتله ولكن ذلك لم يشبعه أو يغنيه من جوع الثأر ورغبة القتل التي نُطفت بداخله.

كَبُرَ هدفه، فقد مرّ عام على بقائه بتلك الدار المملة الرمادية الجدران.

كوّن بعض الصداقات أثناء لعبه بالصلصال والطمي النوبي فقد كان أمهرهم في تشكيل التماثيل وكان زملاؤه اليتامى يتقربون منه ليعلمهم ولكنه كان يرفض نقل مهارته لأقرانه الجاهلين بما يدور بعقل محترف الصلصال.

كان يفكر، لِمَ لا يقتل أحد هؤلاء الفتيان ويعتصرهم بيديه على سبيل التجربة؟

هل الأمر مؤلم كما رأى بالأفلام؟

هل يشهقون ويقاومون ويصارعون الموت وتجحظ أعينهم وتبرز عروقهم من الألم؟

هل يتوسلون؟

قرر أن يعرف الإجابة اليوم.

كان بحوش الدار، يعلم الموقع المثالي والضحية المناسبة.

(مصطفى) عمره سبع سنوات فقط، صحيح أنه ضحل التفكير مقارنة بسنه ولكنه أطول وأضخم وأسمن وأقوى من (ناجي) وكان (ناجي) عاشقاً للتحدي.

- (مصطفى)! نداه (ناجي) وهو يلعب بالصلصال: تيجي معايا أوريك حاجة عجيبة؟

- حاجة إيه؟

- شجرة بتطرح شوكولاتة.

- يا سلام؟

- والله.. أنا حفرت حفرة رميت فيها قطعة شوكولاتة وقعدت أرويها كل يوم في الشمس لحد ما عملت شجرة شوكولاتة لذيذة جداً.. تيجي تاكل معايا؟

داعب السمين كرشه ولعق شفتيه

- أنت بتضحك عليا. مافيش حاجة كدا.

- طب تعالا والميّة تكدّب الغطاس.

بلع الساذج الضخم الطعم.

سحبه (ناجي) من يده صوب جانب هادئ وخَرِبْ من الدار بالقرب من المخزن الذي يخبرهم المشرفون بأنه غرفة الفئران ويهددونهم بها كلما أخطأوا.

- دي أوضة الفيران.

- مانا زرعت الشجرة جانبها عشان العيال بتخاف تيجي هنا.

- يعني ماحدش هياكل منها غيرنا؟

- أيوة. بس اوعدني.. الشجرة هتفضل سر.

تلفت (مصطفى) حوله

- هي فين الشجرة دي؟

استعد (ناجي)، سيضرب رأس (مصطفى) بذاك الحجر الملقى جانباً أسفل الشجرة فيسقط ثم يعتليه ويخنقه بيديه ويشاهد روحه تغادر بدنه و..

- (ناجي)!.

قاطع صوت المشرف السَمِج لذة أفكار (ناجي) الإجرامية وهو يناديه من الخلف فأنزل الفتى يديه اللاتين كادتا تقتلان

زميله

- تعالا معايا.

ابتسم (ناجي) بخبث

- بس أنا لسة ماعملتش حاجة.

- لما أقولك تيجي يبقى تيجي من سُكات.

قالها المشرف وهو يجذب (ناجي) من ياقة قميصه ويدفعه بقوة أمامه.

نعم، لم يكن (ناجي) الصغير يتعرض بالدار لأذى جنسي من أي نوع، ولكن الأذى البدني كان مبرحاً.

كان كل مشرف مزود بخرزانة رعناء متلهفة للسع الصغار ولم يكن رنين ألمها يختلف كثيراً عن لسعات سوط (عشق) وهي تجلد ظهور عشاقها.

مشى (ناجي) الذي صار يحترف إغاظة من حوله وإثارة حفيظتهم بنظراته وكلماته وتكسيره للأوامر ومعاندته لتوجيهات المشرفين والأمهات المزيفات اللاتي يتظاهرن بحب الأطفال والعناية بهم أمام الزوار والكافلين والمتطوعين فحسب ولكن حين تلتف الظهور، لا يرى منهم شيئاً سوى لسعة الخرزانة وصفع الوجوه.

قاده المشرف الأسمر إلى غرفة مدير الدار.

فَهِمَ (ناجي) أنه اقترف خطأ يجهله ولا يهم أن يعرف ماهيته ولكنه تيقن من أنه سيذوق ضرباً مبرحاً عقاباً له عمّا اقترفه. وهو أمر صار يتلذذه وكأنه صار كأحد عشاق أمه المتمتعين بالعقاب والأذى البدني.

ولكن الغريب أنه دخل الغرفة ليجد مدير الدار مرتدياً أكثر بدله أناقة وتفوح من الغرفة الفسيحة رائحة البن المطحون الطازج.. إنها القهوة المخصوصة التي لا تُقدم سوى للمتبرعين الأثرياء والمتكفلين باليتامى.

- ادخل يا (ناجي) يا حبيبي.

قالها مدير الدار الهلامي الحجم بابتسامة زائفة.

أطل (ناجي) برأسه فرأى الضيوف.

امرأة وقورة الملبس، شعرها الأملس يفترش كتفيها المرمريتين ويقابلها زوجها.

كان أرستقراطي الهيئة يشبه «الأفندية ذوي الطرابيش الذين روت له (روز) عنهم أيام نشاطها كباغية متمرسة.

كان الجالس واضعاً ساقاً فوق الأخرى، فتأمل (ناجي) حذاء الضيف اللامع وبدلته السوداء الأنيقة التي لم تلمسها

الغبرة من قبل.

كان كثيف الشعر، ممشوق القوام، يرتدي ساعة رولكس مرصعة وسلسلة ذهبية واضحة من أسفل ياقة قميصه الناصع البياض وتفوح منه رائحة عطر فرنسي.

دقق (ناجي) النظر به خصيصاً حتى توقف عند أظافره، فهو لم يرَ رجل نظيف الأظافر لامعها من قبل.

- قرب يا حبيبي ماتخافش.. سلم على بابا (بسيوني).

قالها المدير وهو يشير صوب الجالس مدخناً سيجاره الكوبي وهو يتفحص الصغير.

اقترب (ناجي) من (بسيوني) ثم سأله

- أنت بتبص لي كدا ليه؟

- مش قولنا الكبير نقوله حضرتك مش أنت؟

قالها المشرف بابتسامة تشي بأن عشر خرزانات سترن على يد (ناجي) بعد رحيل الضيف.

- مافيش داعي لحضرتك دي قالتها السيدة المحتمشة: إحنا هنبقى عيلته.

- هنبقى عيلة أزاى؟

قالها الصغير متهكماً.

- إحنا حابين إنك تيجي تعيش معانا في البيت.. حابين نبقى بابا وماما ليك.

قالتها السيدة بينما ظل (بسيوني) يتابع الحديث فحسب.

- بس أنا ماعنديش بابا.

- وإحنا كمان ماعندناش ابن قالتها السيدة المكلومة بصعوبة: إيه رأيك نكمل بعض ونبقى أسرة؟

فكر بجملتها للحظات ولكنه لم يستوعبها.

- يعني إيه؟

- بقى ده أذكى طفل عندكم؟

أخيراً نطق (بسيوني) مدخن السيجار.

كاد المدير أن يجيب ولكن (ناجي) قاطعه بغطرسة

- أنا الأول على الدار والمدرسة، وبجيب الدرجات النهائية في كل المواد والمدرسين كلهم بيقولوا عليا أشطر واحد هنا بس الست دي بتقول كلام غريب، ماحدش بيتبنى أطفال في سني، كلهم بياخدوا اللي بيرضعوا عشان يضحكوا عليهم ويفهموهم إنهم ولادهم ويكبروا مش فاكرين حاجة.

نظر له (بسيوني) وقد رفع حاجبه وهو يجيب في زهو:

- بس إحنا مش عايزينك تنسى أهلك الحقيقيين ولا إنك كنت في الدار هنا وإحنا اللي خدناك منها.

لقد انتقى (بسيوني) مشترياته وأكد على ذلك حين استدار لصاحب الدار معلناً

- خلاص، هناخد ده.

لم يكن ينقص سوى أن يطلب منه أن يلفه له بكيس بلاستيكي ويضعه بالسيارة.

***

القاهرة، ١٩٩١

مصمم الألماس (بسيوني الحكيم) تبنى (ناجي) وضمه لأسرته لثمانية أعوام.

لماذا؟

لأن صانع الحلي يتاجر بالمخدرات، وزوجته تعلم ولكن الأموال التي تُدر عليها وتُخبأ تحت غطاء تصميم الحُلي أخرستها.

الأثواب ذات الماركات وبطاقة الائتمان التي لا حد لها

والسفر حول العالم جعلوها تنسى لِمَ اعترضت على تلك التجارة الحرام من الأصل واتخذت من سفسطة زوجها وثيقة حين أجابها

- أنا ما بتاجرش في سلاح رصاصه هيموِّت روح ولا آثار ملك الشعب والدولة.. أنا تاجر، عرض وطلب، ببيع سلعة الناس بتطلبها وتشتريها بمزاجها وبتتبسط بدون ما أمد إيدي في جيب حد ولا أخد قوته من طبقه.. فين الحرمانية؟

أطعمها الكافيار والجمبري والمال الحرام وحقق لها كل أمنياتها عدا الإنجاب.

إثنى عشر عام من الزواج بلا نجل ولا سليل لملايين (الحكيم).

أحضر لها أدوية من كل بقاع العالم، عرضها على الدجالين والسحرة ولكنها لم تحمل.. ظنت أن رحمها السبب.. ولكنها لم تكن تعلم الحقيقة.

حقيقة أن (بسيوني الحكيم) كان مشوه المَني لا أمل في نبته ولا رجاء ولكن ذكورته منعته من مصارحة زوجته التي عشقته منذ كان صبي صائغ حُلي الحي ويعيشان بزقاق ضيق إذا احترق ستعجز سيارات الإطفاء عن الوصول إليه.

ماذا لو قررت أن تطلب الطلاق منه وتبحث عن غيره ليهبها

طفلاً؟

كشرقي أصيل، قرر أن يقلب الآية ويحول نفسه ممن يصمهم مجتمعنا بناقصي الذكورة إلى بطل وفي لحبه يتحمل رحم زوجته الجدب ولا يفكر بالزواج من غيرها، إلى أن فاجئته بعيد زواجهم أنها حبلى.

أخصّبت بويضاتها بمنى غيره؟

تملكه الغضب وسيطرت عليه فكرة أنها خانته فانفعل وواجهها بالحقيقة.

كيف لها أن تحمل إن كان يستحيل على نطفة واحدة من المئة والثمانين مليون الذين يضخهم برحمها أن تصارع وتنجو حتى تصل لبويضة لتلقحها؟

صفعها، فركلها، فأبرحها ضرباً حتى فقدت وعيها ونزفت.

نقلها للمشفى فأخبره الطبيب أن جنينها مات وأخذ معه رحمها تذكاراً.

كلم طبيب الذكورة خاصته، وقص عليه ما صار فأجابه "ألم أخبرك مئة مرة أن هناك أمل ١٪ أن تصير أباً؟

فقد الواحد بالمئة خاصته ومعه فرصته الأخيرة للأبوة من تلك التي عشقها لعقود.

اعتذر منها ومما اتهمها به.

كان من المفترض أن تنفصل عنه وأن تقاضيه أو أن تفترسه بأسنانها ولكن الأموال تُخرس.

صالحها ببضعة ملايين وسيارة جديدة ورحلة لأوروبا وحُلي.. وطفل.

اختارا أن يأخذا طفلاً من الميتم المحيط بالحي الذي سكناه يوماً.

على الطفل أن يكون كبيراً لا رضيعاً بكّاءاً مزعجاً وعليه أن يكون أذكاهم وأنجبهم ولديه مواهب فنية تليق بأسرة (الحكيم) فوقع العطا على (ناجي).

التزما بشهادة ميلاده التي أصدرتها له الدار بعد أن ألقته العاهرات هناك بلا شهادة ميلاد فلم تكن (عشق) مهتمة بتسجيل أي وثيقة تخصه.

أضاف له (بسيوني) مجازاً لقب (الحكيم) ليشعر أن اسمه سيظل على وجه البسيطة بعد وفاته حتى وإن كان بشكل صوري.

علمه تعليم فرنسي عالٍ المستوى وأغدق عليه بالمال والملابس والعطور والسفر والذكريات.

أعطاه دروس البيانو والتشكيل والنحت والفرنسية والإنجليزية والإيطاليا والألمانية والإسبانية.

أعطاه كل شئ عدا الكرامة.

تعمد أن يخبر الجميع أن ذاك الفتى الذي عطف عليه وغسل ماضيه بأمواله وكرمه ليس سوى ابن مومس ماتت بالإيدز.

أترى ذاك المراهق ذا السترة الجلدية والحذاء الغالي والرائحة العطرة وديل الحصان الأمريكي؟

لقد ولد ببيت دعارة وألقت به العاهرات صديقات أمه بدار أيتام، نعم، أنا تبنيته وغيرت مجرى مستقبله.

أترى الصبي الذي يجيد الرقص والغناء والنحت والعزف ويتكلم أربع لغات أوروبية بطلاقة؟

أجل، أنا الذي علمته كل هذا وبفضلي تحول من نجل عاهرة مستقبله أن يكون قواداً إلى فتى مثقف ذي قيمة وشأن.

لقد صار لـ(ناجي) غرفة أكبر من بيت الدعارة كله بأربع مرات، وأصبح يملك جرامافوناً مطعم بالذهب ومكتبة كاملة من أسطوانات (إيديت بياف) إلا أنه ظل بلا أصل، بلا أهل،

بلا جذر.

ظل مصدر سخرية ونميمة وتنمر كل من حوله، فجميع زملائه من طلاب المدرسة الفرنسية ومن نسل الأرستقراط ورجال الأعمال يعرفون عنه تلك التفاصيل والفضل كل الفضل يرجع لـ(بسيوني) الذي لا يفوّت فرصة دون أن يذكر هذا لضيوفه ومعارفه حتى يمطر عليه ضيوفه بالثناء ويغدقون عليه بالمجاملات والانبهار بكرمه وعطفه على الأيتام وعلى الثواب العظيم الذي سيلقاه بالجنة.

لثمانية أعوام متتاليا، لم يكن (ناجي) يعود لمنزله دون علامات الضرب والمشاجرة على بدنه بسبب معايرة المراهقين الفظّين له وتنمرهم عليه ومناداته بابن العاهرة وعليه، أيقن أنه ما من فرق بين مرتادي المدرسة الفرنسية التي تُدفع مصاريفها باليورو الأحمر وبين أبناء الحارة ممزقي المنامات ومرتدي الأحذية المثقوبة ولاعبي البلي بالتراب.. جميعهم نعتوه بالألقاب والألفاظ نفسها.

وهنا تساءل، لِمَ أخذه (بسيوني) من دار الأيتام؟

لِمَ لم يتركه وشأنه حين كان ينحت تماثيل الصلصال في هدوء ويهيم بأحلام القتل خاصته وأعاده لهذا الكم من التنمر والإساءة المستمرة التي يحياها يومياً دون أن يجد فرداً واحداً يصادقه أو يسانده أو يدافع عنه.

صحيحٌ أن زوجة (بسيوني) كانت حنونة عطوفة وكثيراً ما تنهر (بسيوني) على طريقة حديثه عن (ناجي) إلا أن (ناجي) لم يختر أن يتابع هذا الجانب الممل من القصة حيث سيدة حُرمت من الإنجاب فتبنت طفلاً وأحسنت معاملته.. رأى جانب (بسيوني) القاسي أكثر تحدياً ومتعة.. خاصة الجزء الآتي:

تخرج (ناجي) في مدرسته الثانوية وقرر أن يسافر لفرنسا لدراسة النحت وأن يحيا الباقي من حياته هناك بعيداً عن أي مسميات ومصنفات اجتماعية فُرضت عليه بأرضه.

- مافيش سفر.

قالها (بسيوني) قاطعة لا رجعة فيها.

مط (ناجي) شفتيه ماضغاً علكته وهو يهز ساقه على الكرسي المقابل لمكتب (بسيوني) المنزلي الفخم وهو منشغل بمراجعة بعض الأوراق وإطفاء سيجاره بالمرمدة الكريستالية:

- ليه؟ مش هتقدر على بُعدي؟

قالها ساخراً وهو يطرقع لبانته.

- (حنان) اللي مش هتقدر.

- طُز.

قالها (ناجي) ببرود فرفع (بسيوني) حاجبه بغضب

- بطل وساخة واتكلم عن أمك باحترام.

- pardon يا مسيو (بسيوني)، (حنان) مش أمي، أنا أمي كانت مومس.. أنت نسيت؟

- المهم إن أنت اللي ماتنساش أصلك الوسخ والوحل..

- اللي أنتشلتني منه.. أنت أنقذتني من مستقبل كله دعارة ووساخة، كان ممكن نهايتي تبقى قواد بيسرّح أمه وصحابها أو بيسكلتة بايعة نفسها للحمام الأبيض ابتسم ببرود: أنت مش مديني فرصة أنسى.

- كويس.. خليك حافظ.

- عقبال ما أنت كمان تحفظ.

كالعادة، برود (ناجي) وجرأته أربكت (بسيوني)

- أحفظ إيه يا ابن...

- تحفظ إن منظرتك بأصلي الوسخ اللي أنت نضفته مش هيحسن من صورتك كراجل بقاله تسع سنين بيعاني من ضعف جنسي مخزون العالم من الفياجرا مش هيقدر يعالجه.

انقبضت ملامح (بسيوني)، أنى له أن يعرف سره الصغير الذي ظن أنه لن يخرج من غرفة نومه.

أتشتكي له (حنان) من ضعف زوجها الجنسي الذي تلى عجزه عن الإنجاب وصاحب بياض شعره وذقنه التي شابت؟

ابتسم (ناجي) وضحك منتشياً من تعبيرات وجه (بسيوني) القلقة والغاضبة

- ماتستغربش يا مسيو (بسيوني). أنا متربي في بيت دعارة وأمي بنت ليل، جيناتي وتاريخي يخلوني أشم الحاجات دي عن بُعد.

أجابه (بسيوني) بلغة واحدة.. العنف.

ألقاه بالمرمدة الكريستالية ولم يحاول (ناجي) أن يتفاداها ولكن (بسيوني) كان فاشلاً بالتصويب.

لم يرتطم بوجه (ناجي) سوى طرف المرمدة بعظم حاجبه فانفتح ونزف، ولكنه لم يتألم بل ضحك وكأنه وصل لمرامه ونجح في إغاظة وإغضاب متبنيه.

نهض (بسيوني) من على مكتبه وانقض على (ناجي) وخنقه بيديه

- لولا إن (حنان) روحها فيك، كنت دفنتك في أرضك.

أحب التحدي وأراد أن يزيد نصيبه من الأدرينالين

- (حنان) حالياً روحها فى أي حد يعوضها عن اللي أنت حارمها منه، خصوصاً لو خبرة زيي.

لكمه مرتين في نفس الموضع الذي فُتح فيه حاجبه فتناثرت دماءه على وجه (بسيوني).

- ورحمة أمي لأقطع لك لسانك اللي ماحيلتكش غيره ده.

- عركة ولا إيه؟

قالها صوت الإسكندراني الواقف عند عتبة باب المكتب وهو يشاهد تلك المشاجرة.

التفت (بسيوني) ليجد صاحب الألوان الفاقعة المتداخلة والسروال الأبيض القصير والصندل البُني مدخناً أفيونه.

- مشلفط وش ابنك ليه يا ولا؟

تركه (بسيوني) فلاحظ (سلطان) الدماء الكثيرة التي لونت وجه (ناجي) فانقبضت ملامحه وأبعد نظره عنه بينما صاح (بسيوني) مستشاط غضباً

- ماتقولش ابنك.. ده ابن حرام.

- ماشي يا ابن الحلال قالها (سلطان) ساحباً النفس الأخير

من أفيونته وأشار له بطرف يده: خليه يمسح وشه ولا يتدارى في حتة.. عايزك.

ابتسم (ناجي) مستفزاً أياه

- أمشي ولا دي كمان هتحتاج فيها مساعدة صديق؟

ضحك ساخراً فلكمه (بسيوني) ثانية فصاح به (سلطان) ليتوقف عن نثر الدماء بالغرفة

- ركز معايا يا ولا.. أنت اتفقت مع (مخيون)؟

تكهرب (بسيوني) وترك (ناجي) والتفت لـ(سلطان) مرتبكاً

- لأ، طبعاً.. اتفاق إيه اللي مع (مخيون)؟ أنا..

قاطعه (سلطان) على مهل وأشار له صوب النافذة بتروٍ

- بص كدا من الشباك.

استدار (بسيوني) بقلق وإذ تفاجئه دائرة ليزر القناصة الحمراء تتوسط جبينه عبر زجاج النافذة.

ضحك (ناجي) وصفق بأرستقراطية وعلق بلكنة فرنسية ساخرة

- Surprise!.

غمزه (سلطان) وأردف ناظراً لـ(بسيوني) بامتعاض

- يا أخي حتى الولا اللي عايش في كنفك مش طايقك.. أنت مين بيحبك يا ولا يا (بسيوني)؟

داخ (بسيوني) فجلس على الكرسي قصير الظهر لتظل النافذة وكرسي (ناجي) خلفه ثم توسل

- كانت وَزِة شيطان، أنا..

- أنت طمعت واتسرعت.. وأنا ماكرهش في حياتي قد الطمع والتسرع.

انساب العرق على جبينه وأرتعشت يداه

- ما أنت بردو ماقدرتنيش يا (سلطان)، كل السنين دي بتعاملني كإني صبي من صبيانك مع إن أنا اللي شايل الشغل كله على كتافي.

- طب ما أنت فعلاً صبي من صبياني يا ولا.. من إمتى و(المايسترو) له شريك!.

- حتى لو، أنت عمرك ما حفظت لي كرامتي ولا وضعي وبتهيني قدام اللي يسوى واللي ما يسواش ومصغرني في السوق.

- تقوم حاطط إيدك في إيد عدوي بعد السنين دي كلها.. ده أنت كنت جايلي حافي يا ولا، دلوقتي بقيت بيه نظر

لمكتبه الفسيح وتكلم بسخرية مسرحية: هذا من فضل (المايسترو).

بكى كالأطفال

- أنا آسف، أنا بس كنت..

- آسف دي تقولها لمراتك لما تكحت لها الحلة التيفال بالمعلقة.. أنا ماعنديش أسف يا (بسيوني).

- طب خليني أعوضك.. هقدم لك راس (مخيون) على طبق من دهب و..

- هو أنا نسيت أقولك قالها (سلطان) وهو يجلس على المقعد المقابل لكرسي (بسيوني) واضعاً ساق فوق الأخرى محركا أصابعه النافذة من الصندل المفتوح وأردف بفخر: اليوم في تمام الساعة العاشرة مساءاً، واحد من مساعدين عزرائيل زاروا (مخيون).. ادعي له. زمانه بيتسأل عن ربه ودينه ونبيه.

نشج وأجهش بالبكاء.

- لأ.. لأ يا (سلطان).

- زي ما الأمريكان بيقولوا يا (بسيوني).. it's too late..

أنا قَعدت مع فريق العلاقات العامة بتاعي.. ولاد الصرمة

دول مقنعين أوي يا أخي.. قالوا ماكتفيش بقتل (مخيون) وإني لازم أخلص عليك بعد الحركة الزفرة اللي أنت عملتها دي عشان تبقى عبرة.

زاد بكاء (بسيوني) وانتحب فزفر (سلطان) بضيق

- ماتعيطش زي النسوان.. على الأقل موت راجل.

وقف (ناجي) خلف (بسيوني) واضعاً يديه بجيبه وضحك ساخراً فالتفت له (سلطان) متعجباً

- بتضحك على إيه يا ولا؟

- أصلك مش هتقتله.

تعجب (بسيوني) و(سلطان) والتفتا له.

رفع (سلطان) حاجبه بينما أردف (ناجي) الواثق من نفسه

- أنت من ساعة ما دخلت وأنت بتتجنب تبص لوشي بسبب الدم اللي عليه، ولو عايز تقتله كنت قتلته بنفسك أو خليت القناصة بتوعك يخلصوا عليه برصاصة في نص راسه قدام عينيك عشان تفش غلك وتدفعه تمن خيانته لولي نعمته. بس أنت بتخاف.. أنت عندك فوبيا من الدم.. مع إنك ممكن تقتله من غيرماينزل منه نقطة دم واحدة.

حك (سلطان) ذقنه بفضول محادثاً ذاك المراهق العليم

بشئون القتل

- أسمه يعني؟

- السم ده للجبنا قالها وهو يفك حزامه: الراجل يخلص بإيده.

فعلها (ناجي).

نزل بحزامه الجلدي المتين على كتفي (بسيوني). لف طرفيه حول عنقه. جذبه بعنف للخلف.

بدأ يخنق (بسيوني) بحزامه وأوصد قبضته عليه وظل يسحبه للوراء.

قاومه (بسيوني) وخربش معصميه وخدش يديه في محاولة مستميتة لجذب الحزام في الاتجاه المعاكس ولكنه فشل.

أسند (ناجي) ظهر الكرسي بقدمه وجذبه بشكل أشرس فانقلب بالكرسي على ظهره.

لم يفلت قبضته بل أجلس نفسه أرضاً وفتح ساقيه ليوسط ظهر وعنق ضحيته بينهما ويوصد ركبتيه على رقبته ويُحكم حزامه حتى بدأ الأمر.

صارت رؤية (بسيوني) مموهة. دوّي طنين بأذنيه تبعه

صمت. شعر بحريق في عنقه وصدره. هرب الأوكسجين. شُلت المفاصل. أرتخت الأطراف. ساد الظلام. توقف النبض.

بعد عشرة أعوام من أحلام اليقظة فعلها (ناجي).. أوقع قتيله الأول.

نهض وقفز في الهواء وترك الحزام مربوطاً حول عنق (بسيوني).

مازال حاجب المراهق ينزف ولكنه لم يبالِ بذاك الاحتراق الذي سببه جرحه، لقد جرب ذاك الإحساس الذي يراوده منذ كان بالثامنة من عمره.

وقد كان إحساساً رائعاً.

أخرج (سلطان) أفيونته وأشعلها وهو يراقب (ناجي) يعوي كالذئب الظافر حول جثة (بسيوني)

- قتلته ليه؟

أوقف (ناجي) احتفاله القصير وقال لاهثاً بسبب المجهود الذي بذله في قتل مربيه

- دمه تقيل.

مط (سلطان) شفتيه وهز رأسه متفقاً

- عندك حق.. المرحوم كان يلطش أشار له بالجلوس فقعد أمامه بينما نفث دخانه: ألا هو أنا باين عليا أوى موضوع الـ... سأله وهو يعطيه منديلاً ليمسح دماءه.

- الهيموفوبيا؟

نطقها له (ناجي) ماسحاً دمائه بالمنديل بينما نظر له (سلطان) مستفهماً فوضح له

- فوبيا الدم.

هزّ (سلطان) رأسه فأردف (ناجي)

- لأ، تقدر تقول إن أنا اللي باخد بالي من التفاصيل بزيادة.

- ما يمزجنيش غير المجرم المثقف نفخ دخانه: ناوي تعمل إيه بكل التفاصيل اللي عرفتها دي؟

- أنت اللي هتعمل إيه ببصماتك والكاميرات والخدم والأدلة و..

- أنا شغال في المجال ده من قبل ما أبوك يبلغ.. ماتخافش عليا.

ابتسم (ناجي)

- يعني أنت كدا مافضلكش غيري.. d'accord.. عندك

حلين، يا تقتلني عشان مايبقاش في شاهد عليك، يا تشغلني معاك.

- في المخدرات؟

- في القتل. سمعت (بسيوني) وهو بيحكي لـ(حنان) إن عندك فريق شغلنته قتل اللي بيضايقوك واللي بيضايقوا اللي يدفعوا لك.. أنا عايز أبقى منهم.

- عايز تبقى من صبياني؟

- من رجالتك.

أنهى أفيونته فأخمدها بالمرمدة ثم وضع عقبها المطفأ بجيبه.

- ماتنفعش، أنت لسة ماستويتش والزمن ما نفخش فيك حكمته.. شوف سيبته يجرحك وأنت بتخنقه إزاى. دلوقتي دمك وطبقات جلدك كلها تحت ضوافره.. يعني هيجيبوك.

- هقطع له كفه وأدفنه بعيد.

رفع (سلطان) حاجبيه الكثّين متفاجئاً بدموية المراهق ذي الصوت الناعم والنبرة الأرستقراطية.

- الشغل معايا محتاج حكمة وهدوء.

- وأنا هادي.

- لأ. أنت عندك الروح والموهبة بس ناقصك الخبرة والتأني.. أنت قررت تقتله من غير أمري، وأنا الشغل معايا كله تنفيذ أوامر يا..

- اسمي (ناجي).

- لأ. أنت اسمك هيبقى (هادي) عشان أنا الغلط معايا مافيهوش نجاة وعشان اسمك الجديد يفكرك تهدا قبل ما تَهِب منك.. وهسيبك تحتفظ باسم (الحكيم) عشان تفتكر أبوك اللي كان أهم صبي عندي لما أتعوج نهايته كانت إيه

نظر (سلطان) بالأفق وهو يرسم الأحرف بيديه في الهواء: (هادي الحكيم) تأمل وقع الاسم: اسم فني، يا جدع.

الفصل الثالث عشر

تحول تعاطفها معه إلى رهبة وخوف منه.

- يعني أنت شغلانتك قتال قتلة؟

- أنتِ مش وعدتيني يا (صفاء) إنك مش هتحكمي عليا؟

- أنا افتكرتك يا خويا عندك أزمة نفسية ولا ضعف عشان اللي حصلك وأنت عيل، مش إنك مختار تقبض أرواح الناس بكيفك ومزاجك عشان الدنيا مالت عليك شوية.

- شوية؟

- آه شوية. لو كل واحد اتلسع من الشوربة حرق جتة اللي طبخها له زيك، الدنيا هتبقى جهنم.

وضع يده على كتفها ليهدأها

- أسمعيني يا (صفاء) أنا..

دفعت يده ممتعضة

- إيدك.. أنت بتقتل عشان إيه؟ شوية فلوس؟

- أومال أنتِ وأمك بتبيعوا نفسكم عشان إيه؟ الحفاظ على البيئة؟

- يا سيدي أحنا رِمم وبنبيع جثتنا بس على الأقل ما بنأذيش ومابنغدرش ولو كان في حد بيتأذي فهو إحنا.. إنما أنت..

- أنا أداة من أدواته.. الناس كلها بتكره عزرائيل وبتخاف منه مع إنه ملاك بس ربنا كلفه بمهمة ماحدش غيره يقدر يشيل مسئوليتها واستحمل كره الناس له مع إنه مظلوم.

- ده اللي أنت بتقوله لنفسك عشان تعرف تنام بالليل.

- ومين قالك إني بعرف أنام؟ أنا لا بعرف أنام ولا أعيط ولا أحس ولا حتى أحب زي باقي البشر.. أنا أمي دمرت أي إحساس بشري جوايا حتى الإحساس بالوجع، خدي قالها وهو يسحب سكين التفاح ويعطيه لـ(صافي) ويكلمها محمساً إياها: اجرحيني بيها، هتلاقيني ما بتوجعش.. أنا بقيت زي التماثيل اللي بنحتها شكل حلو وجذاب بس من جوا.. فراغ.

ترك السكين بينه وبينها وأخذ قارورة النبيذ ليتجرع منها المزيد ثم أردف

- من سنة 1979 وأنا بحلم أخد حقي منها.. كل اللي قتلتهم دول ما شبعوش الحاجة اللي عندي في إني أخد روحها بإيدي زي ما هي خدت مني طفولتي وشبابي

ورجولتي وكرامتي بدم بارد.

اقترب من (صفاء) مردفاً بأعين غاضبة

- بمعدل مرة أو اتنين في الأسبوع كنت بلف بعربيتي وأنقي واحدة منكم على أمل إن قتلكم هيشفي غليلي من جنسكم النجس بس مافيش فايدة أقترب أكثر مما ينبغى فتوترت: كنت بقولك تحليلك للي حصلي وأنا صغير ركيك عشان الحكمة من اللي مريت بيه في طفولتي وشوفته من اللي شغالين شغلانتك أنتِ وأمك هو إن ربنا زرع في قلبي الكره والقسوة ناحيتكم عشان أخلص الجنس البشري من وساختكم.

وثب فوقها وكعادته خنقها ولكن تلك المرة لم يتركها تقاوم ولم يكن متمزجاً بما يفعله بل كان غاضباً متهيجاً وكأنه ينتقم من قدره فيها

- بستمتع وأنتو حاسين بالضغط على رقبتكم وودانكم بترن ورؤيتكم بتهتز والنفس بيتسحب منكم ببطء.

شهقت بصعوبة باحثة عن الهواء وهو يكمل الوصف لتشعر بكل تفصيلة يصفها (هادي)

- مفاصلكم تسيب وعيونكم تجحظ وعروقكم تبرز وتبدأوا تفقدوا الوعي.

لم تفقد الوعي.

لم تنسَ السكين الصغير الموضوع بينها وبينه.

سحبت سكين الفاكهة وغرزته في جانبه فرفع يديه فوراً عن عنقها متفاجئاً.

شهقت وسقطت عن مقعدها الخشبي لاهثة لتنزل على ركبتيها أرضاً فوق العشب النضر بمفاصل مرتعشة ورؤية مشوشة.

أخرج (هادي) السكين من جانبه وشاهد الدماء تجري صابغةً قميصه الأبيض بالحمرة.

ظل ينظر ليده ولـ(صفاء) التي تحاول النهوض والهرب فصاح نحوها

- على فين يا (صافي)؟ العدو أمامك والبحر خلفك.

قدرت على النهوض والركوض قليلاً ولكنها لم تعلم أين تذهب.

اتجهت صوب البيت الأوروبي الطراز ولكن بابه كان موصداً.

هربت حيث اللانش وصعدته ولكنها لم تجد مفتاحاً ولا مجدافاً ولا سبيلاً للنجاة.

لا تجيد السباحة ولا تجد بصوتها الذي أوهنه الاختناق القوة الكافية للصراخ وإن صرخت فمن مُنَجِيها؟

لم تفكر سوى بهاتفها، أخرجته من جيبها ولكنها فوجئت به يقف أمامها غير متأثراً بجرحه.

انتشل (هادي) الهاتف من يدي (صفاء) وفتحه بهدوء مخرجاً شريحته

- ماكنتش متصورك بالعنف ده.

كسر الشريحة لأجزاء صغيرة ثم ألقاها بالنهر ليتبعها بقية أجزاء المحمول الرخيص.

لقد صدق، العدو أمامها والنهر خلفها.

أدركت الوضع ولم يعد أمامها أية فرصة فبدأت تبكي بقلة حيلة.

خرت على ركبتيها ورفعت يديها صوبه داعية إياه أن يرحمها

- أنا ما أذتكش، أنا حتى مابشتغلش شغلانة أمك يعني قتلي مش هيشفي غليلك.

زفر (هادي) بضيق

- لأ لأ لأ يا (صافي)، قومي، قاومي، ما تتذلليش كدا.

- مافيش نجاة.. مافيش حل غير إنك ترحمني.

- أرحمك أزاى بعد كل اللي عرفتيه عني ده؟

- أنت اللي أخترت تَعَرَفِنِي، دلوقتي عايز تدفعني التمن وتقتلني؟ طب حكيت ليه من الأول؟

- عشان كنت محتاجك.. كنت محتاج حد ماعرفوش أحكي له كل حاجة عني وأفرغ معاه كل المشاعر والأحاسيس اللي خانقاني دي وبعدها يموت ومعاه سري.

- أقسم بالله مش هنطق بكلمة ولا هَخَرَج بس ارحمني أمسكت يده وقبلتها متوسلة: أبوس إيدك، أنا مش أمك.. أنا عمري ما أذيت حد مسحت دموعها كي يسمعها بشكل أوضح: الحياة كانت قاسية عليك فماتبقاش قاسي زيها.. ماتقتلنيش زي ما الدنيا قتلتك قبلت يديه ثانية وهي تنشج باكية: أبوس إيدك سيبني أرجع لأهلي اللي مالهمش غيري.

- عندك حق يا (صفاء)، أنتِ لا زي أمي ولا زي كل اللي قتلتهم تنهد: أنتِ ما تستاهليش نفس النهاية.

تعاطف معها فربت على كتفها وابتسم لها ثم أنهضها.

أمسك بيديها وجعلها تقف على قدميها ومسح دموعها عن

خديها وأرجع شعرها خلف أذنها ثم عانقها بشدة ضاغطاً على ضلوعها ليحتويها وهي تبكي وأخذ يهمس بأذنها

- أنا مش هحط راسك على الرف زيهم. بالعكس، أنا هتبنى قضيتك وأرحمك من القرف اللي أنتِ شايفاه في حياتك.. أنتِ ما تستاهليش تعيشي حياة نهايتها إنك هتستسهلي وتشتغلي شغلانة أمك عند أول فرصة تجيلك زي ما عملتي النهاردة.

- يعني إيه؟

- هبعتك لربك طاهرة قبل ما توسخي نفسك.

تبع كلماته أزيز رصاصته.

أندفعت الطلقة من مسدسه الذي سحبه من جيبه خلسة وثبته عند جانب رأسها في نفس اللحظة التي ضغط فيها الزناد لتخترق الرصاصة جانبي دماغها آخذة معها أنفاسها الأخيرة.

تلطخ وجهه بدمائها ثم سقطت ضحيته أرضاً لتخضب عشب حديقته ببركة دمها المنسالة من رأسها.

بكي لأول مرة منذ كان بالسادسة.

ليس لأنه حزيناً أو كئيباً، بل لأن لكل كوب سعة تخزينية

معينة يظل الماء يملأها حتى يصل لأقصاها وبعدها يفيض على الجانبين وهكذا كان حاله، لقد أمتلأ كوبه وطفح كيله ولم يعد لديه مساحة ليكبت شعوراً آخراً فبكى ونشج وما البكاء سوى عرض جانبي للآدمية.

نزل على ركبتيه أمام قتيلته ووضع يده على رأسها التي اخترقتها رصاصته وتحسس شعرها متمتماً

- ربنا رحمك يا (صفاء).

لثم قبلة على جبينها ثم دخل منزله.

خرج حاملاً جاروفه مستمراً في البكاء وكأنه يكتشف الدموع للمرة الأولى منذ أربعة عقود.

انعكس ضوء البدر على طرف جاروفه وهو يحفر على عمق تسعة أمتار حتى لا تنفذ رائحة جثتها فقد قرر أن يكرمها لحسن استماعها ولكونها عذراء لم تبغْ نفسها كباقي من حوَّل رووسهن لتماثيل من الشمع.

لم يسمع هذه المرة لـ(إيديت بياف)، لم يكن مستمتعاً بما يفعله.

أنهى الحفر بكتفين منهكين، ثم حملها برفق ووضعها بموضعها الأخير.

صب فوقها الأسمنت السائل ليمنع أي رائحة أو تجمع حشرات أو ديدان من أن تغزو حديقته الخضيرة ثم ردم فوقها.

حين انتهي والفجر، زيّن قبرها بالزهور المقطوفة من أشجاره وجلس بضعة دقائق.

لو كان يحفظ الفاتحة لقرأها ولكنه آثر أن يشغل القرآن على هاتفه وأن يأخذ عزاءها بنفسه.

لا يعلم كم مر من الوقت، ولكنه بدأ ينزعج من رائحة عرقه فأغلق القرآن وذهب للحمام وخلع ملابسه ونزل تحت الماء المنهمر على رأسه ليزيح الدماء المتجلطة على وجهه وبين يديه والطين الذي وسخه ولكنه تعجب من أن الدماء مازالت تنهمر مع الماء وهنا تذكر.

لقد طعنت جانبه بالسكين في بداية مقاومتها ولكن جسده كان دافئاً فلم يستشعر الألم.. أو أنه لم يعد يشعر بالألم في المطلق.

انزعج من فكرة اضطراره للذهاب لـ(سلطان) كي يجعل أحد أطبائه يخيّط جرحه لأنه متيقنٌ من أنّه سيوبخه لأنه مازال يمارس اصطياد العاهرات لقتلهن وعليه آثر كرامته.

نشف بدنه وخرج لركن الخمور لينتقى منه زجاجة

الـChivas.

سكب بعضها في صحن ووضع به إبرة ومقص وخيوط يتركهم دائماً بعلبة الإسعافات الأولية خاصته للظروف المماثلة، فلم تكن تلك المرة الأولى التي يخيط فيها جرحه لنفسه.

ارتشف الكثير من الويسكي وقرر أن يمضغ اللبان ويشغل (إيديت بياف) ليشتت تركيزه مركزاً بكلمات أغنيتها.

- لست بملاك يا (جوني)، وهذا الأمر لا يزعجني، ليلاً ونهاراً أفكر فيك، فهل تتذكرني؟ أنا التي لا تنام صباحاً إلا وهي حزينة عليك.. لأنك يا (جوني)، لست بملاك.

لم يكن في مزاج يناسب أن يردد وراءها كلماتها ولكنه حاول أن يشغل نفسه بسماع صوتها وهو يسكب الكحول على جرحه المفتوح ثم يئن غارساً الإبرة بجلده ليربط طرفي لحمه بالخيط ويشد عليهما.

ظل على الوتيرة نفسها، غرزة ثم رشفة من الويسكي ثم مقطع من (إيديت بياف) حتى انتهي وهو يعقد الخيط ويقصه ويلقي بأدواته ويغسل وجهه من العرق ويضمد الجرح ويلقى بنفسه على كرسيه المريح متجرعاً المزيد من الويسكي فاليوم تعرف على جانب هش حزين ضعيف لم

ترقّه مقابلته بنفسه.

سعل بقوة مباغتة جعلت ضلوعه تهتز وكاد أن يبكي ثانية ولكنه نظر حوله للتماثيل المتراصّة على الرفوف المعتلية فراشه ليذكر نفسه بهويته الشغوفة بالقتل التي لا تشعر لا بشفقة ولا ترحم على قتلاها ولكن تلك الموجة العاطفية الغريبة غمرته وظلت تذكره كيف تعاطفت معه (صفاء) وربتت على كتفه وعانقته لتحتويه وهو لم يلتمس هذا في بشر قبلها، ومع ذلك، أرداها برصاصة باردة.

كيف يختلف عن أمه السادية المجرمة الآن؟

رن جرس بيته ليقاطع حزنه.

تعجب، فهو وحيد لا ونيس ولا جار ولا زائر له.

ترك زجاجته ووضع سروالاً وسترة تستر جرحه وأخذ مسدس كفه الصغير ووضعه بجيبه تحسباً ثم نزل سلالمه.

فور أن اقترب من الباب تسحب على أطراف أصابعه ووقف خلسة ينظر من العين السحرية التي تتوسط بابه.

همس لنفسه متعجباً من هوية زائره

- (سالم)؟

اعتلت وجهه ابتسامة واسعة.

ود أن يصعد لغرفته ثانية ويرتدي ملابس أكثر أناقة ولكنه فضل ألا يترك صديقه ينتظر مطولاً على الباب فاكتفى بأن يسرح شعره بأصابعه ليعدله هو وحواجبه ثم يسعل ليصفى صوته الذي غبشه البكاء ثم فتح الباب باسم الثغر

- Bonsoir. يا أهلاً وسهلاً. شرفتني. والله أنا..

- أنت قتلت أخو مراتي؟

***

وضع (هادي) الشاي بالنعناع والكعك وطبق الفاكهة أمام (سالم) بابتسامة مضيافة

- أنا عارف إنك مش بتحب تشرب، فقلت الشاي هيبقى..

أخرسته رؤيته لـ(سالم) وهو يشعل سيجارته بلامبالاة واضعاً ساق فوق الأخرى ويعيد عليه سؤاله المقتضب

- قتلت (عمر) أخو (حبيبة) ولا لأ؟

انسل (هادي) صوب نوافذ الصالة الفسيحة وأخذ يفتحها واحدة تلو الأخرى وأشعة الصباح تتسلل من خلف الستائر وتحملها نسمات البكيرة ومعها رائحة الزهور الموضوعة على قبر (صفاء) بالخارج

- ده سؤال إجابته مش آه أو لأ يا (سالم).

- عندك حق عمّر مسدسه وهو منجعص على كرسيه مصوباً إياه نحو (هادي): أنا عارف الإجابة.. بس كنت عايز أتأكد.

زفر (هادي) واضعاً يديه بجيب سترته

- على فكرة، دي كدا تاني مرة ترفع فيها مسدسك عليا النهاردة أخرج من جيب سترته المسدس الصغير الذي دسه بها: على العموم، أنا مش هقاومك ألقى بمسدسه بعيداً عند قدم (سالم): بس أنت أكيد جَى تسمع مني اللي حصل وبناءاً عليه هتقرر تقتلني ولا لأ.. ولا أنا غلطان؟

أنزل (سالم) مسدسه وأشار لـ(هادي) بالجلوس أمامه.

جلس صاحب الدار وأخذ فنجان القهوة وبدأ يقص عليه

- (عمر) و(هايدي) بنت أخت (سلطان) كانوا عايشين مع بعض في شقته اللي في شارع ٢٠٠.

- عارف.

- أنا بقى ماكنتش عارف، لقيت (هايدي) بتكلمني وأنا بديها كورس النحت، بتطلب مني إني أقتلّها عشيقها اللي بيخونها مع بنت ليل.. حددت لها سعري. دفعت لي. نفذت.

- خلصت؟

- لأ ما خلصتش، أنا ماكنتش أعرف إنه أخو مراتك غير لما قتلته ولقيت صورهم سوا في الشقة، حتى ساعتها مافهمتش إيه صلة القرابة ولا ليه صور مراتك في بيت واحد كيفه بنات الليل زيه.

عمّر (سالم) مسدسه ثانية ولكن (هادي) أندفع قائلاً

- ماكنتش أعرف ولا (سلطان) نفسه كان يعرف ولا (هايدي) كانت تعرف عشان أنت اللي فاصلنا عن حياتك ومش معتبرنا عيلتك ومش بتعرفنا حاجة عنك فتبقى دي غلطة مين دلوقتي؟

- غلطتي؟

- بالظبط، أنت لو بتحبني زي ما بحبك وبتعرفني كل حاجة عنك ماكانش حصل اللبس ده وكنت قلت ل(هايدي) ماينفعش أقتل أخو مرات صاحبي وشريكي وخلصت على كدا.

حك (سالم) مؤخرة رأسه بفهوهة المسدس ثم سأله

- يعني (سلطان) عارف؟

- أنا نفذت من وراه، كنت واخد العملية private business بس الجحشة الصغيرة اللي كلفتني بالعملية دي

لسعت وبدأت تهلوس وتخرف وتقول لازم أتعاقب وكانت عايزة تبلغ عني وعنها فـ(سلطان) أمرني أقتلها.

- (سلطان) أمرك تقتل بنت أخته اللي رباها؟

- لو مش مصدقني، اسأله.

قلّب (سالم) كلام (هادي) بعقله وهو يتأمل ضوء الشمس المنعكسة عليه وكأنها تخترق نافذة قدس الأقداس لتتعامد على وجهه.

زفر (هادي) وتكلم بهدوء

- أنا غلطت بس مش عن قصد، وأنت ليك عندي حق عرب.. اتفضل، اختار هتاخده إزاي.

أعاد (سالم) مسدسه لخصره وتكلم بعقلانية

- حصل خير.

نهض ليخرج ولكن (هادي) استوقفه متعجباً:

- بس كدا؟

- أنا ماكنتش طايقه وحياته من موته مايفرقوش معايا، الفكرة إن (حبيبة) قلبها وجعها عليه لأنه أخوها الوحيد.. أنا كنت جَي أتأكد إنك مقتلتش حد يخصني بدون ما ترجع لي

حتى لو كان أوردر جاي لك من (الدَغَّش) نفسه.

- أنت عارف إني عمري ما هدوس لك على طرف يا (سالم).

- بس ده مش معناه إنك مش مديون لي، أنا ليا عندك حق وجميلة هتردها لي في الوقت المناسب.

استدار ليرحل ولكن (هادي) أمسكه من عضده برفق وكلمه بنبرة حنونة

- من غير جميلة ولا حق يا (سالم)، أنا عينيا ليك في أي حاجة تحتاجها نظر له (سالم) شزراً فأنزل (هادي) يده عنه سريعاً وأردف بصوت أكثر خشونة: إحنا عِشرة عُمر يعني.

خرج (سالم) وترك (هادي) يبتسم هائماً.

الفصل الرابع عشر

(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي.)

تلا القارئ سورة الفجر على آذان حاضري عزاء (عمر عاطف) الذين كان أغلبهم من الشباب زملاؤه بالجامعة والمدرسة والنادي وبعض الخالات والأخوال والأعمام الذين اعتنوا به وبـ(حبيبة) شقيقته منذ غرق والديهما بحادث باخرة أوروبية سياحية منذ اثني عشرعاماً.

كانت (حبيبة) بصوان النساء تبكي في حالة مفجعة فهي لم تتخيل يوماً أن تأخذ التعازي في شقيقها الأصغر قبل أن تستقبل مباركة الناس لها على زفافه.

كانت جالسة على كرسيها تبكي بقلب يهتز بين ضلوعها ألماً وصديقتها تؤازرها.

تلك الصديقة المسماة (عائشة شوكت) - والتي لا يجوز لأحدهم بمناداتها سوى باسم (شوشو) وكأن اسمها الحقيقي سراً عسكرياً - كانت ذات شعر أحمر أشعث تتطاير خصلاته الجافة من خلف أذنها فتبدو للرائي من المرة الأولى أنها شديدة الجاذبية والإثارة، ربما لأنها فاتحة البشرة ملونة الأعين وهذا ما يلفت نظر رجال الشرق ولكن إن دققت

بتفاصيل ملامحها سترى الصورة كاملة.

فقد كانت مقعرة الأنف، كثة الحاجب، بارزة الأسنان، صحيح أنها مستديرة الأعين الزرقاء كالياقوت ومكتنزة الشفاه الحمراء كالكرز إلا أن الهالات السوداء الداكنة أسفل عينيها والعروق الحمراء الجاحظة بمقلتيها وأصفرار أسنانها ونتوء عظام وجهها يجعلونك تقف عند وصفها إن كانت أجمل قبيحة أم أقبح جميلة.

ربتت (شوشو) على كتف (حبيبة) وهي تهوّن عليها بصوتها ذي البحة

- يا حبيبتي، ده في مكان أحسن مني ومنك.. لازم تمسكي نفسك عشان ابنك.

- مش قادرة يا (شوشو)، ده أخويا اللي ماليش غيره.

- ابنك والبيبي اللي في بطنك بردو مالهمش غيرك.. لازم تجمدي عشانهم.

- مش هتبرد ناري غير لما أعرف مين الجبان اللي قتله ورماه في الصحرا كدا؟.

- أكيد البوليس هيلاقوا المجرم اللي عمل كدا.

بدأت تمسح دموعها ثم تتأمل وجه صديقتها التي قوّتها

بكلماتها البسيطة ولأول مرة تلاحظ منذ بداية اليوم أن وجه صاحبتها تملؤه الكدمات

- إيه اللي في وشك ده يا (شوشو)؟ هو الحيوان ده مد إيده عليكي تاني؟

وضعت يدها على عينها حيث الكدمة الأكبر وقالت مرتبكة

- أنتِ في إيه ولا في إيه يا (حبيبة)؟ أطرقت للأرض وبدأت الدموع تتبلور بعينيها: أنتِ عارفة الغيرة لما تعمي الراجل.. المرة دي قرر يشك فيا مع مدرب ابني عشان لقاه بيتصل بيا.. أنتِ متخيلة إنه حتى مادانيش فرصة أشرح له إنه بيتصل بيا عشان أداء الولد في التمرين، نزل عليا ضرب وإهانة واتهامات.

هربت منها دمعتان مسحتهما بظهر يدها بيأس ثم علقت

- خلاص يا (حبيبة) والنبي ماتفكرنيش.. خلينا فيكي دلوقتي.

عانقت (حبيبة) صديقتها وكأنها سهت عن أنها هي التي بحاجة إلى الدعم بسبب وفاة أخيها الشاب ونست المكلومة جرحها وركزت على ضائقة وحزن صديقتها وهي تربت على رأسها.

ظلت (شوشو) تمسح دموعها حتى لمحت (هادي) يقف بسيارته البيضاء الكلاسيكية عند الصوان وينزل منها ببدلة سوداء في غاية الأناقة وحذاء لامع ورائحة راقية غطت العزاء.

ترجل من السيارة من الكرسي المجاور لـ(هادي)، (سلطان) ببدلة سوداء لم يحتمل قتامة لونها فكسرها بقميص بنفسجي صارخ الدرجة.

همس (سلطان) لـ(هادي) وهو يسير بجواره

- أبو أم سواقتك الخرا.

- جمد قلبك يا (مايسترو).

قالها (هادي) بسخرية وكأنه تعمد أن يخيف (سلطان) بقيادته المتهورة.

وصلا لصوان الرجال حيث وقف (سالم) عند مدخله بجوار عم (حبيبة) وخالها وابنها.

دخل (هادي) الأنيق و(سلطان) ذو القميص المضحك ليؤديا واجب العزاء.

وقف (هادي) عند أول الطابور يتبعه (سلطان)، صافح العم ثم الخال مكرراً الجملة نفسها

- البقاء لله.. البقاء لله.

كذلك فعل (سلطان) ثم توقف كلاهما عند (سالم) وكررا معاً

- البقاء لله.

- شكر الله سعيكم.

قالها بملامح خاليا من أي تعبير.

رأى (هادي) (أدهم) الصغير وداعب شعره

- حبيب أنكل، إزيك؟

لم يجِبه الصغير مرتدي الأسود الذي قطّب حاجبيه وبدى متضايقاً من مداعبة (هادي) لشعره فأعاد تشذيبه بينما أخرج (هادي) من جيبه شوكولاتة من النوع المستورد الباهظ الذي يتهافت عليه الصغار وانحنى صوب الصغير

- شوف جبت لك معايا إيه؟

مد الصغير يده ليأخذها ولكن (هادي) أبعدها قائلاً

- مش نقول الأول ميرسي وندي أنكل بوسة؟

أجابه العنيد الصغير

- لأ.

- ليه كدا بس يا (أدهوم)؟

- عشان أنا لا بحبك ولا بحب شوكولاتك.

انتشل الشوكولا من بين يده بعنف ثم ألقاها أرضاً وركض صوب أمه.

انتصبت قامة (هادي) وفرد ظهره وهو يضحك بغيظ معلقاً

- فعلاً، أحباب الله.

همس (سلطان) لـ(سالم)

- عايزينك.

هز رأسه واستأذن عم وخال القتيل ثم خرج ثلاثتهم من الصوان واتجهوا حيث الزاوية الخلفية الهادئة بعيداً عن صوت المكبّر وحركة المعزّين.

أخرج (سلطان) من جيبه شيك موقع باسمه ولكنه بلا أرقام عند خانة المبلغ وأعطاه لـ(سالم) قائلاً

- ده شيك على بياض.. دية المرحوم.

- مافيش داعي.

- لأ فيه. قانوننا إننا مانجيش على بعض، وأنا كدا جيت عليك.. آه هي غير مقصودة وآه سببها المشي ورا العيال بس

أهو.. أمر ربنا.

علق (هادي)

- عشان تعرف إن ماحدش فينا كان يقصد يدوس لك على طرف.

- عارف، بس الموضوع مش محتاج دية.

- يبقى خد الشيك واشتري للمدام ألماظة هدية قتل أخوها، مايخرسش الست غير الماس.

- أنا مابخرسش مراتي.. مافيش حاجة هتهديها غير إن البوليس يقبض عـاللي عملها ويتعدم قدام عينيها.

- في بيتها قالها (سلطان): عندي اللي يشيلها ويتعدم عشان نار الست (حبيبة) تبرد، ها، عندك طلبات تاني؟

- لأ قالها (سالم) ممزقاً الشيك: حصل خير يا (مايسترو).

- وده من أمتى التسامح ده؟

- قريب رخم وأنتو خلصتوني منه.. أستأذنكم أروح أخد عزاه.

تبادل (هادي) و(سلطان) النظرات المتعجبة ولكن (سلطان) أوقف (سالم)

- طب في طلعة النهاردة الفجر. هتطلعها ولا هتكون بتمسح دموع المدام؟

- مين؟

- ديلر معفص اسمه (منير)، خلص على أربعة من صبياننا من ساعتين، مش عايز يطلع عليه صبح.

هز (سالم) رأسه ودفس يديه في جيب سترته وأشار لـ(هادي)

- هستناك في نفس المكان.

تركهما عائداً للصوان فتابعه (سلطان) مستغرباً.

عادا حيث سيارة (هادي) الذي يحادث (سلطان) دون أن ينتبه لخطاه

- خلاص هسوق براحة.

- الغُمر مش بعزقة. أنا اتصلت بـ(زعفران) يجي يوصلني.

ارتطم كتف (هادي) بـ(شوشو) التي كانت خارجة من العزاء لتطلب القليل من المياه من النادل الذي تأخر.

بابتسامته الساحرة وأناقته الخارقة التفت لها واعتذر

- pardon يا هانم.

أخذ يدها وقبلها بأرستقراطية وأكمل مسيرته صوب السيارة.

أعجبت برُقيه فنست سبب خروجها من الصوان وعادت حيث مجلسها بجوار صديقتها المكلومة.

- (حبيبة)، مين ده؟

سألتها وهي تشير صوب (هادي) الذي يركب سيارته الواقفة أمام الصوان

- ده (هادي)، صاحب (سالم).

- شيك أوي، بيشتغل إيه؟

- نحّات.

أبتسمت (شوشو) ورددت الكلمة بابتسامة مغرية وهي تداعب خصلاتها المموجة

- نحّات.

***

يتظاهر الجميع بالحزن لتأدية واجب العزاء ثم يرحلون عائدين لحياتهم الرتيبة.

هكذا كان حال (شوشو).

انطلقت ذات الشعر الأحمر الوهاج بسيارتها عائدة لمنزلها وهي تحادث ابنها ذا التسع سنوات عبر الهاتف

- ماتعملش شقاوة عند عمته يا (مالك)، مش عايزين حد يقول إن ابن (شوشو) naughty.

- حاضر يا مامي.

- اتعشا كويس وماتسهرش، أوكيه؟

- أوكيه، باي.

- إستنا.. فين بوسة مامي.

أرسل لها قبلة طفوليا سمعت صوتها عبر الهاتف وردتها له

- تصبح على خير، I love you.

- love you, too.

قالها ثم أغلق الهاتف ليكمل لعب مع صبية عمته، وكذلك فعلت (شوشو) التي أنهت مكالمتها وهي تصف سيارتها أمام فيلا زوجها بالتجمع الخامس حيث الخلاء والصمت.

دخلت منزلها البارد وخلعت حذاءها ثم طلعت السلالم الرخامية الباردة وأغلقت على نفسها باب غرفتها بالمفتاح.

وضعت رداء نومها الأحمر القصير واستغلت فرصة أن

زوجها قد سافر لإنجلترا كما أخبرها اليوم بعد أن أبرحها ضرباً لشكوكه بها وغيرته عليها؛ وعليه، لم تضطر أن تختبئ بالحمام لتمارس هوايتها الصغيرة.

أخرجت ورقة من فئة عشرة جنيهات من حقيبتها ومدت يدها بصدريتها لتخرج منها بودرتها السحرية المدعاة كوكايين.

نثرتها بدقة على الكومود بجوار الفراش وهذبتها ببطاقتها الائتمانية على شكل صف عرضي ثم لفت ورقة النقود بشكل مخروطي لتستخدمها كشفاطة تستنشق بها الغبار الأبيض الذي يلهب النشوة بجسدها ويخدّر عقلها.

فعلتها واستنشقت الخط كله لترفع رأسها ويجتاحها شعور مفاجئ بالقوة والطاقة جعل عينيها تجحظان وكأن تلك الجرعة تشجعها على النهوض والركض بأرجاء الفيلا.

تسارعت أنفاسها ونبضات قلبها الخفاق وارتفع ضغط دمها.

تخدر لسانها وتخدل عنقها وأطرافها ومفاصلها ففكت شعرها الغجري وألقت بنفسها على الوسادة وهي تراقب السقف وتسمع دق نبضها بطبلة أذنها شاعرة بصدرها يعلو ويهبط مع كل دقة.

ارتفعت درجة حرارة جسدها وابتل بدنها بالعرق الدافئ.

أحبت تلك الحالة وتركت نفسها تغطس في هلاوسها.

سمعت زئير وحش يدق بابها بعنف ثم رأت وجه أحمر سمين يظهر لها من السقف ويزحف على الحائط المقابل لسريرها وينزله بأرجل كقوائم العنكبوت الأسود.

أخذ ذاك الكائن الأسود المُشعر المقزز يقترب منها ولعابه الدبق يسيل.

فجأة أنكسر باب الغرفة الموصد بالمفتاح وأندفع منه رجل مقبل على عقده السابع ولكنه طويل القامة، شامخ الظهر، قوي العصب.

هلوست بأن زوجها معها بالغرفة ممسكاً بشابٍ طمست الدماء ملامحه وكأن هناك من وضع وجهه بدلو دهان أحمر.

مشى العنكبوت المرعب وهبط فوق صدرها ليبللها بلعابه ومخاضه وقد استشعرت أن نيته هي قتلها والفتك بها بأشرس طريقة ممكنة.

ودت أن تقاومه ولكنها شُلّت تماماً عن الحركة.

شعرت أن سريرها يبتلعها وأن ذاك العنكبوت هو جاثوم لعين لن يتركها دون أن يثقب صدرها بأنيابه الحادة ليخرج قلبها ويمضغه أمام عينيها.

حاولت أن تنهض ولكنها كانت عاجزة عن أية حركة وظلت تلهث وتتصبب عرقاً حتى شعرت بصفعة شديدة أطاحت برأسها أقصى اليسار

- انطقي!

فتحت عينيها ذات لون اللازورد وبدأت تستعيد وعيها.

انكمشت الهلاوس واختفى العنكبوت ولم يتبقَ بالغرفة سوى زوجها الذي بالفعل كسر باب حجرة النوم عليها ومعه أحد لم تتبين هويته.

- (سراج)؟!

همست اسمه بصوت لا تظن أنه وصل لأذني (سراج) ثقيل السمع.

- هي حصلت إنك تتعاطي الزفت ده في بيتي.. يعني خاينة وكمان شمامة؟

أطاح رأسها بصفعة أخرى وهكذا استعادت وعيها.

نهضت من مضجعها ورفعت رأسها وحاولت أن تركز فيما يدور حولها.

لقد رأت شاباً يرتدي ملابس رياضية غطت الجروح والكدمات والدماء تفاصيل وجهه ولكنها عرفت أنه ذاك

المدرب الذي اتهمها (سراج) بخيانتها معه.

صاحت واضعة يدها على فمها مرتعبة.

- (حسام)!.

- أيوة، (حسام) اللي قلتي لي إنه بيكلمك عشان (مالك) مش كدا؟ جذب (حسام) الجريح من شعره: قولها.. قولها اللي قلتهولي.

نطق بصوت غشاه الضرب المبرح وتكلم والدماء تتناثر من فمه

- أنا.. أنا و(شوشو).. ماشيين مع بعض.. بقالنا شهرين.

- كداب صرخت به (شوشو) بصوت عريض نبحته المخدرات: أنا مافيش بيني وبينه أي حاجة غير...

- أنتِ لسه هتكدبي؟

قالها (سراج)، وهو يخرج مسدسه ويعمّره ويضعه برأس المدرب الخائن.

الطلقة عبرت رأسه من الخلف، وخرجت من جبينه واخترقت قدم السرير فهبط أرضاً فصرخت (شوشو) مرتعبة.

تمنت لو أن مقتل عشيقها (حسام) ليس سوى واحدة من هلاوس استنشاق الكوكايين ولكن أدرينالينها نبهها أن ذاك المسدس المصوب تجاهها ليس بخيال.

اندفعت ساحبة مصباح السرير وألقته بعنف صوب (سراج).

لم تصِبه كما رجت ولكن سلك المصباح الكهربائي أصاب عينه فعطل رؤيته لثواني كانت كافية لتسحب بها حقيبة يدها الملقاة بجوارها وتنهض بخفة مستخدمة الطاقة التي أدرتها جرعة المخدر بعروقها ودعمها الخوف والأدرينالين لتركض بقميص نومها الفاضح وقدميها الحافيتين خارج الغرفة التي تهشم بابها، بينما يصيح (سراج)

- يا فاجرة!.

نزلت السلالم في ثواني وخرجت من الفيلا وحمدت ربها أنها صفت سيارتها أمام الباب بالضبط.

بأصابع مرتعشة أخرجت مفاتيح سيارتها من حقيبة يدها وانزلقت داخل السيارة الباهظة المصفحة من الرصاص.

أدارت المحرك وانطلقت جاهلة وجهتها، كل ما تعلمه هو أنه يجب أن تبتعد بقدر الإمكان حتى لا تكون نهايتها كنهاية الذي سكنت أحضانه البارحة واليوم سكنت جمجمته

رصاصة أطلقها زوجها القاتل.

أخذت تبكي وترتعش ودموعها تشوش رؤيتها للطريق السريع الخالي.

***

تطلب الأمر ساعتين متواصلتين من البكاء حتى غفت (حبيبة) على حجر (سالم).

لم يفعل شئ سوى التربيت على كتفها ومداعبة شعرها حتى تهدأ ولكنها لم تكف عن النحيب والنشيج حتى زارها (توتو) وغفت.

استغل (سالم) الفرصة وخرج من الغرفة برفقة حاسوبه المحمول والملابس الخفيفة التي سيرتديها عند خروجه مع (هادي) لتنفيذ مهمتهما الجديدة.

أشعل سيجارته وهو يعد لنفسه الشاي بالنعناع.

خرج من المطبخ بكوبه وهو يدرس إحداثيات مكان تنفيذ العملية والتأكد من وجود كاميرات مراقبة بالشارع من عدمه بينما نفث دخانه بالهواء وأرتشف كافيينه ونظر لساعته التي دقت الحادية عشر مساءاً.. مازال لديه الكثير من الوقت.

انتصب ذيل هرته بغتة وخرخرت بلا داعي فنظر لها وعَلِم

أن هذه إشارة تحذيرية.

رن جرس الباب.

نهض ظاناً أن الطارق أحد المعزّين، ولكن من الفظّ الآتي بهذه الساعة دون مكالمة مسبقة؟

مد يده على الطاولة الواقفة بجوار الباب وفتح الدرج الذي يحوي جيباً خفياً من أسفله جذب منه مسدسه تحسباً لحالة أن الطارق أكثر من مجرد زائر معزي فظ، بينما نظر من العين السحرية ولكن الأمر لم يستدعِ ذلك.

أغلق الدرج حين أدرك هوية الطارق وفتح الباب ليجدها أمامه.

كانت (شوشو) واقفة حافية القدمين بقميص نومها الستان الأحمر القصير وشعرها في حالة فوضوية تطابق حالة كحلها السائح على وجهها من فرط البكاء.

نظر لها (سالم) ببرود ثم التفت للداخل منادياً

- (حبيبة)!.

الفصل الخامس عشر

- لأ.

قالها (سالم) ببرود مدخناً سيجارته بغرفة النوم و(حبيبة) تهمس له بعصبية

- يعني إيه لأ؟ ده أنت بنفسك اللي فاتح لها الباب وهي واقفة حافية بقميص النوم، عايزني أقولها إيه؟ انزلي نامي في عربيتك في الشارع بالشكل ده؟

- إديها لبس من عندك وأنا هديها فلوس تنزل في أي أوتيل.

- ماينفعش. جوزها هيجيبها بالبطاقة، بقولك كان وزير سابق.

- عشان كدا بقولك برة عننا. أنا مش عايز مشاكل.

- فين الشهامة يا (سالم)؟

- في مشوار.

- أنا مش بهزر. مش هسيب صاحبتي في الوضع ده، إن شالله أخد هدومي وأروح معاها في شقة (عمر) لولا إني.. امتلأت عيناها بالدموع: لولا إني مش هقدر أدخل شقته بعد اللي حصل كنت..

- (حبيبة)، أنا مابحبش صاحبتك دي.

- مابتحبش (شوشو) ليه؟

- اسمها (عيشة). ودي ست مش مريحة وجوزها عنده حق. الكل في النادي بيتكلم عن علاقتها بكابتن السباحة و..

- إياك تكمل يا (سالم)، ده عرض وشرف واحدة إحنا مش هنخوض فيه.. وبعدين، مانا كمان بكره (هادي) صاحبك ومش برتاح له ومع ذلك عمره ما دخل بيتنا إلا وأنا برحب بيه وبضايفه.

- اللهم طوّلك يا روح قالها هامساً: خلاص يا (حبيبة)، بس هي ليلة واحدة اللي تباتها وتستجعل في إنها تلاقي مكان تاني.

***

بدلت السماء ثوب ليلها الأسود ببهور الفجر الباهت.

نامت (حبيبة) على فراشها مرتاحة الضمير لأنها وفرت ملجأ آمن لصديقتها بغرفة الضيوف التي أعدتها لها وتركتها تنام فيها بعد أن أعطتها منامة محتشمة تستتر بها.

غيّر (سالم) ثيابه بهدوء فلم تشعر به (حبيبة) ثقيلة المنام وكاد أن يخرج من الغرفة ولكنه ألتقط صوتاً من الخارج.

وقع خطوات وحركة بالصالة فنظر من خلف باب غرفته الموارب ليجد (عائشة) تتسحب على أطراف أصابعها بالمنزل حتى فتحت باب الشقة بحرص.

خرجت على مهل حتى لا تصدر صوتاً، ثم أغلقت الباب خلفها آخذة معها مفتاح الشقة.

كان لـ(سالم) أن يخمن أنها ربما سمعت كلماته وهو يذمها فدفعها كبرياؤها للرحيل عن منزل ربه لا يرحب بها فيه، ولكن أخذها للمفتاح معها، جعله يعيد التفكير فيما سبق.

ربما خرجت لتبتاع بعض السجائر أو لتقابل أحدهم ثم تعود ثانية دون أن يشعر بها أحد.

توالت التخمينات التي قرر أن يضعها جانباً ليفحصها عند عودته من مهمته.

اهتز هاتفه الموضوع على وضع الصامت بيده فأخرس هزته ونزل.

***

ككل مرة، تمشّى لآخر الشارع. صعد الكوبري. نزله. انتظر بضع دقائق حتى أتاه (هادي) يسبقه صوت (إيديت بياف).

فور أن ركب (سالم) أطفأ المذياع فاعترض (هادي)

- لأ، (بياف) خط أحمر، ولعلمك، المرة دي دوري، كفاية إنها طلعة ببلاش.

- ببلاش ليه؟

- ماتخافش يا سيدي ببلاش ليا أنا بس.. عقاب عشان خدت أوردر من المدموازيل (هايدي) من ورا (المايسترو).. بس أقسم بالله يا (سالم) لو ماسيبتلي فرصتي هتبقى بزعلة.

نظر له (سالم) شزراً وهمس بثبات

- تهديد؟

ارتبك (هادي) ووضح

- أكيد لأ. أنا بس بأكد لك على أهمية الموضوع بالنسبة لي.

***

أسماه زبائنه (منير) لأن العقاقير الغريبة التي يجلبها للسوق قادرة على إنارة ذهنك.

كان فيلسوفاً تخرج في جامعة اسمها من ثلاثة أحرف لا يدخلها سوى أولاد الصفوة.

درس الكيمياء الحيوية وعائلته تتمناه صيدلياً يخترع أدوية تشفي العليل ولكن كان لعاشق مسلسل "Breaking

Bad رأياً آخر فقد اتخذ من (والتر وايت) إلهاً ومن تسويق وإدارة (بابلو إسكوبار) منهجاً وعليه حين ورث أبيه الفقيد اتخذ من ميراثه رأس مال لمشروعه العبقري.

اشترى فيلا منعزلة واتخذ من قبوها معملاً ومن دورها الأول صالة استقبال لزبائنه المقربين.

ابتاع المواد المطلوبة لتصل حتى عتبة داره من خلال شبكة الـdeep web وخلطها بمعمله ثم وزعها مع شباب ومراهقين من مرتادي النوادي والجامعات والصالات الرياضية والملاهي الليليا التي لا يدخلها سوى النخبة ليبدأ في الانتشار.

ولِمَ لا يستغل فيلته الفسيحة في إقامة الحفلات حول حمام السباحة لتوزيع المخدرات العجيبة التي تدفعك لعالم سريالي بوهيمي الحالة.

ولكن الليلة، لم يقم (منير) حفلة صاخبة بل اكتفى بتمضية الأمسية في خلط مواده بمعمله هو وشريكاه وتشغيل الموسيقى الصاخبة لتسليا أنفسهم.

بقى اثنان بالقبو خلف الباب الموصد إلكترونياً وصوت الموسيقى يكتم سمعهما ولكنهما أحسا طرقاً.

نظر (منير) صوب الباب قائلاً لزميله (حازم)

- (هشام) وصاحبته لسة فوق؟

هزّ (حازم) كتفيه جاهلاً الإجابة، فأمسك (منير) بالريموت ليطفئ الستريو وهو يسأل الطارق

- مين؟

أجابه (هادي) صاحب بدلة مربي النحل البيضاء ممازحاً

- الألمانية لإبادة الحشرات.

ضرب (هادي) القفل الإلكتروني ببندقيته فثقب موضعه وانفتح الباب.

سمعا صريخ أنثى.

رَكَلَ الباب ودخل واثباً داخل المعمل ولم يمهل (منير) أن يخرج مسدسه وإذا بطلقة بيده التي امتدت صوب جيبه ليخرج سلاحه وثانية بقلبه وثالثة برأسه في اللحظة ذاتها التي انطلقت فيها رصاصة (سالم) صوب رأس (حازم).

عمّ الصمت.

طوقا المعمل بنظرهما ليتأكدا من غياب أية مفاجأة لهما وبالفعل لم يكن هناك سوى هذين القتيلين.

أخرج (هادي) هاتفه وصورهما بالفيديو ثم خلع غطاء

رأسه وتصور معهما وأرسل الفيديو للمايسترو لتتبعه رسالة صوتية وهو يخبره

- done يا (مايسترو).

لاحظ (سالم) أكواب الويسكي الأربعة على الطاولة التي بالزواية ليلمح أحمر شفاه واضح على طرف إحداهن.

- يلا.

قالها (سالم) بعد أن أنهى مهمته.

- يلا إيه؟.. ودول؟ قالها (هادي) مشيراً للأكواب الأربعة: في ست هنا.

- (سلطان) دفع لنا تمن راس واحدة.

- دفع لك أنت.. أنا هنا for fun.

كاد أن يندفع صوب السلالم ولكن (سالم) استوقفه

- غطي وشك.

- مش محتاج، النهاردة اللي هيشوف وشي هتكون دي آخر حاجة يشوفها.

ركض متعطش الدماء صوب السلالم بحماس طفولي.

تبعه (سالم) مستشعراً ذبذبات تشاؤمية وكأن مصيبة على

وشك الحدوث.

سار (هادي) بممر غرف الدور الثاني وهو ينادي بالطرقة بصوت راقي راكلاً بعنف مباغت باب كل غرفة يمر بجوارها

- يا هانم.. يا مدام.. حضرتك مستخبية مني فين؟

لم تأتِه إجابة ولكن (سالم) الذي كان يتبعه، سمع أنفاساً مضطربة تخرج من خلف باب غرفة على ميسرته.

ألصق (سالم) أذنه بالباب وشد أجزاء بندقيته ثم فتح الباب ولكن الأمر حدث بسرعة خاطفة.

فور أن فتح الباب خرجت طلقه صوبه ردها أوتوماتيكياً بطلقتين من بندقيته استقرتا برأس (هشام) الذي كان يختبئ بتلك الحجرة.

فور أن سقط القتيل، ولج (سالم) الغرفة ورأى تلك الأنثى التي كانت تصرخ.

صاحبة الشعر الأشعث الأحمر والأعين الزرقاء كانت متكورة بالزاوية وقد نزلت على ركبتيها وغطت أذنيها وأخذت تبكي فور أن سمعت تبادل الرصاص وهي تتوسل

- ما تقتلنيش.. أنا مش معاهم.. أنا ماليش دعوة.. أنا كنت جاية أسكور بس.

- (سالم)!.

صرخ (هادي) الذي عاد لصاحبه فور أن سمع تبادل النيران ولكنه أطمأن حين رآه مازال واقفاً على قدميه.

صوّب بندقيته تجاه (عائشة) المتوسلة التي رفعت رأسها فور أن سمعت اسم (سالم) وأخذت تحدق بملامح (هادي).

- لأ!.

قالها (سالم) وهو يخفض سلاح شريكه ويأمر (عائشة)

- امشي.

ركضت هاربة من الموت للمرة الثانية في الليلة نفسها.

استشاط (هادي) غضباً وهو يصيح بـ(سالم)

- هتسيبها تهرب؟ دي شافت وشي وعرفت اسمك.

- صاحبة مراتي.

- صاحبة مراتك يعني تسجننا؟

- مش هتموت أخو مراتي وصاحبتها الأنتيم ورا بعض شعر بألم شديد ولكنه أكمل: أنا ليا عندك جميلة، اعتبرها قضيت.

انتبه (هادي) لآلام شريكه فتفحصه وهنا انتبه لتلك الرصاصة التي أصابت جانبه فصرخ في هلع

- (سالم).. رصاصة!

الفصل السادس عشر

للمرة الرابعة، أخذ المطب بسرعة دون أن ينتبه، فارتفع (سالم) عن مقعده ثم هوى عليه ثانية ليئن وهو يضغط على ألمه ويصيح من أسفل ضروسه

- يا ابن الغبية.

- آسف، آسف قالها (هادي) بتوتر: خلاص، قربنا نوصل.

وصل لمنزله متخذاً الطريق البري لكونه أسرع من ركوب اللانش والوصول عبر النيل.

بأصابع مرتعشة، أدار المفتاح وفتح الباب وهو يهمس لـ(سالم) عارضاً عليه ذراعه وكتفه

- اسند عليا.

- مش محتاجك.

قالها صاحب الكبرياء وهو يلج المنزل.

فتح سحاب البدلة البيضاء وخلع نصفها العلوى الذي تخضب بدمائه وودّ أن يخلع قميصه القطني الأسود الذي كان يرتديه أسفلها فتأوّه وهو يمد ذراعيه لأعلى فهمّ (هادي) أن يساعده

- أنا هقلعك.

- بعينك!.

قالها باعداً يديه وخلع ثيابه عن نفسه.

- طيب، أنا هجهز الحاجة.

انسلّ (هادي) لغرفته وأخرج أدواته وعقمها بالكحول ثم أخذ معه قبضة من اللبان وزجاجة الكحول وأدواته ورصهم سريعاً أمام الطاولة التي تتوسط الصالة.

- أشرب عشان الوجع يقل.

- ما بشربش.

- بس ده عشان الوجع..

- مش هشرب.

قالها بإصرار، فوضع (هادي) أمامه اللبان قائلاً

- طب عض في دول.

فتح زجاجة الويسكي وارتشف منها حتى يقلل من توتره الشخصي ثم سكب بعضها على جرح (سالم) فشعر بحريق يسلخ جلده ولكنه لم يعبر عن ألمه اكتفى بأن كوّر قبضتيه.

أخرج (سالم) سجائره وأشعلها فهم (هادي) أن يمنعه

- التدخين هـ...

صاح به

- ماسمعش صوتك ملأ رئتيه بالنيكوتين: خلّصني.

قالها آمراً بينما خضع له (هادي).

رش (هادي) المخدر الموضعي وغسل يديه بالكحول ثم وضع القفازين الطبيين وأعد الكماشة لتفقد الرصاصة وإخراجها.

- تحب تسمع إيه؟

- أحب أسمع صمتك.

مط (هادي) شفتيه ولم يستسلم

- مع إن الكلام في الوقت ده هو أفضل حل لتشتيت عقلك عن الألم.

ضرب (سالم) الأرض بكعب حذائه حين تعمقت الكماشة بجرحه الغائر ليخرج الرصاصة.

- لو موجوع صرخ، ماتكسفش مني.

- اخرس بقى!.

- على فكرة أنا كنت عامل لك مفاجأة.

قالها وقد أخرج الرصاصة ثم أراه إياها وألقاها بالطبق الفارغ وأكمل عمليته الصغيرة

- عندك صورة لمامتك؟

- إشمعنى؟

سأله (سالم) وهو يتابعه يُعد الإبرة والخيط ليُغلق جرحه.

- صحيح أنت ماتكلمتش عنها قدام الدكتورة، بس الموضوع مش محتاج دكتوراه في علم النفس عشان أفهم هي قد إيه غاليا عليك.

- خش في الموضوع.

بدأ يحرك خيطه وإبرته بلحمه بسرعة جعلته يضغط على ضروسه ويزيد تكويرة قبضته.

- عايز أعمل لمامتك تمثال.

- زي اللي كنت عايز تعملهولي وإحنا عيال!

توقف (هادي) عن خياطة الجرح ثم نظر لـ(سالم) بضيق

- أنت ليه شايل لي الموضوع ده؟ أنا حلفت لك إن نيتي كانت بريئة وماكانش قصدي غير إني أنحت لك تمثال وبس.

- وأنا ملط؟

- أنا فنان يا (سالم).. لا حياء في الفن أكمل عمله: عامة أنا كنت فاكر إنها حاجة هتبسطك إنك تشوف أمك تاني وتحتفظ بحاجة فيها ملامحها.

ساد الصمت وهو يكاد أن ينتهي من شبك غرزه لإغلاق جرح صديقه.

- تعرف تعمل تماثيل فخار؟

قالها (سالم) ضاغطاً على أسنانه فابتسم (هادي) وانفرجت أساريره

- أنا أعرف أعمل أي حاجة نفسك فيها.

أنهى غرزته ووضع الضمادة الطبية على الجرح فأخبره

- هجيب حاجة الشغل وأجي.

لملم أدواته وترك (سالم) يدخن سيجارته الثانية بينما أتى إليه بكراسة الرسم والأقلام الرصاص والممحاة.

جلس بجواره متحمساً

- احكيلي، شكلها كان عامل إزاى.

صمت (سالم) مفكراً وهو ينفث دخانه

- كانت ست.

- متأكد؟ أمك كانت ست!

- هنهزر؟!

- ما أنت اللي بتقول بديهيات.. الست والدتك كان شكلها عامل إزاى؟

- شبه (حبيبة).. كانت (نفرتيتي)

بدأ (هادي) يرسم ما يسمعه

- عيونها واسعة ومكحلة ومريحة.. بُقها كان مليان وشفافيها كبيرة وبغمازتين و... صمت قليلاً متنهداً وبدأ يفكر بها.

نظر له (هادي) والقلم بيده يستعجله للمزيد من التفاصيل

- وإيه؟

- وماكانتش هتبقى مبسوطة لو شافتني كدا دلوقتي.

- أكيد كانت هتزعل عليك بس معلش، جرحك بسيط.. جَت سليمة.

- تفتكر؟

- لو لحقت تقتل صاحبة مراتك دي قبل ما تبلغ عننا،

هتيجي فعلاً سليمة.

- (عيشة) مش هتفتح بُقها.

- مالي إيدك منها ليه؟

- مش لازم تعرف التفاصيل بس أنا أعرف أسكتها.

حك (هادي) عنقه منزعجاً

- هو في حاجة بينك وبينها؟

نظر له (سالم) فاهماً فحوى نظراته المنزعجة

- كمّل رسم.

قلب كراس الرسم غاضباً ليريه ما رسمه

- أنا ماشي صح؟

عدّل (سالم) معه بعض التفاصيل في ملامحها وتقاسيم وجهها إلى أن وصل لأقرب شكل لوجهها كما حفظه بثنايا قلبه.

شعر (هادي) بالرضا عن نفسه وقد أنهى الرسمة الدقيقة ثم وثب قائلاً

- بكرة التمثال هيبقى عندك.

أجابه (سالم) إجابة لم يتوقعها

- عايز أتفرج عليك وأنت بتنحته.

جلس (سالم) بورشة (هادي) الفنية حيث عجلة الفخار ومواد البرونز والجير والكثير من الأدوات التي لا يفهم كنهها.

غاب (هادي) ثم نزل ومعه قارورة النبيذ الأحمر وكأسين وقد خلع السترة البيضاء التي ينفذ بها جرائمه ونزل بسروال منزلي قصير أسود تنتشر به القلوب الحمراء دون أن يضع أي قميص.

راقبه (سالم) بنظرات تملؤها الريبة فاعتذر منه (هادي)

- pardon، بس أنا مابعرفش أنحت غير كدا.

شعر (سالم) بعدم الارتياح لكون كلاهما عاري الصدر، فسحب قميصه الأسود الملطخ بالدماء ووضعه عليه وترك (هادي) يدير عجلة الفخار أمامه بعد أن وضع عليها القطعة التي سيشكلها وأخذ يراقبه بابتسامة يملأها الشجن والحنين لحب أنهاه اليتم.

طفق يدير العجلة ويعانق العجين الطيني براحتيه ويضغطه بأنامله و(سالم) ينفث دخانه مفكراً بأمه.

أكانت لتفخر به إذا رأت يديه الملوثتين بالدماء؟

لِمَ ظلت تلك الفكرة تلاحقه الآن؟

لو قتلته تلك الرصاصة التي أصابته وكانت تذكرته للقائها، أكانت ستعانقه وترحب به لانضمامه لعالمها أم كانت لتشعر بالخزي؟

وإذا مات.. ما مصير (أدهم) ابنه والجنين الذي بالطريق و(حبيبة)؟

صحيحٌ أن بحاسبه ما يكفي من الأموال ليوفر معيشة كريمة لأسرته ولباقي الأجيال التي ستحمل اسم (عبد الرحيم) إلا أن الأموال ليست الأمان بهذه الحالة.

ثم أتى للنقطة الأهم، ألم يعد نفسه أنه لن يموت على يد أحدهم وأن الموت سيكون خياره؟

أنهى (هادي) تكوين الرأس وبدأ يشكل ملامحها بأدواته.

لم يشعر (سالم) بمرور الساعات وهو يراقب قسمات وجه أمه تتبين أمامه وتتجلى رويداً رويداً حتى انتهي التمثال بلمسة سحرية أضافها (هادي).

وضع لها تاج شمس فرعوني وعُقد يتوسطه جعراناً لتصبح إلهة فرعونية آية في الجمال.

أدخل (هادي) تحفته الفنية بالفرن لتنشف وتتماسك وحين أخرجها وأعطاها لـ(سالم) رأى على وجهه شيئاً لم يره طيلة العقدين اللذين عمل بهما معه.

ابتسامة أضاءت عينيه.

- مبسوط؟

قالها (هادي) وقلبه يقفز فرحاً.

- هي بالظبط.

وضع (هادي) يده على كتف صديقه.

- أنا فرحان لإني أخيراً عملت حاجة تبسطك سرحت يديه من كتف (سالم) حتى صدره: ربنا يقدرني وأفضل دايماً بسعدك.

أمسك (سالم) يد (هادي) وأنزلها عن صدره.

نهض على مِهل ثم خلع نظارة نظره ولم يمهله.

نطحه (سالم) برأسه فارتجّت دماغ (هادي) وتراجع للخلف وقد بدأت تظهر أمامه نقاط ذهبية مضيئة.

أغمض عينه حتى يستعيد رؤيته بينما علّق (سالم) وهو يعيد ارتداء نظارته.

- أنا بقيت حاسس إنك بتعمل الحركات الوسخة دي عشان تستفزني وأرزعك علقة.. من الظاهر إن الضرب بيكيفك يا (هادي).

مد (هادي) يديه أمامه فمازالت رؤيته غير واضحة وقال ككفيف يبصر بكفيه

- ماتعملش أي حركة مفاجئة عشان جرحك ما يتفتحش.

سعل (هادي) بقوة ولكن (سالم) لم يبالي وأكمل

- أنا هستقيل.

أخذ التمثال وهمّ بالرحيل ولكن (هادي) حاول أن يستجمع تركيزه وتبعه مستفهماً

- يعني إيه؟ هتستقيل من إيه يا (سالم)؟

- من كل حاجة.

قالها وهو يفتح الباب ثم التفت صوبه ممتناً قبل أن يخرج

- شكراً عـالهدية.

قالها مشيراً للتمثال ثم رحل.

وقف (هادي) مكانه وكأنه مازال يتأمل رحيل (سالم) بذهول.

بدأ يسعل بقوة وصدره يهتز شاعراً بطعم مُر بفمه وحريق بصدره وسوائل ترتفع بعنقه حتى وجد ما تعجب له.

غطى كفه وهو يسعل ثم نظل لراحته ليجد أنه قد تناثر مع لعابه سائل قاني اللون.

دم!

***

طلع قرن الشمس ولكن عجز ضوؤها على التمدد بفضاء السماء الرمادية.

ذاك النور الضعيف أعلن عن صباح لن يكون مشمساً أو مضيئاً ولكن (سالم) لم يبالِ، فهو لم يعد يشعر بالشمس أو دفئها على أي حال.

وصل لسيارته قبل أن ينسل لعمارته وسحب قميصاً وسترة قطنية يتركهما للمواقف المشابهة.

استبدلهما بملابسه التي بقعتها دماء جرحه ثم دلف إلى البناية التي يقطنها حتى وصل لشقته.

كانت (عائشة) جالسة بالمطبخ الأمريكي الطراز المفتوح على الصالة وهي تقرض أظافرها بتوتر حتى سمعت مفتاحه يدار بالباب فتنبهت ووقفت حين رأته يدخل.

نظر صوبها بطرف عينه ولكنه تجاهل وجودها وأكمل دربه ممسكاً بتمثال أمه متجهاً لغرفة نومه.

- ماقتلتنيش ليه؟

قالتها وهي تحول بينه وبين استكمال طريقه لغرفته.

أجابها بلامبالاة

- قصدك إيه؟

- أنت وصاحبك (هادي) مش شغالين في المخدرات، ده لا شكل ولا طريقة ديلرز.

- مش فاهم.

- أنتو بتشتغلوا لصالح حد.. حد بعتكم تقتلوا (منير) وصحابه.

- مين (منير)؟

- ماتخافش مني. أنا مش بأررك عشان أبلغ عنك. أنا عايزاك في شغل.

- محتاجة استشارة في برمجة الكمبيوتر؟

- لأ وأنت الصادق محتاجة استشارة في الإجرام.. أنا عايزاك تقتل جوزي.

ضحك ساخراً وابتعد عنها ولكنها أمسكته من ذراعه وأصرّت أن تكمل عرضها

- شوف هم بيدوا لك كام وأنا هدفع لك الضعف.

- بردو مش فاهم بتتكلمي عن إيه؟

- يعني أنا لو شديت هدومك دي دلوقتي قالتها وهي ترفع عنه قميصه: مش هلاقي جرح مكان الطلقة اللي خدتها في بيت (منير)؟

أنكمشت ابتسامته الباردة وتحولت لنظرات مُهَدِدَة.

ابتسمت (عائشة) الغاوية وعلقت بابتسامة مغرية

- أنا ستر وغطا عليك، مش هتنقذ حياتي وأنا أفضح سرك.. أنا بس مش عايزة منك غير الخدمة دي وهدفع لك بالطريقة اللي تعوزها تسللت أصابعها لأسفل قميصه ووضعت راحتها على عضلات بطنه واقتربت هامسة بأذنه: ده غير المحبة.

تعلقت عينا (سالم) بغرفة الضيوف التي صارت ملجئاً لـ(عائشة).

وضع تمثال أمه على رف الكتب المقابل له ثم أجابها

- نكمل كلامنا جوة؟

عضت على شفتيها بابتسامة مثيرة وقالت ببحة صوتها المغرية

- أنا برضو بقول كدا.

دخلا غرفة الضيوف.

ولجتها (عائشة) أولاً ثم تبعها (سالم) ليغلق الباب ويوصده بالمفتاح من الداخل وقبل أن تستدير (عائشة) كان قد ركل ظهرها صوب الفراش فنزلت على ركبتيها وهبط وجهها على المرتبة ولم تتاح لها الفرصة لترفع رأسها فقد غرس فوهة مسدسه الكاتم للصوت بمؤخرة رأسها وهو يهمس

- لما تطلبي حاجة، اطلبيها بأدب.

تكلمت كلاماً غير مفهوماً بسبب وجهها الذي دفس بالمرتبة من وطأة ضغط (سالم) على رأسها بمسدسه ولكنه لم يبالِ بتفسيرها وأردف:

- أنا ماقتلتكيش عشان مراتي بتحبك ومعتبراكي أختها. فلما تكوني مستعدة تخونيها مع جوزها عشان يقضي لك مصلحة يبقى قتلك حلال، وتبكيكي يومين أحسن ما تغدري بيها.

رفعت رأسها بصعوبة لتتحدث

- أنا ماقصدش أخونها، (حبيبة) صاحبتي الوحيدة.. بس أنا في وضع يخليني مستعدة أعمل أي حاجة عشان أنقذ نفسي من الموت. لو رجعت لجوزي هيقتلني ومهما فضلت مستخبية هيلاقيني.. أنت مش فاهم يعني إيه واحدة تبقى عايشة مع راجل مايعرفش لغة غير الضرب.. بيشدها من حضن ابنها عشان يضربها قدامه بدأت تبكي: أنا جسمي كله جروح وكدمات منه وماليش حد يحميني، لا قانون ولا عيلة ولا صحاب.. أنا بقيت مدمنة بسبب العنف والرعب اللي معيّشني فيه كل يوم.

أنزل مسدسه وعلّق بعد أن أرجعته تفاصيل ما روته لطفولته القاسية وعنف أبيه.

- فاهم.. فاهم يعني أيه قسوة وعنف بس اللي مافهمهوش هو الخيانة.

- بسببه.. قسوته خلتني عطشانة لأي حد يبل ريقي بكلمة حلوة ولا لمسة حنينة.. أنا مارمتش نفسي في حضن أول واحد يطبطب عليا إلا بسبب العذاب اللي عيشهولي.

اقتربت منه على ركبتيها وجذبت يده التي تحمل المسدس وألصقت فوهته بجبينها وهي تبكي

- لو مش هتساعدني، اقتلني.. أموت على إيديك برصاصة

رحمة ولا إني أسيبه يعذبني تاني.

نظر لعينيها الباكيتين وهمّ أن ينزل سلاحه ولكنها تشبثت بيده وأردفت

- لو مش هتقتلني، ساعدني.. أنا خلاص، بقيت يا قاتل يا مقتول.

الفصل السابع عشر

لم يحب اللون الأبيض أبداً على الرغم من أنه كثيراً ما يرتديه.

لطالما تساءل (هادي) لِمَ يتخذون من الأبيض رمزاً للنقاء والطهارة.

الأصدق بالنسبة له هو أن الأبيض لوناً مملاً ومدعياً.

ربما لأن علاقته بهذا اللون كانت سيئة، فقد كان لون حوائط الماخور الذي تربى به، ولون العنبر الذي قطنه بدار الأيتام ولون حجرته بمنزل (آل حكيم) وكلها مساكن لا يربط بينها سوى ما عاشه من أسى وجفاء ووحدة وخواء.

الأبيض مثله مثل الأشخاص الذين مروا بحياته، متظاهرون وخدّاعون، فهذا البياض الناصع لا يغطي سوى حمرة الطوب ورمادية الأسمنت ليدهنهم بنقاء مخادع وطهارة كاذبة ولأنه الآن في وضع يتطلب الكثير من الحقيقة والصدق والشفافية حاول أن يتجنب كل ما هو أبيض بعيادة ذاك الطبيب الذي طلب منه عشرات الفحوصات بالأيام القليلة المنصرمة.

هرب بنظره من الأثاث الأبيض والسقف والحوائط والزهور والمزهرية وكذلك النافذة.. نعم، جميعهم دُهِنُوا بالأبيض

وكأن ذاك الطبيب يود أن يعطي لمرضاه شعوراً بأنهم ماتوا ودخلوا الفردوس الأبيض.. ياله من مخادع!

نظر (هادي) من تلك النافذة المستطيلة التي تتوسط الحائط الكئيب فرأى حديقة خضراء ممتدة.. لا بأس باللون الأخضر.

لفت سمعه، صوت موسيقى «La vie rose»، كانت موسيقى فحسب بلا غناء وبلا كلمات وبلا صوت (إيديت بياف) مما زاد المشهد مللاً وجعل حركة عقارب الساعة وكل ما حوله بطيئاً رتيباً.

راقب المرضى الجالسين بالحديقة خاصة تلك العجوز التي بدأت تشبه المقعد الخشبى الذي طالت جلستها عليه فى صمتٍ قاتل.

- مستر (هادي).

قالها الطبيب وهو يخلع نظارة نظره.. حتى هذه إطارها أبيض وكأن رداءه لا يكفي.

- هي التحاليل وحشة أوي كدا؟

هزّ الراعي الرسمي للون الأبيض رأسه بابتسامة مدعية وتكلم بسرعة دون تمهل

- سبب الكُحة اللي بدم دي ورم ثانوي في الرئة بالإضافة لسرطان الخلايا الكبدية اللي تسللت لحد الحجاب الحاجز.

نظر (هادي) للسماء فرأى السحب البيضاء، حسناً، لا بأس ببياض السحب فهي الشئ الصادق الوحيد بتلك اللوحة البيضاء الرتيبة.

سأل طبيبه دون أن يُبعد عينيه عن السماء.

- سرطان؟

- للأسف.. التحاليل كلها بتؤكد إنك مصاب بسرطان في الكبد.. السرطان تسلل وسبب سرطان ثانوي في الرئة.. أنا لازم أصارحك.. الورم في مرحلة متأخرة جداً وجسمك مش هيقدر يستحمله لفترة طويلة، في تقديري ست شهور.. سنة بالكتير.

اتكأ (هادي) على معصمه وفكر بكلمات طبيبه للحظات وهو ينظر للسحب البيضاء التي بدأت تتحرك.. حتى هي ملت بياض الغرفة المطلة عليها.

ابتسم (هادي) ثم لم يتمالك نفسه، حاول كبتها ولكنها فرت منه وانطلقت من بين شفتيه الورديتين.

ضحك، فقهقه ثم هربت الدموع من عينيه من فرط ضحكه

الهستيري فارتبك الطبيب وشعر بالقلق وظن أنه يجب عليه استدعاء طبيب نفسيّ

- مستر (هادي).. حضرتك بخير؟

رفع (هادي) يده معتذراً وهو يمسح دموعه ثم وضح

- عارف (إيديت بياف) اللي أنت مشغل موسيقتها دي، ماتت إزاى؟

هز الطبيب المرتبك رأسه نفياً كما توقع (هادي) فأكمل ضاحكاً

- ماتت بورم سرطاني في الكبد بعد عيد ميلادها السبعة وأربعين على طول ضحك أكثر: وأنا هَتِم ٤٧ سنة كمان خمس شهور.

ضرب (هادي) كفاً بكف وانفجر ضاحكاً.

لم يكن يمزح حين قال أن روح (إيديت بياف) بُعثت في جسده، وقد حان الوقت ليكمل مسيرتها ويُبعث هو في جسد آخر ولكن ليس الآن.. مازالت أمامه ستة أشهر.

***

علّها المرة الأولى التي يقود فيها ببطء، والأكيد أنها المرة الوحيدة التي سلك فيها طريقه دون أن يشغل أغنية

لـ(بياف).

هام على وجهه بسيارته.. لِمَ اشتراها بيضاء على الرغم من مقته لذاك اللون؟

علّه مثل كل من حوله.. مدّعي.

سيطرت عليه تلك الفكرة حتى وصل إلى وسط البلد، في وضح النهار وأعطى سيارته لمسؤول الجراج التابع لفندق النيل ريتز كارلتون.

وطأ الردهة حيث ينساب صوت موسيقى الهارب من بين أصابع عازفته ذات الجمال الأناضولي.

داعبت رائحة باقات الزهور المبهجة بوسط الصالة الرخامية أنفه.. يكاد ينعدم اللون الأبيض بهذا المكان المبهرج.

صعد السلم ذا السجاد الأحمر متكئاً على الدرابزين الذهبي حتى وصل للدور الثاني حيث مرامه.

دخل حانة السيجار الإيطاليا الطراز المسماة «Bar'Oro» حيث استقبله البارمان الأربعينيْ الأصلع ذو السترة القرمزية التي تتداخل بها خيوط ذهبية.

- Good afternoon.

قالها البارمان بكياسة فأجابه (هادي) بابتسامة وتفحّص المكان بنظره.

كانت كل كراسيه من القطيفة تتدرج ألوانها بين البنفسجي والفستقي.

أرضيته من الخشب الداكن اللامع وحوائطه من الزجاج الشفّاف المطلة مباشرة على النيل من على مستوى قريب فتشعرك بالجلوس في قلب النهر الذي انعكست عليه شمس الظهيرة فنثرت بريقها على صفحته المتكسرة مع حركة المراكب الشراعية.

جلس على الكرسي المسلوب الظهر على الطاولة العاليا ذات الرخامة الخضراء الداكنة المقابلة لخزانة البارمان الزجاجية التي تتراص عليها زجاجات الخمور والجعة بشكل هرمي فني.

- Chivas Regal 18 في كوباية Old fashion.

- حالاً.

قالها البارمان القصير وتحرك بين زجاجاته ليحضر المطلوب بينما نظر (هادي) ثانية ليلاحظ المزيد من تفاصيل بالبار.

رأى على أقصى يمينه، حجرة زجاجية مستطيلة عامرة بالسيجار المرصوص بعناية وعلى أقصى يساره بيانو هجرته عازفته.

فكر للحظة.. لقد جرب كل شئ بحياته، الحلال والحرام والمباح والممنوع عدا شيء واحد.

التدخين.

لِمَ تمسّك كثيراً بقاعدة أن التدخين يدمر الصحة ويؤدي للوفاة؟

ها هو ذا، سيموت على الرغم من أن رئتيْه عذراوتيْن لم تطأهما سيجارة واحدة.

قرر أن يُفقِد رئته عذريتها.

- سي لو فو بليه.

قالها مشيراً للبارمان فأتاه واضعاً أمامه كوب الويسكي على الرخامة.

- تحت أمرك.

أشار صوب الكابينة الزجاجية

- عايز سيجار.

- بتفضل أنهي نوع؟

مطّ شفتيه وأشار في الهواء هائماً

- ماعرفش.

- تسمح لي أرشح لك حاجة؟

هز رأسه بلا تعليق وتركه يغيب عن نظره للحظات.

عاد الأصلع لامع الرأس ومعه سيجار داكن البُنية ملفوف بلفافته السلوفانية.

فتح اللفافة وأخرج السيجار وحمله بأنامله بحذر ليريه ل(هادي) وكأنه يحمل ياقوتة نادرة.

- ده Edmundo Petit Montecristo مقصوص Parejo.. مناسب للتجربة الأولى، حجم أصغر بس نفس جودة السيجار الكوبي الأصلي.

أمسك قطاعة السيجار التي تشبه المقصلة الصغيرة وبها فوهة تكفي لدخول طرف السيجار حيث غطاءه الذي يسكن تحته النيكوتين.

قص الغطاء وفرّش الطرف بأصابعه ليزيح أي وريقات تناثرت بسبب القص ثم ناول السيجار لـ(هادي) ومعه علبة كبريت خشب الأرز الطويل المخصص لذاك النوع من

الدخان.

قلّد (هادي) البارمان وأمسك السيجار بأصابعه الأربع وهمّ أن يضع السيجار بفمه ولكن الأخير أوقفه

- بلّ الطرف عشان مايلزقش في بُقك ويفرط.

أخذ (هادي) رشفة من الماء ليبلل شفتيه بلسانه وكذلك طرف السيجار ثم وضعه بفمه بينما أشعل له البارمان الثقاب وقربها من الطرف الآخر من السيجار ولفها ١٨٠ درجة حتى مسكت به الشرارة الحمراء التي أطفأها بأنفاسه ثم لملم السلوفان وباقي العلبة وهو ينصح (هادي)

- ما تسحبش الدخان على صدرك مرة واحدة.

ضحك (هادي) هامساً

- مابقتش تفرق.

سحب دخانه الأول من سيجاره ذي الأربعة إنشات.

غزت شفتيه ولسانه لسعة غريبة وكأن بسيجاره بهار حار داعب حواسه وتبعه مذاق استفز مجسات التذوق عنده ولكنه شعر بالأناقة وهو يمسك السيجار السمين بأصابعه الأربع نافثاً دخانه كخبير مع ارتشافه للويسكي فأحس نفسه أحد نبلاء يوركشاير الإنجليز.

سمع خطوات تمر من خلفه والبارمان يصب له كأسه الثالثة فالتفت ليرى غيداء شقراء خمّن من ملامحها وثِقل لكنتها الإنجليزية وهي تحيي البارمان أنها روسية الأصل.

رنّ وقع كعبها وهي تتجه حيث البيانو لتجلس على كرسيّه المستطيل القطيفة وتبدأ تداعب أصابعه بأناملها وتعزف.

أيمكن للقدر أن يكون أكثر ابتذالاً لتبدأ الروسية بعزف نفس المقطوعة الموسيقية التي كانت شغالة بعيادة الطبيب الذي أعلن خبر وفاة (هادي) القريبة.

ابتسم (هادي) ساخراً وضحك ولا شك أن البارمان ظنه مبتدئ بالسُكر خفيف الرأس يرنحه الكحول سريعاً.. ولكن لا بأس، لم يبالِ لرأي البارمان على أي حال فهو رجل سيرحل عن العالم خلال ستة أشهر.

أكان مستعداً للموت؟

لطالما عرف أنها نهاية ستؤدي لبداية جديدة ولكنه لم يتخيل أن نهايته ستكون بهذه الرتابة.

كيف لـ(هادي) الذي عاش حياة عاثت بالمغامرات والدراما والإثارة والأحداث غير المتوقعة بالمرة أن يموت هزيلاً ضعيفاً مريضاً بفراشه كباقي العجزة المملّين من الجنس البشري؟

كيف لذاك النحّات المغامر الشغوف ألا يموت ميتة أسطورية تحدث ضجة تتناولها الأخبار وتسجل بالتراث؟

تنهد وهو ينهي كأسه الثالثة مدركاً أن ما من غيره بهذه الحانة، فمن يأتي ليثمل يوم الثلاثاء الساعة الثانية ظهراً؟

- مش التدخين بيدمر الصحة بردو؟

أخيراً أنزل (هادي) عينيه عن عازفة البيانو التي ظنت أنه يحدق بها ليغازلها، ونظر ليمينه حيث وجد قائل الجملة.

كان (سالم) واقفاً بجواره مستعجباً السيجار الذي بين أصابعه.

نفث (هادي) دخانه وابتسم لـ(سالم) متسائلاً

- بتعمل إيه هنا؟

- مش أنت لوحدك اللي بتعرف تراقب شركاءك.. عايزاك.

نزلا إلى جراج الفندق ومازال (هادي) متشبثاً بسيجاره الذي يدخنه بتؤدة.

وصلا لسيارة (هادي) فوقفا عندها

- لو جي تعتذرلي عن المرة اللي فاتت فمافيش داعي، أنا مابعرفش أزعل منك.

همّ (هادي) أن يفتح باب سيارته ولكن (سالم) استوقفه

- لأ، المرة دي أنا اللي هوصلك.

- إشمعنى؟

- الموضوع اللي عايزك فيه، في العربية.

لم يفهم مرامه ولكنه تبع صاحبه حتي سيارته الرمادية المتربة، فتح (سالم) بابها ليُري (هادي) من تجلس بداخلها.

كانت (شوشو) تدخن سيجارتها الثالثة منذ أن صف (سالم) سيارته بالجراج وهي تقرض أظافرها بتوتر فى انتظار عودته.

***

الأمر لا يحتاج لخبير فراسة ليؤكد على أن ملامح (هادي) لا تعبر عن شئ سوى الاشمئزاز والتقزز من قذارة سيارة (سالم) التي تغزوها الزجاجات البلاستيكية والأكياس الخالية التي غلفت الحلوى سابقاً والمناديل المتناثرة هنا وهناك والأتربة التي اتخذت المساند مسكناً.

ولكن من الجلي أن تلك القاذروات لم تزعج أياً من (سالم) الذي يقود ببطئ ولا (عائشة) التي لم تتوقف عن الثرثرة

- أنا ممكن أسهل لكم الأمور كلها. يعني، أديكم نسخة من

مفتاح البيت أو العربية أو أعرف لكم مكانه بالظبط. أعتقد لما يكون حد قريب منه زيي هو اللي عايز يقتله الأمور هتبقى أسهل لكم و..

التفت لها (هادي) المنكمش بمقعده وكأن وسخ السيارة سيهاجمه

- pardon يا مدام (شوشو)، بس طول مانا قاعد في القذارة دي مش هعرف أركز في أي حاجة بتقوليها التفت صوب (سالم) وأمره: ممكن تشد شوية؟ ريحة عربيتك جابت لي اختناق.

***

صحيحٌ أنه قاتلٌ مأجور إلا أنه يجيد آداب الضيافة.

أعد الطاولة والمقاعد الخشبية الخارجية المطلة على النيل ووضع عليها سبت الفاكهة وشتى أنواع المخبوزات الفرنسية وإبريق الشاي والسُكر والنعناع وقارورة النبيذ الأحمر وطبق الجبن.

جلس مع ضيفيه، صبّ النبيذ في كأسها وناولها ل(شوشو) التي تجرعتها على دفعتين بينما سكب الشاي الإنجليزي الأصلي وأضاف إليه وريقات النعناع النضرة وأعطاه ل(سالم).

حين اطمأن أن ما من شيء ينقص ضيفيه عقد أصابعه متسائلاً

- أنا دلوقتي في موود مناسب إني أسمعكم.

- أنا عايزة أقتل جوزي.

- ليه؟

- عشان راجل مفتري ارتبكت ولم تجد إجابة مناسبة: عايز يقتلني.

كرر (هادي) سؤاله وهو يصب لنفسه كأس النبيذ

- ليه؟

قاطعهما (سالم) ليوضح الأمور

- عيشة بتخون جوزها فقتل عشيقها وعايز يقتلها هي كمان.

مطّ (هادي) شفتيه ثم نظر لـ(سالم) منزعجاً

- وأنت هتقتلهولها مقابل إيه يا مسيو (سالم)؟

أسرعت (عائشة) مجيبة

- مقابل إني مابلغش عنكم أنتو الاتنين و..

لم تكد تكمل جملتها حتى اخترق سمعها رصاصة أنطلقت من فوهة مسدس (هادي) على مسافة مدروسة باحترافية لتكن قريبة من أذنها ولكن دون أن تمسها أو تفقدها سمعها.

سمعت طنيناً قاتلاً عطل سمعها لدقائق.

أعاد (هادي) مسدسه لطاولته ورشف رشفة أخرى من كأسه بينما ضغطت (عائشة) على أذنيها وهي تصرخ من شدة الألم.

علق (هادي) بابتسامة جذابة

- عندك فكرة يا مدام (عيشة) البيت ده أتقتلت فيه كام زانية زيك؟ التفت لـ(سالم) مؤنباً إياه: أنت جايب لي مومس تهددني في بيتي؟

- خلقك بقى ضيق.

- بينك وبينها إيه يا (سالم)؟

- صاحبة مراتي.

- ذوق مراتك في الناس بشع.

- عارف.

مازالت (عائشة) تأن من ألم أذنها فصاح بها (هادي)

- ماتبالغيش أوى كدا.

صاحت به (عائشة)

- دي مش طريقة شغل، (سالم) قالي إنكم بروفيشنال.

اتكأ على مرفقه بابتسامة مداعبة

- وقالك إيه كمان؟ ماقالكيش إنه ساب شغله البروفيشنال وطلع معاش مبكر؟

التفتت له (عائشة) منتفضة

- يعني إيه؟ يعني أنت مش هتساعدني وجايبني هنا عشان تستفردوا بيا وتقتلوني؟

- إهدي.

قالها (سالم) آمراً فصمتت ثم التفت لـ(هادي) الذي يمضغ الجبن وهمس له

- أنا جايب (عيشة) خدمة ليك.

- وأنت من إمتى بتخدمني ولا مهتم بيا من أساسه يا مسيو (سالم)؟.

- مالوش لازمة كلام النسوان الفارغ ده.. (عيشة) مستعدة ماتحكيش حاجة عننا لا للبوليس ولا لمراتي لو قتلنا جوزها

وأنت (سلطان) غاصب عليك تشتغل ببلاش وهي مستعدة تدفع لك.. كلنا كسبانين.

ظل (هادي) ينظر لـ(سالم) مصدوماً وبدأت ملامح الغضب تسيطر عليه

- هي الطلقة جَت في جنبك ولا دماغك؟

زفر (سالم) وقد تنبأ بعاصفة غضب (هادي) الذي أخذ يشير لـ(عائشة) باستنكار

- دي؟ دي تهددك أنت وتخليك تغير قرارك؟ بعد ما قلت هتسيب الشغل، بقيت مستعد تقتل عشان دي؟

- أنا مش هقتل.. أنت اللي هتنفذ لوحدك.

- كمان؟! صاحها وضرب الأرض بكعبه: طب أنا مش هنفذ حاجة يا (سالم)، يا سيدي دي صاحبة مراتك. اخدمها أنت يا جوز المدام برموش عينيك.

تدخلت (عائشة) في محاولة لتهدئة الأجواء

- ليه كدا بس يا أستاذ (هادي)، ده أنا حتى..

قاطعها بغضب

- أنتِ تخرسي خالص أحسن أنا على شعرة من إني أفرغ

خزنتي في راسك المنعكشة دي.

تجرع (هادي) كأسه كلها دفعة واحدة بينما أشار (سالم) لـ(عائشة)

- روحي يا (عيشة) اتفرجي على أبو قردان.

- أبو قردان؟

- غوري في أي حتة دلوقتي.

نهضت المنبوذة وتركت الصديقين بمفردهما.

بدأ (هادي) يشرب من الزجاجة مباشرة بينما كلمه (سالم) بعقلانية

- في إيه؟

صاح به وقد سيطرت عليه عواطفه وخرج من طور البرود والهدوء

- في إني تعبت. أنت عايز تسيطر على كل حاجة وتؤمر وأنا أقول حاضر وبس، لكن لأ يا (سالم) خلاص، مش كل حاجة بمزاجك.. أنت المرة اللي فاتت بعد ما ضربتني وأهنتني في بيتي وقررت تستقيل، أنا بدأت أنظم حياتي من غيرك.. قررت أبقى سولو.

- طب مانا بقولك نفذ العملية دي سولو.

- ليه؟ قالها وقد بدأت تتبلور عيناه بالدموع: ليه مش عايز تشتغل معايا تاني؟

- ده قراري.

- لأ، مش قرارك لوحدك.. أنا اللي اخترتك من عشرين سنة عشان تبقى صاحبي وشريكي.. أنا ليا حق عليك. ومن حقي أعرف ليه قررت ترمي عشرين سنة ورا ضهرك وتوقف كل حاجة.

زفر (سالم) وقد بدأ صبره ينفد

- يعني لو شرحت لك هتبطل الدراما دي كلها وتهدا؟

رفع (هادي) كتفيه وأشار له

- جرّب.

تنهد (سالم) ثم بدأ يشرح

- أنا خايف على مراتي وابني.

جحظت عينا (هادي) ونظر لـ(سالم) باندهاش، علّ تلك كانت أغرب جملة سمعها منه.

- خايف؟

هز (سالم) رأسه إيجاباً ثم أردف

- لما اتضربت بالنار في الطلعة الأخيرة فكرت هيحصلهم إيه لو مُت؟.. لأول مرة أشوف (حبيبة) وهي مقهورة على أخوها.. مش عايز أكون سبب في وجعها ده تاني ومش عايز ولادي يتربوا أيتام زينا.. أنا كنت بشتغل الشغل ده كله عشان الفلوس، ودلوقتي خلاص، بقى معايا اللي يكفيني، أكمل ليه؟

- عايز تفهمني إنك كنت شغال معايا السنين دي كلها عشان الفلوس وبس يا (سالم)؟ ابتسم (هادي) ابتسامة مُرّة وتكلم متهكماً: شوف يا أخي، وأنا اللي كنت فاكر إننا صحاب.

- بلاش نكدب على نفسنا يا (هادي).. اللي زينا مالهمش لا صاحب ولا عزيز ولا غالي.

- وإشمعنى (حبيبة) و(أدهم) هم اللي غاليين عليك يا (سالم)؟

- عشان هم..

- ماتكملش.. مافيش داعي للكلام خلاص.. كل حاجة وضحت لي.

سعل بقوة مَرَضية فسحب منديلاً من جيبه سريعا غطى به فمه حتى لا تتناثر الدماء ويلحظها (سالم) ثم نظم أنفاسه

ليكمل حديثه لاهثاً

- حتى لو كنت معتبرني مجرد واحد بيشتغل معاك. أنت هتفضل بالنسبة لي صاحبي وشريكي اللي اشتغل معايا عشرين سنة.. ولو العِشْرة مالهاش معنى بالنسبة لك، فهي هتفضل بالنسبة لي أقوى من صلة الدم.

- ماتكبرش الموضوع كدا يا (هادي) أنا..

- أنا هعملك اللي أنت عايزه. هقتلك جوزها عشان نخرسها وما تفضحكش قدام مراتك وتفضل قدامها الزوج الطاهر البريء اللي عمر ما إيده اتلطخت بالدم.. بس خلّي بالك، الموضوع مش هيخلص بالبساطة دي.

- إشمعنى؟

- (سلطان) زيك، لا يهمه عِشْرة ولا صحوبية ولا عُمر، ومش هيسمح لك تبطّل شغل معاه بالساهل كدا.

- ماتخافش عليا.

- لأ، أخاف. وأنت كمان لازم تخاف على نفسك وعاللي يخصّوك. لو عاديت (المايسترو) مش هيقضي عليك لوحدك، ده هيخلع جدرك من الأرض.

الفصل الثامن عشر

بلغ حملها شهره الرابع وعلمت أنها ستُرزق بصبيّين.

على الرغم من أن آمال (سالم) قد اختفت في أن يرزق بفتاة يسميها تيمناً باسم والدته، إلا أنه قرر اليوم أن يعلن الأمر صراحة لـ(حبيبة) الجالسة بثوب حملها الواسع ذي الزهور الملونة مستمتعة بدفء الظهيرة بنادي المعادي الرياضي أمام ملعب كرة القدم الذي تغلبه الخضرة الصناعية حيث يقوم (أدهم) بتمارين الإحماء قبل بداية مباراته.

- بيبي تاني إيه يا (سالم)، التوأم اللي جي ده هيتوّبنا.

- أنا نفسي في بنت.

- وأنا كمان بس خلاص، تلات أطفال كفاية عشان نقدر نربيهم كويس.

- حتى لو مخلفة دستة، هتعرفي تربيهم كويس يا (حبيبة).

نظرت له مندهشة بابتسامة زادت الشمس دفئاً

- إيه ده؟ أنت بتقولي كلام حلو يا (سالم)؟

- جيبيلي أنتِ بس بنت وأنا هوريكي دلع ماشوفتيهوش في حياتك.

- جوز أنارب في الغيط يا خواتي؟

قالها صاحب قميص المسطردة الوهاج والسروال الوردي الفاقع.

التفت (سالم) لتعليق (سلطان) الذي كعادته يعشق فكرة الظهور السينمائي المباغت وكأنه يصور مشهداً من فيلم ومن المفترض أن يحول المصور عدسة كاميرته صوبه ويركز الكادر عليه وحده.

ابتسم (سلطان) صوب (حبيبة) وجذب كرسياً ليجاور (سالم) بلا استئذان

- إزيك يا مدام؟.. أخبار حملك إيه؟

- الحمد الله قالتها متحسسة بطنها بشكل لا إرادي: أنتو أكيد عايزين تتكلموا في حاجة ليها علاقة بالشغل وأنا كلام البرمجة ده ما بفهمهوش.. عن إذنكم.

- على مهلك يا ماما قالها (سلطان) وهو يراقبها تنهض: يتم لك على خير إن شاء الله.

انصرفت عن نظرهما فتحولت نظرات (سالم) التي كانت هادئة ووديعة أثناء حديثه مع (حبيبة) لنظرات عدائية حين التفت لـ(سلطان) الذي تكلم متهكماً

- قال ماليش في كلام البرمجة.. والله ماعارف هي ساذجة ولا أنت اللي حَابِك عليها الدور مظبوط.

- أنا بطلت.

حك (سلطان) ذقنه وانجعص في مقعده

- يعني الولا (هادي) مش بيأَلِس عليا.. أصل أنا لسة متصل بيه بقوله في طاجن صيادية مستنيك أنت وأخوك قالي يا (مايسترو) (سالم) اعتزل أخرج من جيبه أفيونته: أنا قلت له استحالة يكون قرر يَعتزل بدون أمري.

همّ أن يُشعل أفيونته ولكن (سالم) انتشلها من بين أصابعه

- ده لا مكان للأفيون ولا للكلام اللي بتكلمني فيه.

حدق بـ(سالم) ثم ابتسم متهكماً

- بقيت تَخاف يا (بحر)؟

- اسمي (سالم).

- طيب.. شوف يا (سالم)، أنت أول ما قلت لي إنك هتتجوز وتخلف قلت لك مش ليك. اللي زيينا ماينفعش يكون له جدر في الأرض يتقله ويربطه لحد ما يدبل وينشف ويروح فطيس.

- وأنا ماحدش قدر يربطني.

- أومال ناوي تهجرنا وتهجر كارك ليه؟

- عشان ده ماكانش كاري.. ده كان فترة وخلصت.

- مش أنت اللي تقرر إمتى الخلاص يا ابن (حليمة).

كوّر (سالم) قبضتيه ونظر حوله ليدرك أنه إذا ارتكب أي حماقة، سيراه ابنه.

ولكن (سلطان) استطرد وهو يراقب (سالم) يضغط على ضروسه

- كل نبضة قلبك بينبضها وكل نفس بيدخل صدرك ملكي.

- لأ قالها بثقة: العكس يا (سلطان)، إحنا أمنك ومالك ونفوذك وقوتك وسلاحك اللي بترفعه في وش اللي يهوّب ناحيتك، فخد بالك، السلاح لو ماستعملتوش صح طلقته هترد في صدرك.

ابتسم ونظر له بفخر

- كبرت يا ولا.. كَبرت وعَرفت تهدد اللي قواك وكَساك وعَملك راجل.

- أنا مش مديون لك بحاجة يا (سلطان).. أي قرش صرفته

عليا اترد لك مليون الضعف لما شغلتني عندك عشر سنين من غير ما أخد مليم ولحد النهاردة أنت بتاخد نسبة على كل شغل بشتغله.. أنا لا ابن اتبنيته ولا فرد في عيلتك، أنا سهم أنت استثمرت فيه بمزاجك وكان ربحك مليون في المية.

- معلوم قالها وهو يهز رأسه بابتسامة باردة: طب والفيديوهات اللي متسجلة ليك أنت و(هادي) وكنتو بتعبتوهالي و..

- مسحتهم قالها (سالم) بثقة: أنا المبرمج.. أنت نسيت؟

- مش حلوة منك، بس تمام. خلي كل واحد بشوقه ولما نشوف مركب مين فينا اللي هترسى.

نظر (سلطان) صوب (أدهم) الذي صوّب هدفه الأول بالشبكة وركض نحو أمه بسعادة بالغة وهي تعانقه.

نهض (سلطان) ووقف خلف (سالم) وضغط على كتفه مودعاً إياه بابتسامة موحِية

- ربنا يخلي لك اللي خايف عليهم، ومايحزنك عليهم أبداً.

تمنى لو لم يكن بمكان عام في حضور زوجته وابنه، لم يكن ليتردد لحظة في إطلاق رصاصه على (سلطان).

لم يكن (هادي) يهول الأمور حين حدثه عن حدة رد فعل

(سلطان)، فلقد هدده وبكل وضوح بعائلته.

أشعل (سالم) سيجارته وأطرق للأرض مفكراً.

أكان من المفترض أن يعمل حساباً لـ(سلطان) ولإمكانية معارضته لقراره؟

تكاثفت سحب الغضب بداخله.. من يظن نفسه ليأتي ويهدده بابنه وزوجته بتلك الطريقة؟

أوليس بشرياً تنتهي حياته برصاصة ثمنها جنيهين ككل من قتلهم (سالم) قبله؟

- أنا أعرف دكتور ممتاز كنت بتابع عنده.

انتبه لصوت (شوشو) ذات البحة فالتفت ليجدها تجلس بجواره برفقة (حبيبة) العائدة لمقعدها.

- ياريت تديني عنوانه ورقمه عشان الدكتورة اللي معايا دي خرّفت خلاص.

- أنا هحجزلك ميعاد بكرة.

- يبقى كتر خيرك عشان التعب زاد عليا أوى.

أخرجت (عائشة) هاتفها وبدأت تحادث من أتصلت به

- آلو، عيادة د. (رفعت نزيه).. من فضلك عايزة أحجز

ميعاد بكرة باسم (عائشة نشأت).. مظبوط.. في الشهر الرابع.. مناسب جداً.. تمام، ميرسي أوي أغلقت هاتفها والتفتت لـ(حبيبة): خلاص، ميعادك معاه بكرة الساعة اتناشر الضهر.

- هيبقى ميعاد تمرين (أدهم)، ممكن تأخريه أو تبدريه شوية؟

- مستحيل يا بنتي ده الناس عليه أمم.

- طب تقدري تحضري أنتِ التمرين مع (أدهم) لحد ماخلص كشف وأجيلك.

- أنا عمري ما أقولك لأ يا (حبيبة) بس أنا مسافرة الساحل النهاردة مع (سراج).. ربنا هداه وقرر يصالحني.

- أنتِ متأكدة يا (شوشو) من القرار ده؟ أنا خايفة ليعمل فيكي حاجة تاني.

- يا ستي، سيبيها على الله.. المهم أنتِ دلوقتي، ممكن تسيبي (أدهم) في النادي وتروحي بسرعة وترجعي، عيادته قريبة من هنا.

التفتت (حبيبة) ل(سالم) الغارق في أفكاره مخططاً للطرق المثالية للتخلص من (سلطان الدَغَّش)

- هتقدر توصلني يا (سالم)؟

لم يكن منصتاً ولكنه هزّ رأسه موافقاً على أي حال.

نظرت (عائشة) لساعتها ثم نهضت ممسكة بحقيبة يدها متعجلة

- أنا اتأخرت على (سراج)، أنتِ فاهمة هو دقيق في مواعيده إزاي.

قبلت صديقتها ثم صافحت (سالم) وهي تبتسم له وكأنها على وشك أن تنطق قائلة «جاري تنفيذ العملية!.

لو كان بسابق عهده لسمع الآن أغنية «أسفل سماء باريس وتمزج بصوت (إيديت بياف) ولكنه صار جاف المزاج كئيب الهوى.

خالف كل عاداته، لم يشغل أية موسيقى ولم يفتح سقف عربيته ليترك الرياح تداعب شعره الناعم بل دخن سيجاراً اتخذه نديماً وهو منطلق مسارعاً الريح على أسفلت الطريق الصحراوي المؤدي للساحل الشمالي.

رأى هدفه بوضوح فأمسك هاتفه بملل وفتح الكاميرا وشغل التطبيق الذي اعتاد على تسجيل جرائمه من خلاله إلى أن مر بجوار سيارة فارهة شباكها مغلق داكن ليحجب

الرؤية ويخفي هوية قائدة المَركَبة.

ظل (هادي) يقود بمحاذاة السيارة وهو يصور سائقها من خلف نافذته السوداء.

أنزل السائق الشباك بعصبية صائحاً

- بتصوّر إيه يا حيوان؟

لم ينهي نُطق حرف النون.

رفع (هادي) يده عن المقود ومد ذراعه أقصى اليمين حيث الهدف.

واجهه بمسدس Kel- Tech 380 الذي لا يكبر حجمه عن الكف ودون أن يمهله أعدمه رمياً بالرصاص لتخترق رأس الوزير الأسبق (سراج) طلقة أنهت حياته.

مرت من اليمين مخترقة رأسه وصولاً لليسار فاختل توازنه وسقطت رأسه على إطار نافذته المفتوحة بينما أعاد (هادي) مسدسه وهاتفه لتابلوه السيارة.

ضاعف (هادي) سرعته وهو يراقب ما يحدث خلفه بالمرآة.

مازال المرحوم ضاغطاً على البنزين بقدميه ولكن ارتخت يداه عن المقود فترنحت سيارته حتى خرجت عن مسارها ودخلت الحارة المعاكسة لتستقبلها سيارة نقل ثقيل تلطمها

وتقلبها رأساً على عقب.

نفث (هادي) دخان سيجاره وأخذ أول ملف ليعود للقاهرة بعد أن أنهى مهمته إلا أنه لم يضحك أو يهلل أو حتى يبتسم كما اعتاد.

لقدْ فَقَدَ الفنان شغفه.

الفصل التاسع عشر

لا توجد صورة واحدة لطفل ولا لامرأة حبلى.

على أي حال، ليس من الضروري أن تكون كل عيادات النساء والولادة مبتذلة وتغزو حوائطها صور النساء الحوامل والأطفال ذوي الملامح الأوروبية الملائكية فلم يكن هذا ما يشغل بال (سالم) بالقدر الذي شغله أين رأى ذاك الطبيب من قبل؟

شعره الفضي الأملس وشاربه المبروم الذي ينزع عنه هيبة ووقار الأطباء ونظراته المنزعجة وابتسامته الغاضبة جعلوه مألوفاً أكثر من اللازم.

- قولتي لي إنك حامل في توأم يا مدام..

أجابته (حبيبة) رافعة عنه الحرج

- (حبيبة).. مظبوط، الدكتورة اللي متابعة معاها قالت لي إنهم توأم بس أنا..

- دول أول طفلين ليكي؟

- لأ، عندي (أدهم).

- ده كدا تاني وتالت قالها بضيق ثم رسم الابتسامة

المنزعجة ذاتها وهو يعدل النظارة على أرنبة أنفه ثم أردف:
ماكانش كفاية طفل واحد؟ مش شايفة الشوارع بقت زحمة
إزاى؟

تذكره (سالم)!

لقد رأى ذاك الرجل آنفاً بعيد الأضحى بعد أن أتم ذبح
خروفه وقاد عودة لمنزله.

***

وقف سالم بالإشارة بجوار سائق سيارة مرسيدس صاحب
شعر فضي أملس ليمر أمامهما مجموعة من المراهقين الذين
يتباهون بتدخينهم للسجائر ومسكهم لزجاجات الـID ذات
العشرة بالمئة من الكحول ومغازلة الفتيات المارّات بجوارهم
بوقاحة.

حين فُتحت الإشارة، ظل الشباب يرقصون على أغانيهم
الشعبية فتأفف سائق السيارة المرسيدس وضرب بوقه
بعصبية ليستعجل هؤلاء المزعجين المتراقصين وهو يصيح
من شباكه الفسيح بعروق بارزة

- الله يلعن الزيادة السكانية اللي جابت لنا أشكالكم اللي
تقرف دي.

ظل يسب ويلعن العشوائيات والجهل والطبقات الفقيرة

في سره وهو يضغط على البنزين وكأنه يهددهم أنه سيدعسهم بثرائه إن لم يسرعوا.

***

ابتسمت (حبيبة) محرجة ونظرت لـ(سالم) الغارق بذكرى رؤية الدكتور (رفعت) للمرة الأولى وكأنها تسأله العون

- ماظنش إن ولادي هم اللي هيزحموا الشارع حكت عنقها مردفة: (شوشو) صاحبتي قالت لي إن حضرتك أشطر دكتور نسا وولادة في المعادي.

- عندها حق قالها بنرجسية مقطباً حاجبيه: بس مدام (شوشو) خلفت طفل واحد بس، هتعرف تربيه كويس وتدي له كل حقوقه في حياة كريمة بس تلات صبيان مط شفتيه ثم زفر بضيق: كتير.. كتير عـالبلد يا مدام (حبيبة).

- عندك حق قالها (سالم) بجفاء: تلات صبيان كتير، التوأم الجي هيكون بنتين بإذن الله.

رفع الدكتور (رفعت نزيه) حاجبيه مستغرباً لامبالاة (سالم) وعدم اكتراثه لقضية الزيادة السكانية وكثافتها والاختناق الذي صار يعكر مزاجه ويسمم حواسه يومياً.

لم يرَ أملاً فيهما ولا رجاءاً فآثر التركيز على عمله كطبيب لا مصلح اجتماعي ولا وزير للتخطيط والسكان.

- بتشتكي من إيه يا مدام؟

- لثتي ومناخيري بينزفوا أكتر من الطبيعي، ده غير إن ألم ضهري إتضاعف و..

قاطعها الطبيب النرجسي

- دي كلها أعراض طبيعية عشان حضرتك حامل في توأم وكمان ده تاني حمل ليكي.. خلينا نكشف وهديكي حقنة تقلل النزيف والاحتقان.

***

- أنا عمري ما شوفت قلة ذوق كدا.

قالتها (حبيبة) وهي تركب السيارة ولكن فاجأها شعور القئ المقيت فوقفت لحظة مستندة على باب السيارة.

- كويسة؟

قالها (سالم) قلقاً على زوجته التي أغلقت عينيها للحظات حتى تتزن

- آه.. بس معدتي قلبت تاني.

- قلبت من إيه أنتِ حتى ماكلتيش.

- الراجل اللي فوق ده فور لي دمي، أنا مستحيل أتابع معاه.

قالتها وهي تفتح الباب و(سالم) يُسندها لتركب السيارة ثم تحركا.

وضعت يدها على فمها ثانية شاعرة برغبة ملحة في إفراغ محتويات أمعائها المنتفخة التي كانت فارغة بالفعل ولكن الدوّار اجتاحها بلا شفقة.

- وقف العربية يا (سالم).. مش قادرة هرجع.

مدّ يده وناولها كيساً بلاستيكياً.

تقيأت به بينما أوقف السيارة وبدأ يربت على كتفها

- نرجع للدكتور؟

أشارت له بلا وقالت بأنفاس مرهقة وهي تمسح فمها

- اتعود على كدا.. شكل عيالك هيطلعوا عيني.

قالتها ضاحكة بينما رنّ هاتف (سالم) برقم (أدهم) فأخبرها قبل أن يجيب

- هرجعك البيت وهروح أنا أجيب (أدهم)، زمانه خلص.

- يبقى أحسن، حركة العربية تعبتني أكتر.

أدار المحرك وبدأ يقود صوب المنزل بينما أجاب الهاتف

- أيوة يا (أدهم).

- حضرتك والد الطفل (أدهم سالم عبد الرحيم)؟

قالها صوت ذكوري غريب.

- مين معايا؟

- أنا المقدم (وليد عطية) من المباحث الجنائية.

توتر وهو شعور نسى معناه منذ سنوات.

- موبايل ابني بيعمل معاك إيه؟

وقع على عاتقه صمت طويل حمل بطياته معانٍ ثقيلة.

- ممكن حضرتك تعدي علينا في قسم المعادي دلوقتي؟

- إيه اللي حصل له؟

لقد اعتاد المقدم (وليد عطية) نقل تلك الأخبار، فلم يُطيّب الكلمات أو يزين الأحرف، نطقها جافة لا ترويض ولا تهذيب لها.

- إحنا لقينا ابنك مشنوق ورا سور النادي.

لم يفرمل فأعتلى المطب بعنف حكّ مصارين سيارته ورفعه هو و(حبيبة) عن مقعدهما فارتفعت الحامل صارخة

- حاسب يا (سالم).

فرمل فكادت السيارة التي تخلفه أن تصدمه ولكن قائدها كان أكثر يقظة ومهارة واستطاع أن يضغط فرامله في اللحظة الأخيرة.. فالسائق الذي بالخلف لم يُزَف له نبأ أن ابنه مات مشنوقاً.

- يا حمارا!

صاح بها قائد السيارة وهو يتخطى عربة (سالم) التي وقفت بعد المطب.

- في إيه يا (سالم)؟ ماله (أدهم)؟

قالتها مرعوبة وهي تنظر لحالة (سالم) الذي لم يُسقط هاتفه ولم ينزل عينيه عن الطريق.

- آلو.. أستاذ (سالم).

- معاك قالها بنبرة جافة: جَي أستلمه دلوقتي.

أغلق الهاتف وتركه فسألته (حبيبة) وقد بدأت ترتفع رائحة الذعر بالهواء

- تستلم إيه؟ في إيه يا (سالم)؟

عدّل النظارة على أنفه

- الموبايل.. حد سرق موبايل (أدهم) فالكنترول بلغ الشرطة، هوديكي البيت وهروح القسم أستلمه وبعدها.. ثقل لسانه وهو يتابع كذبته: هجيب (أدهم) وأجيلك.

- هو (أدهم) فين دلوقتي؟

في ثلاجة باردة داخل حجرة مظلمة لا دفء ولا نور ولا رفيق بها.

أدار محرك السيارة وعاد للقيادة وهو يهمس بصوت لم يسمعه غيره

- مع (حليمة).

***

أحدهم أنزل له جفنيه ليغلق عينيه عن الغدر الذي شهده.

أكان هذا قبل أم بعد أم أثناء شنقه؟

أكان آخر ما رآه هو وجه قاتله؟ أم التراب الذي تدلت قدميه من فوقه أم السماء التي تنتظره أم ملاك الموت الذي سيصحبه لها؟

هو صغير لم يرتكب إثماً بعد، يستحيل أن تكون روحه قد تعذبت أثناء قتله لتكفر عن ذنب دنيوي لم يرتكبه وإن ارتكبه فلن يحاسب عليه، فهو لم يبلغ الحُلُم بعد.

علّه لم يرَ ملاك الموت ورأى روح (حليمة)، علّ جدته غيداء النوبة أتت له وأخذته من يده ومشت معه صوب الفردوس بلا عذاب قبر أو سؤال.. أوليس صغيراً على كل تلك الحسابات؟

كان صغيراً بحق.

صغير السن والحجم والطول والعرض.

كم كان مقاس قدمه الصغيرة أو عرض وسطه الهزيل؟

ألطالما كانت كفه بهذه الضآلة؟

لم يلحظ (سالم) أن ابنه بهذا الصغر من قبل، لم يشعر بمدى ضآلته إلا حين رآه الآن راقداً بين الملاءتين البيضاوين بملابسه الرياضية الذهبية وحذاء كرة القدم الذي انتقاه له الأسبوع المنصرم وربط له رباطه بنفسه منذ سويعات.. كيف كان له أن يتوقع أن هذه المرة الأخيرة التي سيرى فيها هاتين القدمين واقفتين أرضاً.

مدّ يده ليلمس وجهه الشاحب الذي بُهت من برودة غدر الموت وتأمل شفتيه التي صبغتها زُرقة الاختناق وخدلتها تماماً كما فعل ذاك الحبل الغليظ بعنقه حين سلخ موضعه ونحت علاماته برقبته اللينة كريشة (حورس).

- هو.

قالها (سالم) لـ(وليد عطية) مؤكداً عليه تعرفه على هوية جثة ابنه التي خرجت من الثلاجة.

ثبت نظارته على وجهه وهو يسأل بنبرة ضعيفة بالكاد تُسمع دون أن يرفع عينيه عن صغيره

- عايز التفاصيل.

- اتفضل معايا على مكتبي وهعرفك كل التفاصيل هناك.

- مش هسيبه دلوقتي.

قالها وعيناه ملتصقتان بملامح نجله.

نفذ المقدم مطلبه وسرد أمام الجثة الصغيرة

- حد من أعضاء النادي قال إنه شاف ابنك خارج مع راجل طويل بينده له عمو و..

قاطعه (سالم) وسأله بتركيز حاد

- كانت لكنته إسكندراني؟

- ماحدش كلمه بس..

- كان لابس إيه؟

- قميص برتقاني وشورت أبيض وصندل صيفي.

لم يحتج أن يعرف المزيد.

- بتشك في حد؟ ليك أعداء؟

رفع عينيه عن صغيره وأجاب بوضوح:- لأ.

لا حياة بعد مقتل فؤادك.

ما من لعنة أكبر من أن تحيا دقيقة بعد وفاة سليلك، وعليه ماتت (حبيبة).

مات الزمن وانتحرت الحياة ورقد كل شئ وغطاه الظلام المصمت.

شهقت وحبست نفساً لم تخرجه حتى الآن حين عانقها (سالم) واعتصرها بين ضلوعه وهو يهمس لها أن زهرتهما الغالية قد قطفت.

طلب منها أن تتماسك وألا تنهار حتى تحفظ أملهما الأخير بالحياة.. التوأمان.

ولكنها لم تنهَر، لم تصِح وتصرخ وتبكي وتنشج وتأنّ كما حدث حين وصلها خبر وفاة شقيقها، فالإنسان حين يُجرَح يصرخ ألما ولكن حين يموت يسكن.

تخدلت وتخدرت حواسها وتوقف زمنها وسقطت بعد أن ارتخت مفاصلها فحملها (سالم) ووضعها بسريرها.

ظلت بالفراش مسلوبة الحركة لتصير جسداً لا حركة ولا صوت له.

هكذا كانت هي و(عائشة) جالسة بجوارها على السرير تدفعها غريزة الأمومة للبكاء بحسرة فهو مصير لا تحتمل أي أم حتى التفكير به.

لم يتوقف القرآن وكذلك المعزّون.

أتى الأقارب أجمعون وأصدقاء وزملاء (حبيبة) ومدرسو القتيل الصغير وأهالي زملائه.

اجتمعت النساء حول الفراش الذي ترقد به (نفرتيتي) القرن الواحد والعشرين بملامح كليمة مصمتة وأعين خنقتها الدموع المحتقنة.

كانت تستفرغ من وقت لآخر ويزداد وجهها شحوباً وجسدها برودة وجبينها عرقاً ويتضاعف شعورها بالدوار والوهن.

بالصالة، استقبل العم والخال عزاء أول حفيد بالعائلة بينما ركن الأب المكلوم غرفة ابنه وقطته راقدة بين ساقيه

تواسيه.

لم يفعل شيئاً بالظلام سوى الجلوس على فراش فقيده وتشمم لعبه والتفكير بعد أن أوصد على نفسه بابه حتى لا يدخل أحد ليؤازره بكلمات لا وزن ولا قيمة لها.

لا يعرف كم مضى من الوقت ولكن بتوالي الساعات هدأت الأصوات وساد الصمت إلا من صوت (عائشة)

- يا حبيبتي كدا ما ينفعش لازم تاكلي عشان البيبي.

سمعها تخرج من الغرفة ثم تبع وقع خطواتها رنين الباب ففتحت.

بضع خطوات بالصالة ثم سمع صوت صاحبه

- هو فين؟

أجابته (عائشة)

- ماطلعش من أوضة (أدهم).

طرق باب غرفة (أدهم) ثم أعلن عن وجوده

- افتح يا (سالم)، أنا (هادي).

انتفض (سالم) وفتح الباب سريعاً وتكلم بصوت تحشرج من طيلة الصمت

- كنت جايلك.

لم يجبه (هادي) وعانقه، وللمرة الأولى، شعر (سالم) أنه بحاجة لهذه المؤازرة ولكنه لم يستسلم

- حقه.

- هنجيبه، بس..

- الليلة.

- هيحصل يا (سالم) بس مش هينفع نتكلم هنا.. (حبيبة) جوّة وممكن تسمعنا.. خش البس وننزل نخلص الكلام ده برة.

خرج (سالم) من الحجرة متجهاً لغرفة زوجته النائمة على السرير مغلقة الجفن أسفل الظلام.

جلس بجوارها قبل أن يتجه للخزانة ليخرج ملابسه.

- أنا نازل.. هروح القسم أشوف وصلوا لإيه في التحقيقات.

لم تعلق، مد يده صوب وجهها فشعر ببرودة جلدها واستشعر سائلاً مخاطياً خارجاً من فمها راسماً خطوطاً على وجنتها.

أشعل مصباح السرير ليراها قد تقيأت على وجهها

وملابسها أثناء نومها، أو هكذا تمنى.

سحب المناديل من على طاولة الفراش وبدأ يمسح لها وجهها ولكنه اشتم تلك الرائحة.

رائحة الموت.

- (حبيبة) ناداها فلم تجب: (حبيبة) هزها فلم تستجيب: (حبيبة).

لم يخطئ أنفه يوماً.

ضغط على رقبتها ثم معصمها منقباً عن دقات قلب تعطيه أملاً ضئيلاً ولكنه ظل تائهاً هائماً على وجهه وقد تأكد حين قرب أصابعه من أنفها.

وضع رأسه على صدرها فلم يستشعر نبضاً.

لا نفس ولا نبض.

ما كانت تلك الرغاوي سوى زُبد الموت.

نفذ (سلطان) تهديده واقتلع جذور (سالم) من الأرض.

بقى جالساً مكانه بجوارها مواجهاً شباكه الذي نفذت منه نسمة دخيلة تسللت من بين الستائر التي كشفت عن وجه (خونسو) المنير.

كيف للسماء أن يتوسط كبدها بدرٌ براق في ليلة كهذه؟

كيف لها ألا تزأر وتعصف وتضرب الفضاء برعدها في الليلة التي ماتت فيها (حبيبة) وتوأمها بعد أن رحل وحيدهما؟

كيف لا تبكي السماء بأمطارها الغزيرة على تلك الطعنات التي شلت عمود (سالم) الفقري.

اقتربت (عائشة) من الغرفة حاملة صينية طعام لـ(حبيبة) ودخلت قائلة

- صحيها عشان تاكل.

- ماتت.

قالها بهدوء.

انتفضت (عائشة) فأسقطت صينية الطعام من يدها وأحدثت ضجيجاً أفزع القطة وجعلها تخرخر.

أسرع (هادي) الذي يسعل دماً في منديله للغرفة لاهثاً على صوت الضجيج

- في إيه؟

خلع (سالم) نظارته وطواها ليدسها بجيبه عند صدره وأجابه بنبرة مرتعشة

- (حبيبة) ماتت.

أطرق للأرض مفكراً بـ(سلطان) وبوعيده الذي لم تمضِ عليه 48 ساعة حتى نفذه.

- (أدهم) و(حبيبة) والتوأم ماتوا.

امتلأ كوبه وفاضت دموع كتمها منذ عقود.

ارتعد وخارت قواه كأنه فقد أمه للمرة الثانية فاجتاحه الألم ذاته.

حاول (هادي) أن يحتويه ويواسيه بينما هوت (عائشة) أرضاً تبكي صديقتها الوحيدة و(سالم) واضعاً يده على قلبه الذي كاد أن ينفذ من بين ضلوعه مخترقاً عظام صدره وهو ينشج بصرخة يصدع لها السقف في طريق وصولها لرب السماء.

بكى البؤساء الثلاث وظل الهواء المنعش يلاطف أغصان الشجر لتجيبه بحفيف أوراقها وبقت النجوم تلمع وتتلألأ وأمسى القمر أكثر توهجاً وهو يضيء الكون.

والأرض تدور بمسارها والطيور تنام بليلها والحشرات تحترش بحشائشها وكلّ يحيى حياته ويمارس رويتينه ولا أحد يبالي بما حدث ببيت (عبد الرحيم).

الفصل العشرون

صار تحت الميكروسكوب حين صدر تقرير الطب الشرعي معلناً عن أن سبب وفاة (حبيبة) هو سم الريسين وليس أن قلبها توقف حزناً على وحيدها.

- ما هو مش طبيعي إنه في 48 ساعة ابنك يتشنق ومراتك تتسم يا باشمهندس.

قالها المقدم (وليد عطية) وهو يحادث (سالم) ببلكون شقته.

كان (سالم) يدخن سيجارته و(هادي) يقف بظهره مثلما يفعل دائماً وبالخارج يتصاعد صوت القارئ من الميكروفون والقهوة تدور على المعزّين الذين أصابهم الخبل حين علموا بالخبر ولم يعودوا يفهموا أي لعنة أصابت (آل عاطف) لتسلبهم الابن ثم ابن الأخت ثم الأخت نفسها بجنينيها.

دسّ (هادي) يديه بجيبه وأجاب المقدم اللحوح

- هو اللي مش طبيعي يا سيادة المقدم إننا نتكلم في موضوع زي ده دلوقتي. حضرتك أدّيت واجب العزا ومشكور عليه، بس بالنسبة لباقي التفاصيل، (سالم) هيبقى يعدي عليك في القسم ويدلي بشهادته مد يده صوب المقدم ببرود وابتسم أبتسامة مستفزة: ميرسي.

لم يبادله المقدم التحية بل زفر وخرج من الشقة وصفع الباب خلفه بعنف.

انتظره (هادي) حتى خرج ثم همس وهو يضع يده على كتف (سالم)

- أنت كويس؟

نفث دخانه بتركيز وهو يتابع الحركة بصوان العزاء المنصوب أسفل بلكون غرفة نومه.

- هقتل (سلطان).

صمث (هادي) ولكن ألمه السرطاني لم يؤثر الصمت.

صرخت سعلة قوية شعر أنها شقت صدره لنصفين، فغطى فمه وهو يسعل بأنين ويضغط ضلوعه لتظل بمكانها.

رفع أصبعه مستأذناً من (سالم) وولج الشقة سريعاً مختبئاً بالمرحاض حيث ترك لدماءه العنان باصقاً إياها من بين شفتيه المرتعشتين ألماً ليتبعها القئ الغاشم.

فتح الصنبور ليخفي آثار مرضه ودعى للمرة الأولى أن تخف الرجفة وتستقر أنفاسه التي حرقته.

غسل وجهه الذي اختلط به العرق مع الدموع التي هربت

من مقلتيه من شدة السعال وظل يحاول أن ينظم أنفاسه وهو ينظر لنفسه بالمرآة.

لقد فقد الكثير من وزنه وشحبت بشرته الرائقة وذبل شعره اللامع وشاخ وهج عينيه ولكن ما آلمه حقاً هي تلك الرعشة التي صارت تلازم يديه.

أغلق الصنبور ونشف وجهه ويديه وخرج ليجد (سالم) قد أشعل ضوء غرفته وفتح حقيبة رياضية عبأ بها كل ما يملك من مسدسات وبنادق.

- بتعمل إيه؟

لم يجبه (سالم) وأكمل تعبئة حقيبته دون أن يلتفت صوبه فحذره (هادي)

- بلاش تهور يا (سالم)، الأمور ما بتتاخدش كدا.

لم يعلق فاقترب منه (هادي) مردفاً

- إيه اللي عرّفك إن (سلطان) اللي عملها؟

ترك (سالم) حقيبته وعاد للخزينة السرية المخفية خلف خزانة ملابسه ليخرج منها الكلاشنكوف دون أن يولي كلمات (هادي) اهتماماً ولكن صاحبه تابع الحديث.

- فكر فيها يا (سالم)، إحنا أعدائنا كتير.. اللي قتلناهم مش

قليلين.

وضب (سالم) كل ما يحتاجه من ذخيرة ورصاص وأسلحة وأغلق حقيبته وأبقى معه مسدسه المفضل بينما تابع (هادي)

- أنا عارف إن (سلطان) هددك بس ده (المايسترو).. وبعدين أنت مش قلت إنك خلاص بطلت؟ اعتبر إن ده تمن التوبة.

استدار (سالم) بخفة وسرعة كعادته ليوجه مسدسه صوب وجه (هادي) وعلق على كل ما سبق بجملة تشبه شخصيته، محددة وهادئة وواضحة وتجاب بنعم أم لا.

- معايا ولا معاه؟

***

"اللي بيشكي حاله لحاله، واللي بيبكي على مواله.. أهل الحب صحيح مساكين، صحيح مساكين.

ترنمت أم كلثوم كلماتها التي سحرت مسمع (سلطان الدَغَّش) المتربع على أريكته الجلدية بمنامته البرتقالية ذات الخطوط الصفراء والحمراء معانقاً أفيونته بشفتيه العريضتين وأنامله منشغلة بحك تلك السترة البنفسجية إلى أن شعر بفظاظة أزيز إبرتي الكروشيه وهو يقاطع عظمة

كوكب الشرق، فتوقف عن الحياكة وحمل أفيونته من بين شفتيه وراقص دخانها في الهواء بين أصابعه وهو يغمض عينيه ليذوب عشقاً في كلماتها مردداً خلفها بقلب متمزج

- ياما الحب نده على قلبي ماردش قلبي جواب.. ياما الشوق حاول يحايلني وأقول له روح يا عذاب.

فُتح باب مكتبه ودخل ضيفه بلا استئذان فتعكر مزاجه وفتح عينيه وتوقف عن الغناء.

نظر للطويل الذي ربط ذراعه في حاملة من الشاش المطاط إلا أنها كانت ملوثة ببعض بقع الدماء ولم يعرف (سلطان) إن كان مصدر تلك الدماء هي الطلقة التي أصابت صاحبها بذراعه الأيسر أم الكدمات والجروح التي انتشرت بوجهه انتشار الجُدري الأحمر.

أغلق زائره الباب خلفه ثم جلس على الكرسي المقابل لأريكة (سلطان) وسحب من بين أصابعه الرفيعة أفيونته واستنشق عبقها نافثاً دخانها بالهواء.

نظر (سلطان) باستغراب لذاك الفتى الذي لطالما عارض الدخان وحقّر التدخين والمدخنين

- مسيو (هادي كرواسون) بقى بيدخن؟

ابتسم (هادي) ساخراً وسعل ورمه الذي ينهش كبده ورئتيه فقرر أن يُسكته بنفس سام آخر.

- إيه اللي شلفطك كدا يا ولا؟

- (سالم).

- مش لاقط.

- عايزني أساعده يقتلك.

رفع (الدَغَّش) حاجبه مستفهماً فأردف (هادي) معيداً له أفيونته

- (سالم) عايز ينتقم منك بسبب اللي عملته في ابنه ومراته.

لم يعلق (سلطان) واكتفى بأخذ الأنفاس الأخيرة من أفيونته قبل أن يدفنها بالمرمدة.

- وبعدين؟

- زي ما أنت شايف قالها مشيراً لذراعه الأيسر ووجهه: لما رفضت أساعده وحاولت أفهمه بالعقل إني مش ناوي أكسب عداوتك افتكرني ساعدتك في قتلهم وكان عايز يقتلني.. لولا ستر ربنا الطلقة كانت جَت في قلبي.

- قتلته؟

هزّ (هادي) رأسه نفياً.

- ليه؟

- عشان (سالم) صاحبي.

- صاحبك إيه يا ولا إش حال إنه طخك عيار؟

- عشان أنت سعرته.. أنا لا زيك ولا زيه.. أنتو الاتنين زفر بضيق: أنتو الاتنين عيلتي، فحتى لو وقعتوا في بعض، أنا مش هاخد صف حد فيكم.

ضحك (المايسترو) بقوة.

- أنا عمر الأفيون ما سطلني بس بيتهيألي كدا إني خير اللهم اجعله خير، سمعتك بتقول علينا عيلتك ضحك ساخراً: عيلة مين يا ولا، (سالم) وغَز أبوه في الغيط لحد ما خرمه زي مصفاة، وأنت خانق أبوك بالتبني بالحزام قدام عينيا دول بعد ما قعد تمن سنين يسمنك زي الجدي.. عيلة إيه يا ولاد الحرام أنتو الاتنين.

أخرج (هادي) من جيبه علكته ذات المستكة، وبدأ يمضغها بصوت استفز (الدَغَّش)

- بلاش تستخدم معايا الكارت ده يا (سلطان).. على الأقل

(بسيوني) ماكانش من دمي، إنما (دُرية) أختك اللي من لحمك اللي كبرت على إيديك عملت لك إيه عشان تقتل لها بنتها؟

- ما عملتش.. ما بالك بقى بـ(سالم) اللي عمل؟

- أديك عملت فيه وزيادة.. كفاية بقى، اقعدوا اتصالحوا وصفوا أموركم.

- البركة اللي بتتعكر ما بتصفاش يا (هادي).. (المايسترو) لما بيزعل ما بيصالحش.

- يعني أنت مصمم تقتله؟

ابتسم ابتسامة ساخرة

- هو أنا كدا ما قتلتوش؟

زفر (هادي) ثم عدل من وضع رباط ذراعه المصابة متأوهاً

- براحتكم، المهم إني جي أقولك إني في خطر زيك وهو حالف يقتلنا إحنا الاتنين.

- يقتل مين يا ولا؟ كان غيره أشطر.

- طب وأنا؟

- أنت عديت سور فيلتي يعني كإنك يونس في بطن

الحوت لف لنفسه سيجارة أفيون أخرى: اطلع أوضتك ورتب أمورك، شوف هتكمل شغلك بشريك جديد ولا سولو وتاخد نصيب اتنين؟

ابتسم ابتسامة مريرة ونهض قائلاً

- مابقاش له لازمة التفكير.. كل واحد هياخد نصيبه.

***

ولج العنبر المستطيل ذاته الذي دخله للمرة الأولى حين كان بالتاسعة عشر من عمره بعد أن خنق (بسيوني) بيديه واتخذه (سلطان) مساعداً له.

حينها اعترض، كيف لفنان موهوب مثله شغوف وولع بالقتل أن يبيت بالعنبر نفسه مع الغوغاء من أبناء الشوارع والمياتم.

أصر أن تكون له غرفة مستقلة وقد نفذ (سلطان) طلبه وجعل له غرفة مربعة تطل على ردهة القصر من اليمين وعلى الحديقة من اليسار ليصبح بقلب القصر وسريع الوصول لأي غرفة.

خرج من العنبر الذي عدَّ القتلة المراهقين النائمين بداخله.. كانوا اثنى عشر.

دلف للغرفة التي أعتاد أن يسهر بها لياليه لعشر سنوات إلى أن صار قاتلاً مدفوع الأجر وترك سرايا (الدَغَّش) وابتاع لنفسه ذاك البيت بجزيرة المعادي النائية عن أعين الشرطة وأنوف كلابها.

تذكر حين دخل هذه الغرفة ذات الأثاث الفرنسي المتكلف الذي اختاره قطعة قطعة ودهن حائطها بالأبيض حينها – نعم، لقد كان مدّعي آنذاك – أنه كان أرعن وأهوج ومختال بشبابه وعصبه المتين وقلبه الميت وجسارته وقد كان غروراً محتفياً بجريمته الأولى وشغفه الجديد.

ولكنه الآن مريض ذابل البدن مرتعش اليد يحمل خبيثاً ينهش جسده ويمتص روحه متغذياً على صحته وقوته التي بدأت تخر تدريجياً ولكن هذا كله لن يكون عائقاً بينه وبين تحقيق مرامه الآن.

وقف بالزاوية التي اعتادت أن تكون نافذة رخامية يطل منها على الحديقة فوجد الستائر المخملية منسدلة عليها، جذبها ليكتشف أنها أمست حائطاً زجاجياً ثقيلاً لا مخرج منه ولا فتحة به.

تحسسه بيده ليخمن سُمكه وليكتشف أنه زجاج عازل للصوت فزفر بضيق.

اتجه صوب الخزانة التي لم تضم شيئاً سوى الأسلحة والمطارق الثقيلة، ففتحها ليعرف إن كان قد تغير حالها كما تغيرت حال نافذته ولكن ظنه لم يخب.

كل الأسلحة بمكانها بلا تغيير فدس يده بجيبه وابتسم راضياً.

انتقى خليلته العسكرية، بندقية من عيارAR 15- يصاحبها مسندها المعدني الرفيع.

جرّ كرسيه الجلدي الأنيق الذي طُرزت عليه يدوياً لوحة زرقاء لسماء (فان جوخ) ثم حمل الرشيقة ذات العود المعدني الخفيف وأسندها على مقعده وجلس واضعاً ساق فوق الأخرى.

أخرج سيجاره الذي صار رفيقه واتّبَع تعليمات البارمان في إشعاله وبدأ يدخنه مراقباً السماء الداكنة وحشائش الحديقة.

أوصل سماعاته بهاتفه الذكي وثبتها بأذنيه ليأتيه صوتها الذي اشتاق إليه فأتى الإكسيليفون فالطبول يرافقهما الأكورديون الباريسي المرح وتنساب الكلمات بينما يهز (هادي) رأسه وقدمه على إيقاعها السعيد وهو يغني معها

- أنت تصيبني بالجنون، فأنت رحلتي، دائماً أشعر أنني في عيد حين تأخذني بين ذراعيك، ومعك أود أن أطوف العالم

كله.

أشار بأصابعه في الهواء وكأنه الليلة مايسترو تلك المقطوعة.

***

ألقى حقيبته المحملة بالأسلحة أسفل كرسيه وطار على الطريق.

حين أقترب (سالم) من الطريق الذي يعلم أنه خال من عناصر الشرطة والكمائن وكل الكائنات الحية، سحب من حقيبته الكلاشنكوف AK- 47 وأرتدى حزامها حول كتفه وصدره وأسرع صوب بوابة القصر.

مدّ رجل الأمن يده بحزم آمراً إياه أن يتوقف ولكن (سالم) بخفته وسرعته أشهر سلاحه وعمّره ليعلن عن سقوط أول قتيلاً له بتلك المعركة الحتمية حين أصابه بطلقة أخترقت زجاج السيارة أولاً ثم رأس الحارس عريض المنكب وسحب قنبلة يدوية بصغر راحته، قوامها يشبه ثمرة الأناناس.

ضغط على طرف صغيرته التي عانقتها أصابع كفه وسحب حلقتها لينفك دبوسها ثم أخرج كتفه من النافذة وألقى بها من سيارته صوب البوابة التي شُيدت لحماية مايسترو سمفونية الإجرام التي لطالما كان (سالم) آلة بها.

حوّل مسار عربته وصار يقود للخلف قبل أن تهبط القنبلة على حصن (الدَغَّش) ويزأر دوّي انفجارها الذي أسقط حديد البابين اللذين كانا يوماً شامخين فعاثت الأرض تراباً ودخاناً خانقاً وأمست الساحة خاليا منتظرة (سالم) أن يغزو سرايا صاحبها.

دوى الانفجار وغطى على صوت العود وكلمات كوكب الشرق وقاطع حياكة (سلطان) لسترته للمرة الثانية.

ترك الإبرتين وكرة الصوف وأبقى أفيونته بين شفتيه.

نهض صوب نافذته المطلة على الحديقة ليرى البوابتين أرضاً والنيران تتراقص حولهما كطقس ماجن.

همّ أن يصعد ولكنه سمع ما أوقفه..

أزيز الرصاص.

عَلِم أن هناك دماءاً قانية متناثرة على العشب تنتظره بالأسفل فلم يقوَ على رؤياها.

أوصد على نفسه مكتبه بالمفتاح وهرع صوب الهاتف متصلاً بمدير أمن قصره فأجابه

- ماتخافش إحنا..

- أنا ما بخافش صرخ به: (سالم) اللي برة؟

- مش لوحده في حد من جوة بـ..

لم يكمل مدير الأمن جُملته لأن رصاصة أخرست أنفاسه.

ولم يتطلب الأمر أكثر من ذلك ليفهم (سلطان) ما يدور بالتفصيل.

***

دوى الانفجار وغطى على صوت الإكسيليفون والأكورديون وكلمات العصفورة الباريسية وقاطع تدخين (هادي) لسيجاره.

نهض عن كرسيه بابتسامة متحمسة وخلع ماضغ اللبان رباط ذراعه المزيف ومسح الجروح والكدمات الكاذبة التي اتقن رسمها بمساحيق التجميل كخبير.

جذب المبتهل من خزانته مطرقة غاشمة نزل بها على الزجاج الذي يحجب عنه متعته فهشمه وبدأت الرحلة.

حمل عشيقته الأمريكية وأسندها على كتفه واتكأ على عودها بذقنه وألصق مقلته بمنظارها كقرصان على وشك ركوب بحر هائج.

وضع أصبعه على الزناد وأحكم مسكته وانتظر الإشارة ماضغا علكته.

عبر الأب والزوج المغدور به فوق البوابة ليقابله سرب من رجال الأمن.

لم يمهلهم.

دعس بنزينه بأقصى سرعة وصار يرطمهم ويعتليهم بعجلة سيارته تارة ويصيبهم برصاصات سلاحه الروسي تارة أخرى ولكن أعدادهم كانت لا تُحصى وعليه، تطلب الأمر مساعدة من الجو.

من بين السحب الليلية، أمطرت السماء رصاصات الـAR-15 الأمريكية.

استطاع (هادي) أن يتقن دور القناص منتقياً أهدافه من غرفته المكعبة عبر الزجاج المهشم بسرعة **٣.٢٥١** قدم بالثانية.

أسقطهم كأوراق الخريف الذابلة دون أن يُصيبوا شريكه بخدش وترك له الساحة خاوية ليكمل (سالم) طريقه حيث مكتب مدير أمن السرايا المنشغل بمحادثة (سلطان) على الهاتف لطمأنته فأخرسه بطلقة ثم سحب منه الهاتف ليحادث من أتى ليقتص منه.

- قلت لك إن السلاح لو ماستعملتوش صح طلقته هترد في صدرك يا (دغش).

أسقط السماعة وترك (سلطان) يناديه

- آلو.. آلو.

***

لم يكن (سلطان) بالرجل الهائم الحالم على الرغم من أنه كان كذلك صبياً.

استطاع أن يفهم الوضع ويتوصل لنهايته بحسبة بسيطة.

لقد مات كل رجال الأمن المقيمين بالدور السفلي والغرف المستقلة بمحيط الحديقة ولم يعد لديه أملٌ سوى براعم المجرمين المقيمن بالطابق الثاني.

مازالوا قتلة تحت التمرين لم تُصقل مواهبهم بعد، ولكنهم أمله الوحيد وخلاصه الأخير.

فكر في أن يفتح الباب ويتجه لعنبرهم ليحتمي بينهم ولكنه ارتعد حين تخيل منظر الدماء الملحمية التي ستسفر عن تبادل الأعيرة النارية بينهم وبين (سالم) القاسم على أن ينهي حياته الليلة.

مما لا شك فيه أنه يفضل الموت على أن يرى الدماء بعينه، ولكن لا بأس بأن يلصق أذنيه العريضتين بالباب لينصت لِما يدور عله يبصر مخرجاً.

أحصى (هادي) الذين أسقطهم بالحديقة بالفرنسية كطفل يتعلم العد

- Un, deux, trois, quatre...

توقف عند الرقم خمسة وعشرين وعَلِمَ أن هناك المزيد من الأرواح التي تنتظر الحصد.

فتح بابه المطل على عنبر الفتية القتلة وانتظرهم حتى يفتحوا الباب ويخرجون.

أصاب الأول من الباب الموارب في رأسه.

في لحظة خاطفة وبالطريقة نفسها، أنهى حياة الثاني فالثالث فالرابع ليسقط المراهقين الأربعة الذين دفعتهم البسالة للاندفاع للخارج متوالين.

تراجع الثمانية المتبقون صوب الغرفة وأوصدوا الباب بالمفتاح والقفل ظانين النجاة.

تراكموا بالعنبر خلف الباب متساءلين فيما بينهم بما العمل؟

لم يعرف الصبية أن باب غرفة (هادي) الجانبي ينفتح على مؤخرة عنبرهم.

فتح الباب ودخل مباغتاً إياهم من الخلف صائحاً بلكنة

فرنسية تنطق فيها الراء غين.

- Surprise!.

ثقب أجسادهم برصاصه الأمريكي لتتساقط الفوارغ بين قدميه وتصل صرخاتهم لآذان (سلطان).

***

رضخ (سلطان).

تيقن من أنه لم يعد هناك مفرٌ من موته المحتوم.

لعن فوبيا الدماء التي أصابته منذ كان بالثانية عشرة من عمره حين كان فتي خفيف الظل يحلم أن يصير نجماً مسرحياً مثل (عادل خيري) و(نجيب الريحاني).

كان (سلطان) المراهق يبيع الفريسكا الطازجة على الشاطئ صيفاً ويحوك السترات الصوفية مع أمه شتاءا ليبيعها بـزنقة الستات مهرباً بها الحشيش والأفيون خلسة لتجار «الزنقة ليلاً ولطلاب المدارس والجامعات نهاراً، كل هذا فقط ليحصل على ثمن تذكرة مسرح بيرم التونسي الذي وقف على خشبته عظماء لم يفوِّت لهم عرضاً واحداً.

ففي كل ليلة، يندس وسط الجماهير ليحصل على أوتوغراف من الممثلين ويخبرهم بولعه بالمسرح ورغبته

المميتة في أن يعتلي خشبته ويصير واحداً منهم لتُقابل أمنياته الرعناء بنظرات الامتعاض واحتقار ملبسه ثم ابتسامة منافقة يليها الاستئذان بالرحيل.

إلى أن أصرّ ليلة واستمر إلحاحه على أحد المخرجين لينصت لمونولوج ألّفه بنفسه.

أجابه المخرج قبل أن يسرد الجمل التي ألفها ليلاً وهو ينفث أفيونه فوق سطح بيته المتهالك وسط عشش الدواجن متمنياً ألا يلحظ التلميذ الذي سيبيع له قطعة الأفيون تلك أنها ناقصة بضعة أنفاس.

- طيب طيب، عدي عليا بكرة في المسرح الساعة اتناشر، خلينا نشوف.

ابتهجت ملامحه وراقصه قلبه.

خرج من المسرح حين أمطرت سماء الإسكندرية وتساقطت المياه على سيارات الأجرة الصفراء فصار مخموراً بنشوة الطموح وهو يركض على كوبري ستانلي متجهاً لبيته غير مبالٍ بابتلال ملابسه ذات الألوان التي تُعتبر في حد ذاتها من الكوميديا الإغريقية.

وصل الحالم المبتهج إلى بنايته العتيقة المتراخية الأساسات، وغنى مونولوجه على سلالمها المتهدجة وهو

يثب سلمة تلو الأخرى وصولاً للسطح حيث يبيت مع شقيقته الرضيعة وأمه ووالده بغرفة معششة السقف.

فكر في أنه علّ الأمطار الآن تدافعت من بين ثغرات سقفه وأغرقت غرفتهم ولكن لا بأس، اليوم هو طامح أخذ أولى خطوات تحقيق حلمه ولن يسمح للظروف أن تعكر مزاجه.

سيدخل الغرفة ليجد أمه تحوك سترة صوفية فيأخذ منها الإبر ويرفع ظهرها الذي انحنى على ماكينة الخياطة ويزف إليها الخبر ويعدها أنه سيتولى كل نفقات المنزل من الآن فصاعداً ويرحم أبيه الصياد الذي يغيب لشهور بالبحر منتظراً إياه أن يمن عليه برزق لن يأخذ منه سوى نسبة ضئيلة.

ولكن ما حدث كان مختلفاً!

فتح الباب الخشبي الضعيف الذي لم يحجب بكاء وصرخات أخته الرضيعة (دُرية) ليرى أمه متكئة على ركبتيها والماء يخر على رأسها من السقف وعلى كل ما بالغرفة التي يسيطر عليها رائحة معدنية ثقيلة، رائحة لن تذهب عنه ما حيِي.

رائحة الدماء.

رأى ذو الثانية عشرة أمه التي اعتادت أن تحوك ملابس

مبهجة الألوان بأصابعها، تقطع جثة بيديها.

هوت بساطورها على جثة ذكر ملقى على ظهره فسمع صوت طرقعة الترقوة وانفصالها عن باقي الجثة الباردة التي حممتها الأمطار.

صعد أطيط بطنه وكاد أن يبلل سرواله إلا أن أمه التفتت لتجده يقف خلفها فأمرته

- تعالا.

اقترب منها ولا يعلم لِمَ نفذ أمرها ولِمَ لم يركض ويعفي نفسه من رؤية التفاصيل.

وقف عند كتفها ليرى هوية جثتها ولكنها كانت مبتورة الرأس ولم يتخيل أنه قد يرى بحياته هذا القدر من الدماء.

- عبي.

ألقت بوجهه أكياس القمامة البلاستيكية.

كمن سُحِر له وسلبته النداهة إرادته، نزل على ركبتيه ولملم ما قطعته بساطورها وعبأه بالأكياس.

تصاعد عبق الدماء مع رائحة الأمطار وتلوثت يداه بالدم القاني الجاري مجرى المياه الخارجة من أسفل الباب.

علّه كان فاسداً شقياً يبيع المخدرات والممنوعات ويحمل بذور الجريمة والشر بتربته إلا أنه لم يكن بقاتل ولم يفكر يوماً بإراقة دماء أحدهم.

لا يعرف لِمَ لم يبكِ أو يصرخ وقتها ولكنه بأيدٍ مرتعشة وضلوع مرتعدة أخذ يعبئ كل أعضاء الجثة وهو غارق بدماء ذاك الرجل المجهول.

انتهت الأم ذات الجلباب الذي كان أبيضاً ولكن الدماء صبغته بالأحمر القاتم من تقطيع جثة ضحيتها ثم أمرت ابنها بالنبرة الباردة ذاتها

- ارميهم في البحر.

نفذَّ.

حمل بعض الأكياس وكاد يرحل ولكنها استوقفته.

- اصبر قالتها وهي تعطيه كيس كانت قد عبأته قبل دخوله: وده كمان.

أخذه بلا نقاش ثم خرج ليعبر الطريق الثاني حيث البحر المتلاطمة أمواجه أسفل الكوبري.

وضع الأكياس جميعها أرضاً ورمى الكيس الأول فالثاني ثم أتى دور حمل الكيس الثالث الذي كانت أمه قد عبأته قبل

مجيئه لتكون محتوياته أثقل من خامته الرديئة فينقطع ويسقط ما بجعبته.

رأس!

أسرع (سلطان) مذعوراً يحملها حتى لا يراها أحد ولكن ذعره تضاعف حين رأى ملامح تلك الرأس المبتورة.

كانت لأبيه.

أفرغ محتويات معدته حين أدرك أنه ساعد أمه على تعبئة أعضاء أبيه بأكياس سوداء ليلقي بها لليم.

خارت قواه وسقط أرضاً يبكي ويخمش وجهه كالنساء والدموع تركل دماء أبيه التي لوثت وجهه حيث مجراها.

ترك باقي الأكياس وركض صوب الغرفة.

خاف أن يطأها ثانية وبمجرد تفكيره بمنظر الدماء أصابه ألم بصدره وضاقت أنفاسه وشعر بالدوار وبرغبة ملحة بالتقيؤ.

لن يقوى على دخول تلك الغرفة أو رؤية قطرة واحدة من الدماء بعد الآن.

طرق الباب بعنف دون الولوج.

خرجت السفاحة صاحبة الساطور حاملة المزيد من الأكياس ليلقى الدفعة ثانية من جثة أبيه.

- قتلتيه ليه؟

صاح بها (سلطان) وهو يبكي وأسنانه تصطك خوفاً.

لم تجبه، عادت للغرفة وحملت شقيقته (دُرية) الباكية وألقت بها نحوه فتلقفها

- امشوا.

حمل أخته الصغيرة على كتفه ولكنه لم ييأس فسألها وهو ينشج باكياً

- قتلتي أبويا ليه؟

ضغطت على كتفه ونظرت له نظرات مرعبة لن ينساها طالما حيي

- بيع الكل.. الغالي والعزيز.. بيعهم.

تركته ومشت حيث سور السطح.

تبعها المراهق الناحب الذي لا يفقه ما يحدث حوله حاملاً شقيقته التي لم تتوقف عن البكاء.

رآها تصعد السور فلم يترجم عقله ما يدور.

وضع شقيقته الصغيرة أرضاً وهمّ أن يجذب أمه من ثوبها حتى يوقفها ولكنها دفعته بعنف فسقط ثم رآها تقفز من فوق السور وسمع صوت عظامها تقابل الأسفلت.

لم يقوَ على النهوض والنظر لمصير جثتها، لم يتحمل فكرة رؤية المزيد من الدماء.

حمل شقيقته وهرب.

عرف قصة أمه وحقيقتها لاحقاً.

فَهِمَ أن جزار الحي كان يهاديهم اللحوم لأنه يسكن فراش أمه في أشهر غياب أبيه بالبحر، وأن الصياد المسكين عاد مبكراً عن ميعاده فوجد غيره يطأ زوجته ففارت دماؤه وكاد أن يثأر لشرفه ولكن الجزار باغته بساطوره ونحره فاصلاً رأسه عن كتفيه.

أمر الجزار عشيقته أن تقطع باقي الجثة وتلقيها باليم حتى لا يعلم الجيران بما صار وألا يتركا أثراً خلفهما ولكن صدمة نفسية غزت عقلها فأصابته بعطب وجنون حتى انتابتها حالة خدلت أحاسيسها وجعلتها تنفذ أوامر الجزار بلا تفكير إلى أن أنهت مهمتها وبعدها ندهتها النداهة.

كيف لها النجاة بعد أن رآها ابنها وشهد على جريمتها بل بعد أن أجبرته على مشاركته إياها.

لم يظل أمامها سوى خيارين، إما أن تقتله وتفعل به ما فعلته بجثة زوجها وإما أن تغسل عارها وخزيها بنفسها وترحم روحها من أن تشهد فضيحتها بالحي.

وقد كان الانتحار مثواها وفوبيا الدماء داءا يصاحب (سلطان) ما حيي.

وهكذا، آثر (سلطان) أن يرديه (سالم) قتيلاً على أن يرى دماء صبيته منتشرة بالقصر الرخامي.

فتح الباب بالمفتاح ليُسهل على قاتله الدخول ثم عاد إلى أريكته ورفع صوت أم كلثوم وأشعل لنفسه أفيونة أخيرة.

نظر للسترة الصوفية بحزن مدركاً أنه لن ينهيها على الرغم من أنه متأكد من أنها ستكون بديعة الحسن، محكمة الغرز، فريدة اللون، ناعمة الملبس وثقيلة الخامة، تدفئ بدن مرتديها.

لمس السترة للمرة الأخيرة ثم نفث دخان أفيونه واضعاً ساق فوق الأخرى وسمع وقع الخطوات يدنو من مكتبه وأحدهم يدير مقبض الباب ويدخل.

دخل (سالم) على وجهه رذاذ دماء ضحاياه ممسكاً بالكلاشينكوف ومن خلفه (هادي) الذي لم تطله قطرة دم

واحدة يجر بندقيته الأمريكية وراءه.

نفخ (سلطان) دخانه ناظراً لمن علمهما فك السلاح وتعميره.

- مين فيكم اللي هيخلص؟

رفع (سالم) سلاحه بوجه (سلطان) فقال (الدَغَّش) بعد أن سحب نفساً جديداً من سيجارته

- معلوم.

سأله (هادي) بابتسامة خبيثة

- إيه يا (مايسترو)، مش هتقاوم؟

- عشان كام سنة زيادة؟ نفخ دخانه ماطاً شفتيه بلا مبالاة: كلنا هنموت يا حبيبي.. المهم إن أنتو الاتنين تعرفوا إني مُت راجل وأنتو عيشتوا مغفلين.

نهض عن مقعده ووقف على قدميه ضاغطاً على أفيونته الأخيرة بشفتيه ووضع يديه بجيوب منامته البرتقالية بعجرفة وقال بابتسامة شامتة

- هوصل تحياتك للمدام والأولاد.

فجرّ (سالم) رأس معلمه بست رصاصات.

ست رصاصات أنهت أسطورة ذاك السكندري الأصل، إغريقي الملامح الذي كان يحلم بالكوميديا المسرحية ويطمح بالنجومية من خلال خلق الضحكة على وجوه الناس إلا أن القدر جعل (سلطان الدَغَّش) الذي يعني اسمه قوة الظلام، ملاذاً لكل الشرور.

تحول منبسط اللسان، الأريحي المخارج من شغوف بالنكات والمونولوج إلى مصنع للإجرام، راحت حياته على يد مجرمين شكلهما بأنامله.

لم تتوقف (أم كلثوم) عن الغناء ولم يصمت صوتها المنساب من المذياع بينما توقف قلب (المايسترو) عن النبض وانتهت سيمفونيته الدامية.

الفصل الحادي والعشرون

هو عهد قطعه على نفسه.. أن يكون موته اختياره.

لا يعلم لِمَ تأخر قراره هذا وأجّله لأسبوعين طالت فيهما ذقنه وشعره ووهن بهما جسده الذي لم يعد يقوم بشيء سوى التقلب بالفراش على صوت التلفاز المفتوح على قناة واحدة لأنه وللمرة الأولى بحياته صار يخاف الصمت فود أن تحيطه ضوضاء بيضاء وأصوات تبقيه متيقظاً وتؤرق منامه إذا غفى حتى تنتشله من الكابوس ذاته الذي يعيد فيه عقله الباطن تمثيل مشهد مقتل ابنه وزوجته.

استيقظ اليوم على خرخرة هرّته وهي تتمدد فوق صدره متغنجة.

دعكّ عينيه بغرفته المظلمة التي لا يدرك لها ليلاً من نهاراً بسبب النافذة الموصدة والستائر المنسدلة فلا سلطان ل(خونسو) ولا حُكماً لـ(رع) بحجرته.

ولكنه اليوم قرر أنه سينهي حياته فور أن يستيقظ.

فتح درجه وأخرج مسدسه الذي لم يعد يبالي بتخبئته وعمّره.

نظر أمامه صوب خزانته المفتوحة حيث تمثال (سوبك)

التمساح الواقف المجاور لتمثال أمه الذي نحته له (هادي) ففكر بـ(حليمة).

هنا واجه نفسه بسبب تأخير قراره بنقل روحه للعالم الآخر، فبذاك العالم ستنتظره (حليمة)، فهو يخاف ملاقاتها.

فكّر بالأمر للحظات ولكنه أدرك أن تأخير هذا القرار لن يفيده وأنه حتى إن شاب ومات شيخاً كـ(سلطان) سينتهي به الأمر بمرور البرزخ وملاقاة أمه وعليه، لن يكسبه التأجيل والتلكع سوى المزيد من البؤس.

وضع فوهة سلاحه بفمه وكاد أن يوافي موعده مع عزرائيل ولكن التلفاز استوقفه.

صورة لصاحب الشعر الفضي الأملس وشاربه المبروم الذي ينزع عنه هيبة ووقار الأطباء.

أخرج المسدس من فمه والتقط نظارة نظره ليقرأ عناوين الأخبار:

"القبض على الطبيب مسمِّم الحوامل بعيادته بالمعادي."

رفع (سالم) صوت التلفاز لينصت للمذيعة المتحدثة

- وقد تم القبض على طبيب النساء والولادة الشهير (رفعت نزيه) بعيادته بعد ربط جرائم وفاة تسع نساء بمحيط منطقة

المعادي – حيث عيادته – مُسممات بمادة الريسين وقد أفادت التحقيقات أن دافع الجريمة هو رغبته المختلة في تقليل الزيادة السكانية.. وعليه، تم إيداعه بالخانكة إلى حين عرضه على لجنة من خبراء الصحة العقلية لتقييم قواه العقلية.

قطّب (سالم) حاجبيه وتذكر.

لقد حقن ذاك الطبيب (حبيبة) بمادة أقنعها أنها ستهدئ احتقان ونزيف أنفها ولثتها المستمر وبعدها بأقل من ٤٨ ساعة وافتها المنية.

ولكن أهذه هي النهاية؟

أكان مقتل (حبيبة) مجرد صدفة لوقوعها ضحية بيد طبيب مجنون قرر أن يقتل الحوامل لتقليل الزحام بالشوارع؟

أصدف أن يتبع هذا تهديد (سلطان) له بيوم؟

***

انطفأ وهج شعرها الأحمر حين صبغته بالأسود لتعطي نفسها مظهراً وقوراً يليق بكونها (شوشو شوكت) سيدة الأعمال التي ورثت ملايين زوجها القتيل الذين مازالوا يبحثون عن قاتله ولتحبك الدور، ظلت ترتدي الأسود حداداً

على من قُتِلَ بأمرٍ منها.

وقفت بالمرآة تكحل عينيها بعد أن ارتدت بدلتها الأنيقة القاتمة وزينت عنقها بالماس وكذلك أصابعها الرفيعة ناتئة العظام ومعصمها.

رشت عطرها الباهظ ثم أتاها صوت صغيرها

- يا مامي يلا، هنتأخر على الـparty.

- حاضر يا حبيبي نظرت لقدميه: روح لناني عشان تلبسك الشوز على ما الشوفير يجي.

- أوكيه.

قالها مطيعاً وخرج ليتركها تتم زينتها ولكنها كانت متعجلة لشيء آخر.

دخلت مرحاض غرفتها وأوصدت بابه بالمفتاح.

أغلقت غطاء مقعد الحمام وأخرجت تذكرتها لعالم الهلاوس والتخدر من صدريتها كما اعتادت.

نثرت الكوكايين في خط. لفت ورقة المئتين جنيه وحولتها لشفاطة شفطت بها الكوكايين بثقب أنفها فانتشت وهوت بجوار الحمام مسندةً ظهرها على طرف البانيو.

ارتفعت روحها عن جسدها للحظات ولكنها رأت العنكبوت القاتل ذاته يتسلق سقف الحمام الأنيق ويحوك خيوطه لينزل متأرجحاً على خيط منهم ويقف أمام وجهها.

كان يصدر صوتاً غريباً كأزيز الرصاص.

شعرت به يهز باب حمامها ويحاول أن يدير مقبضه.. ياله من عنكبوت مخبول لِمَ قد يحاول فتح باب الحمام وهو بداخله بالفعل.

حين رُكِلَ باب الحمام ودخل الزائر المسلح فهِمت أنها لا تهذي ولا تحلم وأن ما يدور حولها ليس بأثر الكوكايين.

- قتلتيهم ليه؟

قالها (سالم) بثبات فأجابته بأعين زائغة ولسان أثقله الكوكايين

- مين؟

لم يتبدل خدر البودرة البيضاء ليقظة إلا حين أصابها (سالم) بطلقة بكتفها وأخرى برُكبتها فصرخت بعنف والدماء تندفع من ثقبي الرصاصتين.

- قتلتي (حبيبة) وولادي ليه؟

نشجت وارتعدت وهي تضغط على موضع كل رصاصة بيد

وأنفاسها تتصارع ودقات قلبها تتنافس ولكنها وجدت صوتاً دافعت به عن حياتها

- ماقتلتش.. ماقتلتش حد.

- مامي!.

صرخ (مالك) الصغير وهو يقف خلف (سالم) مشاهداً أمه تنزف من عدة مواضع فبكي مرعوباً.

انتشله (سالم) وجذبه من ملابسه وصوَّب مسدسه حيث رأسه الصغير فصرخت (عائشة)

- لأ. لأ، يا (سالم). هو مالوش دعوة.

- أومال مين اللي له؟

بكت مرتاعة على صغيرها

- (هادي).. (هادي) اللي إداني كارت الدكتور اللي سمّها.. أنا ماعرفوش ولا عمري شوفته، هو اللي ظبط معاه كل حاجة وقالي أخلي (حبيبة) تروح له مقابل إنه يقتل (سراج).

شعر الكلمات ثقيلة وغير مفهومة، لِمَ يحرّض (هادي) على قتل زوجته.

- أنا ماكنتش أعرف إنه هيقتلها، والله العظيم ماكنت

أعرف، أنا اتصدمت زيي زيك.

- طب ده أنا أعرف واحد بيقتل بدون أي مقابل مادي عشان يقلل الزحمة.. فاكر نفسه (ثانوس) بروح أمه.

صفعته تلك الجملة التي خرجت من فم (هادي) بالمصعد بعد أن قتلا الطبيبة النفسية (سلوان).

كيف لم يربط تلك الخيوط ببعضها؟

- ليه؟

قالها (سالم) فأجابته (عائشة) التي صرخ بدنها ألماً

- ماعرفش.. والله ماعرف، سيب (مالك).. سيب ابني.

- بس أنتِ ماسيبتيش ولادي.

صفعت وجهه الدماء المنفجرة من رأس ابنها الصغير الذي أصابته رصاصة (سالم) المقتصة.

مات ما بقي من قلبه حين دفن ابنه وقد حان الوقت ليُشعرها بالألم ذاته.

صرخت وصاحت ونشجت وزحفت حتى جثة صغيرها وهي تطلب العون والنجدة.

تركها (سالم) حية بضعة دقائق ليراقبها تذوق ما أطعمته

حين أنهت حياة صديقة عمرها بدم بارد.

نحبت وأنّت وبكت ثم سكنت تماماً حين لحقت ابنها برصاصة أخرى أنهى بها (سالم) قصة (عائشة) التي كانت التفاحة الفاتنة التي أغرت آدم وأنزلته من فردوسه إلى أرض حقيرة.

***

داعب شعره فسقطت بضعة شعيرات بين أصابعه.

نفض الشعر عن يده بمرارة ثم نظر لمن حوله بالمقهى باريسي الطابع.

كان على جدرانه ورق حائط ملون لبرج إيفيل وقوس النصر واللوفر ولكن الصورة الأقرب لقلبه هي تلك التي بالزاوية لـ(إيديث بياف) رافعة يديها لأعلى مناجية جمهورها ورافعة رأسها بشموخ.

أحب موسيقى الأكورديون التي مَزَجَته، وراقته القهوة الفرنسية التي وضعها له الجارسون الطائف بين طاولات الكافيه الذي يشبه المكعب الزجاجي فتخترقه شمس الظهيرة وتسكن الحركة حوله بسبب موقعه المتطرف أسفل أغصان شجر المعادي فوهبه مكانه الهادئ، انطباعاً بالعزلة النائية عن حركة المشاة والسكان وضجيج السيارات.

ارتشف (هادي) قهوته ونفث دخان سيجاره وتابع حركة النادل الذي يُنزل المخبوزات والمشاريب على الأفراد العشر المترامين بأطراف المقهى على الأرائك الحمراء ذات الوسائد السوداء.

ظل يتأمل ما يدور حوله إلى أن ابتهجت ملامحه وانفرجت أساريره حين رأى (سالم) يصف سيارته على الحيد المقابل للكافيه أسفل الشجر.

ولج (سالم) المقهى وجلس قبالة (هادي) وتأمله بملامح خاليا من التعبير.

ابتسم له (هادي) قائلاً

- أحسن دلوقتي؟

لم يجبه فشعر بالحرج ولكنه لم يتوقف عن الكلام بأي حال مردفاً

- أنا شايف إنك محتاج تغير جو، أيه رأيك لو سافرنا؟ ممكن نأجر فيلا في زانزيبار و..

- قتلتهم ليه؟

رمش ثم ضحك بتوتر وهو يحك وجهه

- مين فيهم؟

- مراتي وولادي.

- (سلطان) هو اللي..

- أنت اللي قتلتهم.. لبست زي (سلطان) وقتلتهم من غير ما ينزفوا نقطة دم واحدة عشان أشك فيه.. خلّيت (عيشة) تقنع (حبيبة) تروح لصاحبك اللي بيقتل الحوامل ويسمها عشان الصورة تكتمل. (سلطان) ما أنكرش عشان يفضل (المايسترو) اللي الكل بيخاف منه وبيعمله حساب واستغل اللي جرالي عشان يخلي مني عبرة لباقي صبيانه.. بس أنت اللي خططت ونفذت كل ده.

ارتشف (هادي) باقي قهوته الفرنسية ثم نظر صوب الزجاج حيث الشارع الساكن ثم تنهد وتكلم مفسراً حين طال صمت (سالم).

- كنت خايف عليك.

- قتلت كل اللي ليا في الدنيا عشان خايف عليا؟

ضرب (هادي) الطاولة براحتيه وأجابه مغلولاً غاضباً ضاغطاً على ضروسه.

- ماتقولش كل اللي ليك في الدنيا.. مراتك وعيالك

خدوك مني.. اللي ما تتسمى دي ملت دماغك بأفكار فارغة وأوهمتك بمرض مش عندك وخلتك تسيب شغلنا وحياتنا عشان تقعد في البيت تقشر لها برتقان وتسيبني أنا لوحدي بعد كل اللي كان بينا.

- هو إيه اللي كان بينا؟

- الصداقة.. الشغف.. أنا عارفك من عشرين سنة، عشرين سنة يا (سالم) رَميتهم في الزبالة عشان الست هانم بتقولك إنك سيكوباتي.. جوازك ليها خلى إيدك ترتعش و قلبك يخاف من الموت.. ده وضع مقرف أنا ماقبلهولكش.. (الدَغَّش) كان عنده حق، أنت ربطت نفسك وماكانتش هترجع تطير تاني غير لما جذروك تتقلع من الأرض وأنا عملت ده نيابة عنك.. أنا حررتك منهم.

- أنت عملت كل ده عشان أقتل (الدَغَّش) وتبقى أنت (المايسترو) وكل ده يبقى ملكك.

ضحك (هادي) ساخراً من سذاجة تفسير صاحبه للموقف

- مِلك (سلطان) كله مايلزمنيش ولو كان ده طموحي كنت قعدت مكان (الدَغَّش) من زمان.. أنا عندي سرطان بينتشر في جسمي ومافيش لا دوا ولا علاج عارف يوقفه. كلها كام شهر وأموت يا (سالم) زفر بضيق ثم أردف: أنت ليه مش

قادر تصدق إني عملت كل ده عشان بحبك؟ عشان أرجعك تاني (سالم) اللي اكتشفته واخترته للحياة دي.. الست هانم وابنها جردوك من قوتك وقلبك الميت بمشاعرهم وعواطفهم وهرموناتهم وخلوني هموت من الحسرة عليك.

أربكه صمت (سالم) فوجد نفسه يسهب في الحديث علّه يقنعه بنبل نيته

- أنا كان لازم أعمل كدا لأنك مش هتعرف تتصرف من بعدي.. كان ضروري أقويك وأخليك ماعندكش حاجة تخسرها عشان تعرف تقف على رجليك لما أموت.. وكمان عشان مابقاش قلقان عليك في آخر كام يوم ليا في الدنيا.. لو رجع الزمن هعمل كدا تاني عشان أنا مستعد أخاطر وأعمل أي حاجة عشان مصلحتك اللي أنت مابقتش عارف هي فين.

حدق (سالم) بالفراغ صامتاً.

أنزل النادل كوب الشاي بالنعناع أمامه دون أن يطلبه.

ابتسم (هادي) شاكراً النادل ثم نظر لـ(سالم) بحنان

- أنا طلبت لك الشاي اللي بتحبه.. اشربه عشان أعصابك تهدا وتعرف تفكر كويس.

رحل النادل النحيل وظل (سالم) يحدق للشارع عبر الزجاج

فحسب.

- أنا عارف إنك أكيد متضايق، بس لو فكرت في الموضوع، هتعرف إني عندي حق وإن اللي عملته ده هيفيد مستقبلك.. همس له متحمساً وسعيداً: دلوقتي، أنت ممكن تبقى (المايسترو)، أنت تقدر تباشر كل الشغل ده بنفسك وتكمل المنظومة ابتسم بنرجسية: أينعم مش هتعرف تلاقي مساعد زيي يشيل لك الشغل زي ما شيلته لـ(سلطان) بس أنا لما أموت، روحي هتُبعث من جديد، وهدور عليك وهلاقيك وهنرجع نشتغل سوا تاني زي زمان مدّ يده ليصل لكفي (سالم) ثم مسكهما بحنان مردفاً بأعين لامعة: حتى وأنا ميت.. روحي هتفضل متعلقة بيك.

مط (سالم) شفتيه ونظر أخيراً لـ(هادي) بأعين خاوية التعبير.

سحب كفيه من راحتي (هادي) بهدوء ثم عدَّل نظارة نظره بينما سعل ليصفى حلقه لينطق بعد صمت طويل.

- استناني.

أبتسم (هادي) وهز رأسه برضا وطاعة.

نهض (سالم) عن كرسيه وترك الطاولة متجهاً للباب.

دلف الشارع الضيق بخطوات هادئة ووجه يخلو من أية تعبيرات وهو يخرج من جيبه مفتاح سيارته.

وقف أمام الماتريكس المتربة التي جلست على حقيبتها الخلفية قطة رمادية فحملها (سالم) بحنان ثم أنزلها أرضاً برفق.

فتح صندوق السيارة الخلفي وأخرج منه حقيبته الرياضية متحسساً محتواها بيده ليتأكد من الراقدة بداخلها.

حملها بخفة ثم أغلق السيارة عائداً للكافيه.

راقب (هادي) محيطه حيث ثرثرة الجالسين بالمقهى من شباب يمارس عمله على اللابتوب بينما يحتسون الكابتشينو وسيدات أرستقراطيات لا يكففن عن النميمة.

لم يسمع سوى صوت حركة الجارسون الخفيفة بوسط الكافيه وضجيج الخلاطات التي تزمجر من وقت للثاني وضغطة بخار ماكينة القهوة وقد ساد هدوء الظهيرة إلى أن قاطعه أزيز الباب ودخول (سالم) على بداية موسيقى أغنية دبر القدر أن تُعزف الآن.

- لا، لا شيء، لا، أنا لست نادمة على أي شيء.. لا على الخير الذي فعلوه لي ولا على السوء الذي أصابوني به، كل الأمور عندي سواسية.

قالتها (إيديت بياف) منشدة أغنيتها الأكثر بأساً "Non, je ne regretted rien ليطابق عنوانها حال المنصت إليها والشارد بكلماتها.

شاهد (هادي) ما يفعله شريكه بابتسامة راضية.

وقف (سالم) عند الباب بهدوء شديد وملامح خاوية وبيده حقيبته الرياضية.

أغلق باب الكافيه وأستند عليه مولياً ظهره له وهو يضع الحقيبة أرضاً فاتحاً إياها مخرجاً منها كلاشنكوف AK-47 بسلاسة فلم يلاحظ ذلك غير (هادي) والجارسون الواقف بالقرب من غرفة العاملين حاملاً صينية عليها بعض المشروبات فركض الجارسون صوب غرفة العاملين ليختبئ حين عمّر (سالم) سلاحه ورفع كلاشنكوفه وأمطر الرصاص على كل الجالسين ليرتفع أزيز طلقاته مغطياً على كلمات (بياف).

دون أن يتحرك من مكانه أو يبتعد عن الباب، جعل الموت يخيم على كل مرتادي المقهى بسرعة خارقة كما اعتاد مساعد عزرائيل على قنص البشر باحترافية مذهلة، فجال بنظره من طاولة لأخرى ومن شخص لآخر وهو يرديهم برصاصه.

نهض (هادي) وضحك منتشياً وصقف كالمجذوب

- حمد الله عـالسلامة.. حمد الله عـالسلامة يا (سالم).

رفع رأسه بشموخ وفتح ذراعيه ووقف وقفة تطابق وقفة (بياف) بالصورة الملصوقة على الجدار وهو يهمس لنفسه متمتماً خلفها بالفرنسية

- لا، لا شيء ، لا ، أنا لست نادمة على أي شيء، الندم يدفع ويكتسح ويُنسِي، وأنا الماضي لا يهمني.. لا، لا شئ، لا، أنا لست نادمة على أي شئ.

قل صريخ الاستنجاد مع انخفاض أعداد القلوب النابضة بالمقهى وزيادة عدد الطلقات التي تطير من كلاشنكوف (سالم) صوب رؤوس ضحاياه وبسقوط آخر قتيل ساد الصمت.

لم يتبقى سوى ذاك الذي يظن نفسه واقفاً على خشبة المسرح منشداً لجثث الموتى المتناثرة على الطاولات والغارقة في دماءها.

لم ينظر (سالم) للضحايا وكأنه واثقاً من أنهم ماتوا جميعاً واتجه نحو الطاولة حيث وقف (هادي).

هلل (هادي) ضاحكاً وهتف محمساً إياه

- قلت لك.. أنا مش هلاقي أعز منك يقتلني يا صديقي.

ضربه (سالم) بكعب البندقية على وجهه فكسر له أنفه وأنسابت دماءه، لم يمهله أن يتأوه بل باغته بضربه أقوى أسقطته أرضاً.

اعتلاه (سالم) وهوى عليه بكعب البندقية للمرة الثالثة

- وأنا قلت لك..

ضربه ضربة أعنف نثرت دماءه على وجه (سالم) ونظارته.

-.. مابحبش حد..

سمع صوت طرقعة عظام وجهه وهو يهوي عليه بكل ما أُوتي من قوة.

-.. ييجي عليا.

ألقى البندقية بجواره وحول وجه صديقه لكيس ملاكمة يفرغ فيه غضبه.

تطايرت الدماء على نظارة نظره بينما صاح مزمجراً

- مابحبش حد يجي عليا.

نهض وانتشل الكلاشنكوف ثم فرغ به الباقي من رصاصه بكل شبر من جسد صديقه السيكوباتي.

- مابحبش حد ييجي عليا.

كررها ثانية ثم صاح وصرخ منفساً عن سخطه واحتجاجه على واقعه فثار نبضه وتمردت أنفاسه حتى لهث وآلمته ذراعيه فتوقف عن ضربه ووقف عند رأسه يتأكد من أن أنفاسه قد انقطعت.

طُمِسَت ملامحه من شدة الضرب واجتاحت جسده الثقوب حيث موضع الرصاصات.

وهكذا مات عاشق (إيديت بياف) المتعطر بالروائح الفرنسية وانتهت حياة مرتشف النبيذ وعالِك اللبان بالمستكة صاحب الابتسامة السينمائية والنظرات الجذابة والشعر اللامع والبدل الإيطاليا الأنيقة والساعات الذهبية.

قُتِلَ الذي ذاق العذاب جنيناً فرضيعاً فطفلاً فمراهقاً فشكلته المآسي وظن نفسه بقادر على أن يُذيق الدنيا كأسها المُرة فيصير معذبها بدلاً من ذليلها ولكن ما من متخذ للحياة عدو إلا وغلبته.

رحل (سالم) عن جثة صديقه واتجه كالروبوت صوب غرفة العاملين حيث اختبأ الجارسون.

فتح الباب بهدوء ودلف الغرفة بعينيه الراكزتين وقد راح عنه كل الغل والغضب اللذيْن أفرغهما بجسد (هادي).

كانت الغرفة صغيرة وضيقة بها كرسي عليه ملابس النادل وحقيبة رياضية رخيصة وبالزاوية أدوات نظافة.

وقف (سالم) بجوار الباب ولبس الكلاشنكوف لتتدلى على ظهره ثم أخرج منديلاً من جيب قميصه وخلع نظارة نظره لينظف عنها دماء قاتل زوجته وأبنائه.

تكلم بنبرة هادئة تخلو من أي اضطراب نفسي أو عقلي

- اتصل بالبوليس.. قولهم في واحد مجنون قتل الموجودين في الكافيه.

لم يسمع رداً ولكنه أنصت لتلك الأنفاس المضطربة الباكية خوفاً.

أنهى (سالم) تنظيف نظارته وأعاد المنديل لجيبه دون أن ينظف الدماء من على وجهه أو يده ثم أردف بنبرة فاترة ملولة وهو يرتدي نظارته

- قدامك خمس ثوانٍ لو ماطلعتش هتحصلهم.

لم يسمع صوت أو حركة النادل فبدأ العد

- واحد...اتنين...تلا...

قاطع عده البطيء صرير الباب حين خرج النادل الذي كان

مختبئاً خلف الباب المفتوح وهو يتصبب عرقاً ويرتعد رعباً.

وقف أمام (سالم) متوسلاً

- أبوس إيدك ما تقتلنيش أنا..

قاطعه (سالم) بنبرة حيادية لا تناسب الموقف

- كلمهم من موبايلي.

قالها وهو يخرج هاتفه من جيبه وضرب أرقام الشرطة الثلاث ووضع الهاتف على أذنه ثم ناوله للنادل المرتعد

- بيرن.

أخذ النادل الهاتف بأصابع مرتعشة وهو ينظر لـ(سالم) بشك وخوف فتكلم بنبرة مهزوزة

- آلو.. الحقوني فى واحد..

قاطع (سالم) كلامه وهو يشير له بعلامة مجنون فأردف منفذاً التعليمات

- فى واحد مجنون دخل الكافيه ببندقية وقتل الناس... موِّت..

فتح (سالم) أصابعه العشرة ليعرفه عدد الضحايا

- موّت عشرة، كلهم ماتوا...أبوس إيديكم الحقونى الكافيه

فى شارع متطرف مافيهوش صريخ ابن يومين و..

قاطعه (سالم) تلك المرة بكلمات وليس إشارات

- معلش، قولهم إني قتلت حداشر واحد عشان نسيت أعدك.

- إيه؟

- شكراً.

رصاصة أخرى من المسدس الذي كان بجيب (سالم) أضافت جثة جديدة لقتلى المقهى.

ترك (سالم) جثة الجارسون تهبط أرضاً وعاد للطاولة التي كان يجلس عليها قبالة (هادي).

حطّ على المقعد بجوار الزجاج الذي عكس دفء الظهيرة المشمسة بينما ترك الكلاشنكوف أرضاً بجوار جثة (هادي).

الغريب أن كوب الشاي بالنعناع الذي طلبه (هادي) له لم تصِبه طلقة أو بقعة دماء والأكثر إدهاشا أنه لم يبرد بعد.

ارتشف الشاي الدافئ وأنعشه مذاق نعناعه وأخرج من جيبه علبة سجائره ومقدحته.

أشعل سيجارته وانجعص على كرسيه زافراً دخانه وكأن

شيئاً لم يكن ولا أنه يبصر حتى الجثث التي حوله.

استمرت (إيديت بياف) المزعجة التي يمقت حدة صوتها في الغناء فقرر أن يصيب السماعات الأربعة بالزواية بالرصاص ليكتم صوت معشوقة صديقة القتيل.

ساد الصمت.

وهكذا أحب الأيام، دافئة وصامتة.

استمتع بالشاي والسجائر وصوت سارينة سيارات الشرطة المقتربة منه.

الفصل الثاني والعشرون

كانت له أمنية موته.

تمنى (هادي) ألا يموت مريضاً هزيلاً شاحباً بسريره ينهشه السرطان بل ود أن يتصدر الصحف ويجعل من وفاته أسطورة وقد كان.

سيظل الكافيه مصدر للحكايات الشعبية عن تلك الأرواح التي أصابتها رصاصات غاشمة أخرست نبض قلوب مصابيها وستظل المنطقة المحيطة للمقهي تحكي عن الأشباح الدالفة ليلاً ونهاراً بالحي وعن أصوات تقليب المعالق والخلاطات وماكينة القهوة الصادرة من الكافيه على الرغم من أنه صار خاوياً لا نشاط ولا عمل به.

***

- بس أنت شكلك مش مجنون.

قالها المقدم (وليد عطية) نافثاً دخان سيجارته بمكتبه أمام (سالم) المكبل بالأصفاد بعد أن أسندت إليه جريمة القتل تلك.

سأله (سالم) ببرود

- وهم المجانين شكلهم بيبقى عامل إزاى؟

- قتلتهم ليه؟

- كان معايا رصاص زيادة مش عارف أعمل بيه إيه.

كسر ظهر سيجارته بالمرمدة وصاح به المقدم

- الاستهبال ده مش هيطلعك برئ.

مطّ شفتيه وأجابه بفتور

- بس أنا مش برئ.. في الواقع تنهد وثبت نظارته التي تزحزحت عن أنفه: ماحدش برئ، لا أنا ولا اللي قتلتهم ولا (هادي) ولا (سلطان) ولا (شوشو) ولا (حبيبة) ولا (أدهم) ولا التوأمين اللي مالحقوش يخرجوا من رحمها ولا حتى.. شعر بثقل الكلمة ولكنه أردف: ولا حتى (حليمة).. أحنا كلنا عصاة وخطائين.. إحنا نسل (قابيل).. ولاد القاتل ابن العاصي اللي أكل التفاحة.. كلنا ملعونين وكلنا هنفضل نذنب وندفع تمن ذنوبنا لحد ما نقابله وساعتها بقى هو اللي هيحط حد للمهزلة دي.

حكّ المقدم حاجبه بعد تلك الخطبة المجذوبة وعلق مداعباً ولاعته

- إيه دافعك ورا عمليا القتل الجماعي دي؟

ابتسم ساخراً

- تقليل عدد الخطّائين على الكوكب.

***

لم يحتج الأمر الكثير من التحقيقات ليتقرر إيداع السفاح الفيلسوف ابن (قابيل) القاتل وحفيد (آدم) العاصي بالخانكة لمدة خمسة وأربعين يوماً ليُعرض على لجنة من الطب الشرعي لتحديد قواه العقليا وتشخيصه.

نُقل إلى جناح الرجال في سيارة مستطيلة بتروليا اللون تخطت بضعة بوابات ومحطات تأمين وتفتيش إلى أن استقرت أمام جناح الرجال.

هبط منها هو وخمسة آخرون تحاشوه لأنه صاحب الرقم الأكبر بينهم من حيث الضحايا.

شخللت الأصداف بأيديهم وهم يمرون من بوابة معدنية موصدة بمفاتيح عملاقة ويتمّون الإجراءات والتفتيش الذاتي حتى وصلوا للعنبر الذي تطوف بسقفه المراوح العشر مصدرة أزيزاً مزعجاً فوق الأسرّة الخشبية الإثنى عشر ذات المراتب الرفيعة التي أكلها الدهر بترابه وحشراته.

ارتفعت الأسرّة بضع سنتيمترات عن الأرضية المتربة ذات البلاطات العارية الداكنة وهنا جلس (سالم) على سرير خاوي أسفل النافذة ذات أزبرة الحديد الضيقة المسافة فلا تقوى

حتى على تمرير خنصرك من خلالها.. هذا إن استطعت أن تصل لارتفاعها.

قابل سرير (سالم)، فراش الفريسة التي ارتكب جريمة الكافيه وقتل (هادي) علانية وادّعى الجنون من أجل الوصول إليها.

دخن الخمسينيّ صاحب الشعر الفضي غليونه بأرستقراطية وراقب النزلاء الست الجدد بعجرفة وامتعاض ونظر للعسكري الذي لم يرحل عن العنبر دون أن يتأكد أن كلّ جلس على سريره بلا متاعب فوجه له الحديث بضيق

- كدا كتير، اتناشر نفر في نفس المكان كدا زحمة وثاني أوكسيد الكربون هيزيد في العنبر وهنموت مخنوقين.

صاح به العسكري الإقليمي اللكنة

- اسكت يا مسجون، وهات الزفت اللي بتدخنه ده.

- لو جدع تيجي تاخده وأنا أخلي اللوا (تحسين سرور) يعرف شغله معاك.

- اللهم طولك يا روح.

قالها العسكري وخرج صافعاً الباب موصداً إياه خلفه.

أكمل الدكتور (رفعت نزيه) مسمم الحوامل زفر دخانه

بالأجواء متأففاً من زملاءه

- يعني حقيقي مش ممكن.. مش كفاية زاحمين المكان كمان جايين تخنقونا بريحتكم.. باتنين جنيه شابة سايبة ترحمونا من العما ده يا إخوانا.

قالها وهو يغطي أنفه بياقة سترته الرياضية القطنية ذات الماركة الباهظة التي لا تليق بنزلاء الخانكة.

ألصق ظهره بالحائط المتصدع وصار يُنزل ياقة سترته ليسحب نفساً من الغليون، ثم يعيدها ثانية ليقلل من وطأة رائحة العرق التي سيطرت على أنفه.

نهض (سالم) عن سريره واقترب منه فرمقه (رفعت) بضيق وأخذ يراقبه حتى تأكد أنه يقترب صوبه.

صاح به مهدداً إياه

- أنا من طرف اللوا (تحسين سرور) لو قربت مني هـ...

- أنا جَي لك من طرف (هادي).

صمت الطبيب ثم رمق (سالم) بضيق

- ده مش مبرر عشان تخترق مساحتي الشخصية وتقعد على سريري.. مش ناقصين تلزيق.

- واللي يخلصك من الزحمة دي ويقعدك في أوضة لوحدك؟

رفع حاجبيه بفضول ولكنه لم يعلن اهتمامه فسأله بتعال:

- ومين قالك إني عايز أقعد لوحدي؟

- يظهر إني فهمت غلط.

قالها (سالم) بثقة وهمّ أن ينهض ولكن (رفعت) استوقفه بضيق

- إستنا يا بتاع أنت عاد (سالم) للجلوس بجواره: قصدك إيه بإني أقعد لوحدي؟

- تقعد في العزل.

- بس العزل ده للي خطر عـاللي حواليهم، وأنا لا خطر ولا مجنون. مش ذنبي إنكم شوية بقر مش فاهمين إن الكوكب على شفا حفرة هلاك بسبب العيال اللي بتزربوهم ليل نهار لحد ما مش هنلاقي ناكل حتى من خشاش الأرض.. فاهم يعني إيه كل سنة بيتولد ٨٣ مليون شخص في العالم؟ عارف يعني إيه هبوط في نسبة الوفيات وارتفاع نسبة المواليد وكل ما يطلع فيروس يلاقوا له مصل والمصادر واحدة وثابتة مش بتجدد؟ طب الأمريكان والأوروبيين والعالم المستنيرة بقوا بيفكروا يعمروا القمر والمريخ عشان

يعيشوا على مصادره الجديدة. إحنا بقى هنروح فين بالـ٢٥٪ اللي بيزيدوا كل سُنة وأحنا بقينا نستورد الفول زفر دخان غليونه وتنهد ثم أضاف: أنا كدا كدا مش مطول هنا، أنا واصل ومعارفي مش هيسكتوا على المهزلة دي.. أنا وأنت وأي حد دخل هنا عشان قتل نستحق نتكرم على خوفنا على مصادر البلد ومواردها ومستقبل سكانها.

- ومن هنا لحد ما تخرج، هتفضل قاعد وسط الأوباش العرقانين دول؟

أعاد تغطية أنفه

- أنا ماقدرش أورط نفسي في مشاكل أكتر من كدا عشان موقفي ما يسوءش.

- اللي تشوفه.. بس لو احتجت حاجة أنا موجود.

- صحيح.. أنت قتلت مين؟ أو خلينا في الأهم، عددنا قل كام واحد؟

- مابعدش، أنا بقالي عشرين سنة بقتل بمعدل شخصين في الشهر.. أحياناً أكتر.

صفق (رفعت) بفخر

- أحييك.. طول ما في ناس زيك وزي (هادي) مش

هنستنى لا كوليرا ولا طاعون ولا حرب عالمية تالتة عشان يعدلوا توازن تعداد الكوكب.

فجراً، غط (رفعت) في النوم وعلى الرغم من أنه كان يُشخر كالخنزير بطريقة جعلت من حوله يظنونه غارقٌ في نوم عميق، إلا أن كابوساً كان يقبع على صدره.

كان يرى نفسه على طبليا خشبية دائرية عليها سبع بنات وأب وأم يتصارعون على لقيمات الخبز وغموس الفول وفجأة رأى نفسه يتحول لغول غائر الفم عملاقه، ينهض عن الطبلية الداكنة ويبدأ بابتلاع الفتيات السبع الواحدة تلو الأخرى خالعاً رؤوسهن، مهشماً عظامهن، لائكاً لحمهن بين أسنانه الحادة السوداء لتنبع من فمه رائحة شنيعة استيقظ من بشاعتها وهو يلهث.

جلس في سريره وتلفت حوله.

كاد أن يمد يده نحو الكومود ليسحب كوباً من الماء يشربه ومنديلاً يمسح به عرقه ولكنه أدرك أنه سجين عنبر المجرمين بالخانكة ولا كومود ولا ماء ولا مناديل حوله.

مسح جبينه بكمه وأخذ بضعة أنفاس عميقة، فعلى الرغم من أن هذا الحلم يلاحقه منذ كان بالسابعة من عمره إلا أنه لم يتوقف عن الشعور بالذعر كلما راوده.

كان (رفعت) الصبي الأول والأخ غير الشقيق لسبع بنات يكبرنه، أنجبتهن زوجة حارس عقار تلك البناية الأنيقة العريقة بحي المعادي التي تُسعر شققها بالستة أصفار.

حين تأكد الحارس أن رحم زوجته لا ينبت سوى إناثاً قرر أن يُطلِّقها بعد أن أنجبت له سبع بنات فانتقى غيرها من ريف بلدته تنجب له صبياً يحمل اسمه.. وقد كان ميلاد (رفعت) الذي رفع رأس أبيه بين أهله.

سكنت زوجة الأب ورضيعها بغرفة الحارس الضيقة التي بالكاد تكفي ثلاثة أفراد فما بالك بعشرة؟

إلى أن أتم رفعت عامه السابع، كان يعيش صراعاً يومياً على من سينتشل لقمة الخبز ويغمسها بالفول قبل أن يجذبها منه الآخر.

من سيدخل المرحاض أولاً قبل أن يبول الآخر على نفسه.

من سيشرب الماء ويرتوي قبل أن يفرغ الزير.

من سيلحق المكان الأريح على البلاط لينام على ظهره لا جانبه ومن سيجذب طرف البطانية ليتدفأ شتاءا.

ولأنه كان الصبي الوحيد والابن الأثير المنتظر، صار الوحيد بين الأبناء الثمانية الذي التحق بالمدرسة الحكومية

بالعزبة المحيطة بحي المعادي الراقي، ولكن حتى بالمدرسة، كان يخوض الصراع ذاته.

من سيركض خلف أوتوبيس النقل العام المتهالك ليلحق لنفسه مكاناً يكفي للوقوف على ساق واحدة حتى الوصول لوجهته.

من سيكسب السباق بين مئة وعشرين طالباً ليجد لنفسه مقعداً يجلس عليه بربع مؤخرته كي لا يظل واقفاً طيلة اليوم الدراسي على ساقيه ولا بأس إن كسبت ذاك السباق بضرب وصفع وركل ولكم زملائك للفوز بمسافة عرضها عرض كفك للإتكاء عليها.

من سيكسب سباق الحفاظ على وجبته دون أن يضربه أحدهم وينتشل منه قطعة الحلاوة ومثلث الجبن ورغيف الخبز ذا المسامير أو أعقاب السجائر وبرتقالة ملوحتها تصطك لها الأسنان.

كان يخسر (رفعت) كل تلك السباقات والصراعات ويسمح للجميع بلطمه وإسقاطه ودفعه للحصول كل ما يمكله من حق في الحياة والراحة والدفئ والمأكل والملبس إلى أن كلمهم مدرس اللغة العربية عن الكثافة السكانية وخطورتها على المجتمع

- يعني لو كل واحد فيكم أهله كانوا خلفوا عيل واحد

ماكانش زمانكم راكبين فوق بعض كدا على دكة يا بقر يا ولاد البقر.

رفع (رفعت) يده وسأل أستاذه ببراءة

- يعني إخواتنا هم السبب يا أستاذ؟

- آه يا جالوس الطين، الخلفة الكتيرة هي سبب الفقر والجوع والزحمة والقرف اللي بنشوفه كل يوم.. افتحوا الكتاب على صفحة عشرين وكرروا ورايا.. يجب تنظيم النسل لضمان حقك بالحياة.

حفر (رفعت) تلك الكلمات بعقله وأخذ يفكر.

إذا لم يكن لديه سبع أخوات، لكان استأثر بطبق الفول كله وشرب من الزير حتى ارتوى ودخل الحمام متى هوى ونام وتمدد وارتخى وتغطى وتدفأ وغفى بلا شقاء.

يجب تنظيم النسل لضمان حقك بالحياة.

أدرك ابن السابعة ضرورة إصلاح خطأ أبيه ولكن كيف له أن يُعيد الزمن ويقنعه ألا يسهب في النسل وكيف له أن يمحو وجود سبع بنات من على وجه الأرض؟

- أنا نازلة أجيب سم فران بدل ما يعضوا الواد يمرضوه.

أعطته أمه الإجابه على صحن من ذهب حين لاحظت

أسنان الجرذان بالصناديق الكرتونية التي تخزن بها الطعام وعليه نزلت للصيدليات واشترت سم الفئران.

لم تكن تعلم أنه بالصباح التالي سيأخذ (رفعت) السم ويدسه بصحن الفول المخصص لأخواته ويجالسهم على الطبيلة ليشاهدهن يتصارعن فيما بينهن على ابتلاع السم فيما امتنع هو عن الأكل دون أن يلاحظه أحد.

شاهدهن منتشياً بفكرة أن يصير الطفل الوحيد لأسرته المبالغ في عددها.

ارتدى ملابسه وربط حقيبته القماشية وتراقص في طريقه للمدرسة مفكراً في صحن الفول والخبز الذي سيأكلهما بمفرده غداً والحمام الذي سيستخدمه بمزاج حين رجوعه.

ظل اليوم كله شارداً غارقاً بأحلام اليقظة الوردية التي سيطرت عليه حتى عاد لبيته راكضاً بحماس ليجد الغرفة فارغة من الجميع إلا والدة أبيه ووالده المكلوم يبكي بناته السبع بينما تُسَمِم أمه العجوز مسامعه

- قلت لك ماتدخلش مرات أب على بناتك، أديها سممتهم لك.. سبع عرايس راحوا فطيس يا أبو البنات.

جلس (رفعت) بجواره متجاهلاً ترهات جدته الجاهلة وربت على كتف أبيه.

لم يفهم حينها أن أمه هي التي أثقل كاهلها بتهمة تسميم البنات السبع بدافع أنها زوجة أبيهم الخناسة التي تبغضهم وعلى الرغم من أن ذاك الجزء حقيقي وأنها كانت تسئ معاملتهن وتكثر من ضربهن وسبهن إلا أن الأمر لم يكن ليصل إلى حد تسميمهن.

ومن يصدقها ومن يشك أن تلك الجريمة هي فعلة الصبي ابن السابعة الذي مقت حروبه اليومية للبقاء وقرر الاستئثار بالحياة بمفرده.

سأل عن أمه وأخواته بخبث، فأخبره أبوه أن أرواحهن صعدت للسماء ولن تعد قد تظاهر (رفعت) بأنه صدقه ولم يسأل عليهن مجدداً.

بعد موت البنات السبع وشنق الأم، اعتزل الأب الزواج وقرر أن يكرس الباقي من حياته في العناية بوحيده وبدلاً من الصرف على عشرة أفراد، قُسِمَ الدخل على اثنين.

تحولت وجباته من لقمة فطاراً وملعقة أرز غداءاً وأمعاء خاوية عشاءاً إلى ثلاثة أرغفة وبيض وفلافل وجبن وفول فطاراً، صحن كامل من الأرز ونصف فرخة وخضار مطبوخ غداءاً، وزبادي ومربى وفاكهة عشاءاً.

ربما لم تُحل صراعات الفصل والمدرسة ومواصلات النقل

العام، ولكنه على الأقل استطاع أن يحسن من مستواه الدراسي مستعيناً بفصول التقوية التي قدر أبوه على دفع ثمنها له حتى حاز على مجموع مكنه من دخول كليا الطب فقدر وحيد أبيه على مصاريف تلك الدراسة الشاقة.

تخرج (رفعت) بامتياز وعمل بمشفى عام وتخصص في العمليات المحرمة والمجرمة حتى أصبح خبير الإجهاض الذي جنى ثروته وأمواله من قتل الأجنة وهكذا ارتقى بالمجتمع وانضم للعمل بمستشفى خاص وبوفاة أبيه تخلص من أصله وتزوج ابنة صاحب المشفى.

ليتحول من مجرد طبيب ماهر له عيادة خاصة إلى شريك بالمشفى يتابع حالات النساء ويسمح لهن بوضع طفل واحد وإن عدن إليه مجدداً بحمل جديد فليكن مثواها سم الريسين لتلحق بأخواته السبع.

دعك (رفعت) عينيه وقرر أن يذهب للمرحاض لقضاء حاجته.

دخل الحمام ذا البلاط الأبيض المشروخ الذي تنتشر به بقع داكنة لا داعي لتحليل مصدرها.

تخير مقعداً يجلس عليه وجذب ستارته الصفراء ذات البقع البنية ليستر نفسه بينما بقى العسكري واقفاً بالخارج ينتظره حتى يفرغ.

ما لم يعلمه (رفعت) هو أنه ليس الوحيد الذي له علاقة باللواء (تحسين سرور)، وأن لغيره واسطة أقوى تسمى المال وهي دائماً ما تغلب النفوذ والسلطة اللاتي تخلقهن المراكز المهنية.

نظف نفسه ونهض عن مقعده متقززاً من العفن المهيمن على المكان وخرج ليجده ينتظره بمفرده وبيده مَوْسى.

وضع (سالم) المَوْسى بجيب قميصه ونظر لـ(رفعت) متفحصاً إياه ومراقباً حيرته

- بما إنك دكتور، تعرف يعني إيه سيكوباتية؟

ابتسم ساخراً

- أكيد.

- أصلهم صنفوني إني سيكوباتي اقترب منه شارحاً: في دكتورة قالت لي أن السيكوباتي هو واحد بيقتل الناس بدم بارد بدون دافع ومن غير ما يحس بتأنيب الضمير أو الذنب ناحيتهم.. أنا كنت بقتل عشان دي الحرفة الوحيدة اللي الحياة علمتهالي.. وأنت بتقتل عشان فاكر إنك بتأدي خدمة للمجتمع.

رفع حاجبيه مختالاً بنفسه

- صحيح.

- يبقى أنا وأنت سيكوباتيين. لا أنا ولا أنت بنفكر في حياة الناس اللي قتلناهم ولا في أن موتهم هيأثر على اللي يخصوهم إزاى لدرجة إننا ممكن ننسى حتى إننا قتلناهم.

- مش صحيح.. أنا..

- أنت ناسي حتى أنا مين.. ناسي إنك سممت مراتي وهي حامل في توأم لمجرد إنك شايف إننا هننقص النيل بُقين مية.

نظر له «رفعت» للحظات متفرساً ملامحه

- أنت شريك (هادي).

- أنا صاحبه السيكوباتي اللي أنت ساعدته يقتل مراته وولادها اللي في بطنها.. وأهم صفة في السيكوباتي إنه نرجسي، يستحيل يسيب حاجته لحد أو يسمح أنه ياخد منه غصب.. وأنت خدت مني تلات حاجات مش حاجة واحدة.

لم يمهله.

ضرب رأسه الأشيب بالجدار الأبيض فارتطم بعنف بالبلاط البارد المشروخ الذي تداعى.

داخ الخمسينيّ وسقط أرضاً فاعتلاه (سالم).

باغته الطبيب القاتل ولكم وجهه ليدخل فص خاتمه الضخم بعيني (سالم) فآلمته ونزفت كأنه فقعها له.

ثائرٌ يعميه الألم والغضب والدماء السائلة من عينه، أحكم قبضتيه على عنق (رفعت) ليرفع رأسه ويهوى بها عدة مرات على الأرضية المبتلة بسرعة كادت تسحب روحه وتكتم أنفاسه خاصة وقد زاد ضغط إبهاميه على حنجرته.

لم يكتفِ بأنينه المكتوم والرعب الساطع من عينيه وهو يخنقه ويرطم رأسه، أراد أن يُسرع العملية قبل أن يأتي شخص غير العسكري المرتشي الذي رحل عن محيط المرحاض، فقرر أن ينهي حياة مسمم زوجته وابنيه.

رفع أصابعه عن عنقه وفي حركة خفيفة لوح رقبته باحترافية فكسر عنقه متمزجاً بصوت الطرقعة التي أعلنت انتصاره على كل من آذوه وسلبوه أسرته.

نهض (سالم) من عليه وألقى بنفسه أرضاً مستنداً على الحائط الذي أضاف لبقعه الداكنة، بقع دماء قانية نزفها (رفعت نزيه).

كان (هادي) على حق، أن تقتل بيديك العاريتين دون أية أسلحة لهو شعورٌ عظيم بالصولة.

على الرغم من ارتياحه من أنه خلص حقه واقتص لنفسه إلا أنه يشعر بألم ينهشه.

ليس ألم عينه التي طالها (رفعت) وجعلته يلهث ويضغط عليها بعد أن غطاها الألم بالظلام؛ ولكنه أسى كل ما سبق من مرارة الحياة البسيلة ووطأة تنفيذ قراره الذي اتخذه منذ بدأ عمله كقاتل.

أخرج من جيبه المَوْسى الذي أدخله خلسة مقابل رشوة زهيدة وأخذ يحدق به.

حان وقت الرحيل!

قرّب المَوْسى من عنقه ولكن ارتعشت أنامله.

صعد صدره وهبط بثقل أنفاسه وحرقته عينه بشدة ولكنه رآها، واقفة أمامه بثوب فرعوني أبيض شفاف يزين ياقته جعران فيروزي يخرج منه جناحان من ذهب كجناحي (ماعت) إلهة العدل.

شعرها الأسود اللامع مجدول وعيناها الداكنتان مكحلتين وشفتاها الممتلئتان خضبتهما بالأحمر.

ذات البشرة النوبية والبهاء النيلي أتته ومشت بطرف ثوبها فوق الدماء المتناثرة ثم جثث على ركبتيها أمامه.

- فقدت عينك يا (سالم)؟

قالتها (حليمة) النوبية وهي تنظر لحال وَلَدها بأسى.

امتلأت عيناه بالدموع وارتعش وبكى في حضرتها.

- حاولت أحافظ عليها يا أمي.. ماعرفتش.

مدت يدها الرؤوفة متحسسة عينه التي تؤلمه وابتسمت له بحنان كما اعتادت ثم نظرت للمَوْسى وهي تمسح دموعه بأناملها وتشير له مشجعة إياه

- تعالا يا ولدي، أنا مشتاقة لك.

ابتسم مطمئناً ونظر لها متحمساً للبقاء معها ليعاوده الشعور بالحنان والحب ثانية.

أحكم مسكة المَوْسى الحاد ورفع رأسه وبحركة دائرية واحدة نحر نفسه لتنفذ نافورة الدماء من عنقه.

غلبته الحياة كما غلبت سابقيه أجمعين وأرجعته خاسراً.

لقد خمن أن بقتل نفسه سيتغلب على الدنيا ويسلبها نفوذ تحديدها لمصيره ولكن كيف للشاة أن تظن نفسها سبعاً ويخيل لها أنها قادرة على الهرب من قدرها إذا تظاهرت بمقاومة جزارها؛ هيهات.. فمحاولاتها العبثية للنجاة لا تعكس شيئاً غير أنها لا تتقن سوى لعب دور الضحية بكل حكاية

شعبية.

شكر خاص لكل من تكرم بوقته وعلمه لإثراء هذا العمل

عبير فرحات

مايا المهدي

د. نيك زيلجر

د. دانيال كورتنز

د. كنت. أ. كيهيل

د. موريس ب. هوفمان

د. شاسيتي س. نوريس

د. لاري ميلير

د. جون وايتهيد

د. لويزة مهنة

أ. علي راجح بركات

عن الكاتبة:

تلك الرواية هى العمل الرابع للكاتبة (ميرنا المهدي) بعد روايتها الأولى "تحقيقات نوح الألفي" التي طُبعت بديسمبر ٢٠١٨، والرواية القصيرة "ثلاثة عشر" التي صدرت ضمن سلسلة الأرشيف بيناير ٢٠٢٠، ورواية "روك أند رول" التي نُشرت بأغسطس ٢٠٢٠.

ولدت (ميرنا المهدي) بالأول من يناير لعام ١٩٩٧ بحي المعادي وتخرجت في مدرسة (ليسيه الحرية) ثم في (كلية الألسن جامعة عين شمس) لتتخصص بأدب وترجمة اللغتين الفرنسية والإسبانية بعد أن حازت على عدة جوائز أدبية من سفارتي كندا وفرنسا والمركز الثقافي الفرنسي.

تعمل (ميرنا) بمجال إدارة المنشآت إلى جانب ممارسة شغفها في كتابة الروايات وتأليف السيناريو وتدوين المقالات الخاصة بمجلة "الشاي" الإلكترونية وسلسلة ومضات الإثارة النفسية القصيرة بعنوان "سايكوفوبيا".

للتواصل مع الكاتبة:

Email: mirnaelmahdy.1@gmail.com

Facebook: www.facebook.com/MirnaElMahdyWriter

Twitter: @Mirna_El_Mahdy

Instagram: @mirnaelmahdy

Goodreads: ميرنا المهدي

صور هذا الكود بكاميرا هاتفك للتواصل مباشرة مع الكاتبة

